



المجلس الإسلامي السوري
SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مقاربات

أبحاث ومقالات في
الشريعة والفكر والحضارة

العدد ٥ - رمضان ١٤٤٠ هـ / أيار ٢٠١٩ م

* التاريخ تقرره الأفكار لا الأسلحة

* الموضوعات والإسرائيليات في كتب المحدثين

* الجوانب الحضارية عند الشيخ محمد الغزالي

* الأقليات حصان طروادة جديد لشرق أوسط جديد

* كيف نصلح ما أفسده الأسد



محتويات العدد

- التاريخ تقررهِ الأفكار لا الأسلحة - رئيس التحرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر ٢
- الموضوعات و الإسرائيليات في كتب المحدثين - الدكتور عبد العزيز محمد الخلف ٥
- الجوانب الحضارية عند الشيخ محمد الغزالي رحمه الله - الدكتور وصفي عاشور أبو زيد ١٣
- الأقليات حصان طروادة جديد لشرق أوسط جديد - الدكتور ماجد الدرويش ٢٤
- فقهاء التمكين ومنهج بناء الدولة دولة المرابطين أنموذجاً - الدكتور أيمن يزبك ٣٤
- أثر الحرية والطاعة على قوة الدولة واستدامتها - الدكتور عبد السلام البيطار ٤٤
- أيام تركستان والرأية الحمراء نازُّ لم تخمُد - الدكتور حسن خطاف ٤٩
- «أرض الشام» قصيدة شعرية - منتصر عبد الغفور اليونس ٥٧
- الديكتاتور والاعتقال - المهندس مروان العش ٥٨
- سيكولوجية الجماعات والطاغية من واقع الثورة السورية - الدكتور محمد سليمان فارس ٦٤
- كيف نصلح ما أفسده الأسد - الباحث محمد علي النجار ٧٥
- مقالات إعادة الإعمار الفكري للمسلمين - الباحث إبراهيم حسون ٧٩
- تحديات الإعلام الإسلامي وسبل النهوض به - الأستاذ تميم اليونس ٨١
- الخطاب الإسلامي المعاصر معالم وأفاق - الدكتور موسى إبراهيم الإبراهيم ٨٨
- أبعاد عملية تطوير الإعلام الإسلامي - الأستاذ نبيل شبيب ٩٢
- دعائنا والإعلام الحاجة والضرورة في ضوء الواقع الحالي - الدكتور عبد الله لباييدي ٩٥



مَقَارِبَات

تصدر عن
المجلس الإسلامي السوري

أسرة التحرير

رئيس التحرير: الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر

مدير التحرير: الدكتور حسن أحمد الخطاف

مستشار علمي: الدكتور محمد أيمن الجمال

المحرر: الأستاذ محمد علي النجار



ساحة المسجد الكبير - حلب

المقالات الواردة في المجلة تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي المجلة
البريد الإلكتروني للمجلة: jou@sy-sic.com

تمشوا على الأرض كإنسان.

يقول الأديب الأمريكي جون ستاينبيك: إن مشكلة أمريكا هي ثراؤها، وأن لديها أشياء كثيرة، لكن ليس لديها رسالة روحية كافية، إننا بحاجة إلى ضربة تجعلنا نُنْفِق من ثرائنا، لقد انتصرنا على الطبيعة، ولكننا لم نتصر على أنفسنا.

ويقول جون فوستر دالاس وزير الخارجية الأمريكي في عهد الرئيس الأميركي أيزنهاور صاحب كتاب «حرب أم سلام» - تحت عنوان حاجتنا الروحية -: إن الأمر لا يتعلق بالماديات، فلدينا أعظم إنتاج عالمي في الأشياء المادية، إن ما ينقصنا هو إيمان صحيح قوي، فبدونه يكون كل ما لدينا قليلاً، وهذا النقص لا يعوضه السياسيون مهما بلغت قدرتهم، أو الدبلوماسيون مهما كانت فطنتهم، أو العلماء مهما كثرت اختراعاتهم، أو القنابل مهما بلغت قوتها^(١).

وللأسف لقد غدا وضعنا الحضاري والإنساني اليوم على عكس ما أراده العقلاء والمفكرون في الشرق والغرب، فها نحن نستقبل القرن الحادي والعشرين بحرب عالمية مفتوحة الأجل والهدف فهي تغزو وتدمر تحت مسوِّغاتٍ وشعارات وهمية.

وهكذا نجد أن شواهد التاريخ والحاضر تؤكد أن دوام قوة الأمم واستمرارية تفوقها وارتقائها الحضاري مرهون بالتكامل بين ارتقائها المادي والتكنولوجي وريقيها الأخلاقي والسلوكي، ولنا أن نقرأ مشهد الاتحاد السوفيتي الذي أبعد الدين وتوجيهاته عن نهجه السياسي والاجتماعي، وعدّه خرافة، وأطلق عليه لقب أفيون الشعوب، فقد نجح

سفينة نوح ثانية^(٢).

وإضافة إلى نداءات جورباتشوف نعرض مختارات من صرخات القارة الأمريكية، وأولها شهادة الرئيس ريتشارد نيكسون رئيس أمريكا سابقاً في كتابه «الفرصة التاريخية» حيث يقول: الجدار الذي يريد أن ينقض إذا لم تتداركه قبل فوات الأوان فسنخسر تفوقنا الاقتصادي، وما دام عندنا أعلى معدل لارتكاب الجريمة في العالم فالحياة أصبحت في مدنا لا تطاق، إن أخطر مشكلاتنا الاجتماعية الجريمة والمخدرات والحاجة لا تدعو إلى الدولارات بل إلى القيم^(٣).

ويقول أيضاً: في القرن الحادي والعشرين علينا أن نحاول تشكيل العالم سياسياً من خلال استراتيجية تستهدف تحقيق سلام حقيقي، وفي الوقت نفسه ينبغي ألا يغيب عنا تناول قضية البعد الروحي في الإنسان، ويقول أيضاً متهمكاً بالمادية المطلقة التي سار عليها الروس: ولا يسع قوة السيف في موسكو أن تهزم قوة الروح في الغرب. وذات يوم تساءل ستالين ساخراً مزدرباً قوة الكنيسة في التأثير على أحداث العالم قال: كم عدد الفرق تحت قيادة البابا؟ قال نيكسون: إن هذا التعليق دليل على عجزه عن فهم العالم وما الذي يحركه، فالتاريخ في خاتمة المطاف تقرر الأفكار لا الأسلحة^(٤).

وفي هذا السياق نُقل عن الشاعر الهندي طاغور أنه قال لأحد مفكري الغرب وهو يحاوره: صحيح أنكم استطعتم أن تحلقوا في الهواء كالطير، وأن تغوصوا في البحر كالسمك لكنكم لم تحسنوا أن

المرأة الخاصة، ولدورها أمّاً وربة منزل، لم يعد للمرأة وقت للقيام بواجباتها اليومية في المنزل وتربية الأطفال وإضافة جو أُسري طيب، لقد اكتشفنا الكثير من مشكلاتنا في سلوك الأطفال والشباب وفي معنوياتنا وثقافتنا، وهذه نتيجة متناقضة لرغبتنا سياسياً في مساواة المرأة بالرجل في كل شيء؛ لهذا نجري مناقشات حول عودة المرأة إلى رسالتها النسائية البحتة. وقد عرّض الرئيس الروسي أيضاً للحديث عن الواقع المخيف للسلاح النووي في الحضارة الغربية، قال: إن الجانب الأكبر من الأسلحة النووية يتركز لدى الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة، وفي الوقت نفسه فإن عشرة بالمائة بل واحداً بالمائة من إمكانياتهما كافٍ لإنزال أضرار - لا يمكن إصلاحها - بكونبنا وبكل الحضارة البشرية.

يا تُرى هل نحتاج إلى تدمير الكرة الأرضية كذا مرة وهل أصبح تدميرها هدفاً وغاية حضارية مشتركة اليوم؟ فلمصلحة من يأتي السباق النووي وغيره؟ أليس هذا من العبثية في الأداء الحضاري؟ بدلاً من تسخير التكنولوجيا لصناعة الحياة والبناء والتنمية نجدهم يبالغون في إنتاج أسلحة الدمار الشامل على حساب لقمة الغذاء وحبّة الدواء وقطعة الكساء وعلى حساب مئات الملايين من الناس الذين يعيشون تحت خط الفقر والحرمان، إن العبث التكنولوجي هو الذي يسيطر على المسيرة الحضارية المادية اليوم، وهناك اضطراب كبير في العلاقة بين العلم والقيم.

ويحذر جورباتشوف الناس من الهلاك الذي يهددهم جميعاً، يقول: علينا ألا نسمح بغرق السفينة، فلن تكون هناك

(١) باختصار من كتاب البيرونيكا: الرئيس الروسي ميخائيل جورباتشوف، ص: ٩ - ١٨، ٢٩، ١٣٨ - ٢٧٢.

(٢) الفرصة التاريخية: الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون، ص ٣٥٩، ١٦٨ - ٢٦٦.

(٣) نصر بلا حرب: الرئيس الأمريكي ريتشارد نيكسون ص ٣٢٥، ٣٣١، وانظر أيضاً: الإسلام والنظام العالمي الجديد للدكتور حامد الرفاعي.

(٤) انظر بحث «حاجة البشرية إلى الرسالة الحضارية لأمتنا الإسلامية، هل حققت الحضارة الغربية السعادة؟» للدكتور يوسف القرضاوي.

كلمة رئيس التحرير

التاريخ تقرره الأفكار لا الأسلحة



الدكتور حسين عبد الهادي آل بكر



مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ [الروم: ٩].

إن ما ذكره القرآن الكريم ونص عليه من هلاك الحضارات بسبب الظلم والفساد واختلال الأداء هو ما يكرره اليوم قادة الحضارة الغربية وعقلاؤها، وقد قدم لنا التاريخ المعاصر شهادات كثيرة من أفواه زعماء معروفين في الشرق والغرب، وكلها تؤكد لنا أن أخطر ما يهدد المسيرة البشرية هو اختلال الأداء الحضاري، واختلال العلاقة بين عملية الإبداع التكنولوجي والأداء القيمي والسلوكي، فهي هي ميخائيل جورباتشوف رئيس الاتحاد السوفياتي المندثر يقول في آخر سنوات الاتحاد: رغم الانتصارات العلمية والتكنولوجية نجد نقصاً واضحاً في الكفاءة في استخدام المنجزات العلمية، والأسوأ أن هذا ليس كل ما في الأمر، فقد بدأ التدهور التدريجي في قيم شعبنا الإيديولوجية والمعنوية وبدأ الفساد يسري في الأخلاقيات العامة... وقال: مهمتنا اليوم أن نرفع روح الفرد، ونحترم عامله الداخلي، ونعطيه قوة معنوية ليكون مستقيماً حيّ الضمير وعندما يرى الفرد كل ذلك فإن في مقدوره أن يحقق الكثير.

ويتحدث عن وضع المرأة السوفيتية فيقول: عجزنا عن إيلاء اهتمامنا لحقوق

الأخلاقي عن الأداء التكنولوجي فالنتائج الحضاري سيكون سلبياً وربما مدمراً؛ بينما إذا غاب أو ضعف الأداء المادي عن الأداء الأخلاقي فالنتائج الحضاري سيكون أحلاماً وآمالاً ورسوماً نظرية وهمية لا روح فيها ولا حياة.

هذه حقائق ينبغي لنا أن ندركها ونعيها حقاً، ونعامل معها بجدية وموضوعية؛ لأنها من نواميس حركة الكون وسنن مسيرة الحياة التي اقتضتها إرادة الخالق، فالقرآن الكريم والسنة المطهرة يؤكدان ذلك ويلحان عليه، والتاريخ يشهد على ذلك ويؤيده، فهو يحدثنا عن حضارات قامت وأبدعت وفق معطيات زمانها وظروفه بيد أنها اندثرت وبادت لخلل في أدائها أو خواء في قيمها منها الحضارة البابلية والفرعونية والفارسية واليونانية والرومانية.

يحدثنا القرآن الكريم عن قوم عاد وثمود وغيرهم ممن أقاموا حضارات وأشادوا صروحاً عمرانية فريدة، بيد أنهم ظلموا وطغوا، وأفسدوا في الأرض؛ فانهارت دولهم، وهوت صروحهم، ولم تبق لهم باقية، يقول الله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَىٰ أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف: ٥٩] ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ

إن الأفكار هي التي تصوغ سلوك الإنسان في التعامل مع المادة، وتؤثر في النهاية على مسيرة الحضارة؛ لأن كل تفاعل بشري مع المادة ينتج أثراً حضارياً، لكنه ليس سواءً، فهناك حضارة خيرة وأخرى شريرة وثمة حضارة مبدعة، وحضارة محدودة الإبداع والإنتاج.

والتنوع الحضاري نتيجة حتمية للتنوع الثقافي، فالثقافة هي المُشكِّل الأساس للحضارة، ومنها ينبثق الأداء الأخلاقي الحضاري، فكلما كان الأداء الأخلاقي إيجابياً منسجماً مع كرامة الإنسان وأمنه متسقاً مع العدل والسلام كانت الحضارة آمنة مستقرة ومضطردة في الارتقاء.

في سياق حديثنا عن الحضارة يمكن القول بأنها تقوم على عاملين اثنين: أولهما عامل مادي، وثانيهما عامل أخلاقي سلوكي قيمي، فالحضارة تعني مجموع مدينة كل أمة وثقافتها، ونظراً لاختلاف الثقافة من أمة إلى أخرى استناداً إلى الواقع المشاهد فإن لكل أمة حضارة تحمل خصائصها، وعليه فهناك مجموعة حضارات لا حضارة واحدة كما يروج مفكرو الغرب، وهي الحضارة الغربية.

إن الأداء التكنولوجي يحتاج إلى أداء أخلاقي وحيث يكون الناتج الحضاري إيجابياً آمناً أما إذا ضعف أو غاب الأداء



الموضوعات و الإسرائيليات في كتب المحدثين

د. عبد العزيز محمد الخلف

جامعة غازي عنتاب

كلية اللاهوت

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

القسطنطينية

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعد:

فإن أقلام المنكرين والمشككين بالسنة النبوية ما فتئت تطعن فيها محاولة النيل من مكانتها تارة، والتشكيك في حجيتها تارة أخرى، ومقللة من شأن علمائها وجهودهم تارة ثالثة، سالكة في سبيل ذلك كل ما يمكن أن يحقق لها هذه الغاية.

وقد كانت من بين المسائل التي لاكتها ألسنة الطاعنين أن السنة النبوية لم تصلنا صافية نقية كما كانت على عهد النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام، بل شابها الكثير من الزغل والتحريف، بل إن نقلة السنة حادوا عن الطريق، فجعلوا يتخذون من السنة وسيلة للوصول إلى غاياتهم، فملؤوا الصحف بالكذب والزور ترويحاً لباطلهم وتحقيقاً لغاياتهم الشخصية، حتى غدت السنة مرتعاً لكل صاحب غاية باطلة، يمتطيها ليضفي على غايته الدينية مشروعية نبوية.

وأمام هذه الدعاوى العريضة كان لا بد من وقفة علمية متأنية، نستعرض فيها هذه الدعاوى، ونعرضها على ميزان النقد العلمي القويم لنرى مدى صدقها أو بطلانها.

وقد جاء هذا البحث لبيان هذه الغاية في مبحثين:

الأول: الوضع في الحديث، وقد تم من خلال الحديث عنه في ثلاثة محاور، وهي:

١. قضية وضع الحديث بدوافع سياسية.

٢. عدد الأحاديث الصحيحة بالنسبة للموضوعات.

٣. شبهة تساهل المحدثين في رواية الحديث الموضوع والعمل به في فضائل الأعمال.

الثاني: الإسرائيليات والمسيحيات في الحديث، وقد تناولنا فيه مسألتين:

١. هل تسربت الإسرائيليات إلى السنة؟

٢. موقف علماء الإسلام من الإسرائيليات.

كل ذلك وفق منهج استقرائي تحليلي يقارن بين منهج أهل الحديث وكلام دعاة العقلانية المعاصرة.

المبحث الأول: الوضع في الحديث

يصور العقلانيون مسألة الوضع في الحديث على أنها الأصل، أما الاستثناء فهو رواية الحديث كما سُمع، وهذا يجعل الثقة بما يُروى من حديث محل شك وتردد، فإنّ (الإقرار بوجود حديث نبوي متكامل لفظاً ومعنى مسألة تفتقد المصداقية التوثيقية التاريخية، أو على الأقل تستثير تحفظاً وشكاً شديدين)^(١).

ويختلف العقلانيون في تحديد بداية نشوء حركة الوضع، فمن قائل: إن الوضع بدأ في حياة النبي صلى الله عليه وسلم حيث

(١) النص القرآني أمام إشكالية البنية والقراءة: طيب تيزيني، دار البناييع، دمشق، ١٩٩٧: (٧٥).

-رغم ذلك كله- في صناعة تفوق تكنولوجياي وعسكري لكنه فشل في إقامة نظام إنساني سوي حيث عانت شعوبه القهر والجوع والإذلال والفراغ، فهو واندثرت صروحه، وعلل قادته وحكماؤه هذا الانهيار المفاجئ بتخلفه القيمي والأخلاقي وإهماله البعد الروحي والوجداني للفرد.

وأما أمريكا فقد عزلت مسيرتها عن الدين ومؤهلاته الأخلاقية والروحية، وعدت ذلك شأنًا شخصيًا لا علاقة له بمبادئ العلم والتفوق التكنولوجي، فتحوّلت إلى حضارة فارغة متوحشة معًا، وبدأ حكماؤها ينصحون بإعادة التوازن بين جانبي الحضارة المادي والروحي حتى تدوم وتستمر، وإلا فالنتيجة الحتمية هي ما أصاب أختها وصنوها في التنافس التكنولوجي الاتحاد السوفيتي.

وقد أشار سيد قطب رحمه الله إلى سقوط المعسكرين الواحد تلو الآخر في القرن العشرين، وحقًا هذا ما حصل لأحدهما، وثانيهما على الطريق.

إن من أخطر التحديات التي تصيب الكيان الحضاري -سواء على مستوى الفرد أو الجماعة- أن يتحرك المجتمع في نشاطه الحضاري بعيدًا عن رصيده الروحي والقيمي، مكثفًا بما أفرزته الحضارة من وسائل تقنية وإسهامات مادية، فهذا المنحى يؤذن بفساد الحضارة؛ لأن سيادة المبدأ الروحي والقيمي أمر جوهري لاستمرارية الكيان الحضاري عبر تقويمه ومنعه من الانحراف.

وعلى هذا في مشكلاتنا المعاصرة أن نعي أن التدهور الذي يصيب الحضارة لا يمكن أن تحدده التحديات التي تجابه الحضارة إبان مسيرتها مهما كانت نوعية ذلك التحدي، ولكن هذا التدهور مبعثه الداخل الإنساني الممزق الذي يتخلى عن

الالتزام بفطرته الإنسانية وما جبل عليها من أخلاق وقيم روحية، ويكتفى بقشور التاج الحضاري من تقنية وماديات، طارحًا أرضًا تلك المبادئ والأسس الإيمانية أو الإنسانية التي أبرزت وصاغت ذلك الكيان الحضاري.

وأما الأمة الإسلامية التي ربطت بين حياتها بدينها ومقومات إيمانها ومؤهلاته الأخلاقية والسلوكية وبين الأخذ بأسباب العلم والبحث العلمي والتطور من أجل إقامة الحياة وصون كرامة الإنسان وسلامة البيئة؛ فقد استطاعت بكل جدارة إشادة صروح شامخة من التقدم العلمي مقرونة بسيرة حميدة من الأداء الحضاري والسلوك الأخلاقي والنهج الإنساني العادل، ويوم أن انحسرت عن ميادين الماديات والمهارات والوسائل لخلل أصابها في الفكر والثقافة والأخلاق تقهقرت وتراجعت، ثم ضعفت وانحسرت في تلك الميادين.

إنه رغم التخلف الذي حلّ بأمّتنا فإنها بقيت -بفضل الله ثم بفضل تمسكها بقيمها ونهجها الأخلاقي- متماسكة حية، تقاوم وتدافع عن نفسها، وتصر على الحياة والاستمرار، وها هي اليوم بصحوتها المباركة تحاول الانبعاث والتغيير من جديد، وقد بدأ الوعي بحقيقة أزمتها وأسباب تخلفها، وبدأت تعالج الخلل الطارئ على مفهوم العلاقة بين العبادات الروحية والشعائر التعاملية وبين رسالتها في الحياة وحق النداء الرباني ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤] هذا النداء الذي يؤكد أن رسالة الإسلام هي إقامة الحياة حيث يقول سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود: ٦١]، إن الأمة اليوم تدرك من جديد أن عمارة الأرض تكليف رباني، وأن القيام به واجب تعبدي، وعلى أساس

هذا الفهم اكتشفت أسباب تخلف الأمة. إن أي خلل يصيب التكامل والتلازم بين العبادات الروحية والعبادات العمرانية في دين الله إنما هو خلل في التعامل مع دين الله، وخروج عن النهج الصحيح لرسالة الإسلام، فهو سبب جذري لانتكاسة خيرية أمة الإسلام، وعلة أساس لانحسار أنموذجها الحضاري الوسطي بين الأمم، وتعطيل لمهمتها في الشهود الحضاري على الناس؛ لأن عدم التكامل والتلازم هو مصدر أساس لتشكّل حالة الغثائية المؤلمة التي تعاني منها أمّتنا اليوم.

وهناك أمر آخر مؤسف، ألا وهو تعطيل الكفاءات والمهارات والمواهب في ميادين الحياة، وهو إفراز طبعي لحالة الغفلة عن واجبات العبادة العمرانية، والسبب في ذلك هوس ونزعة غريبة لاتهم الذات أو الآخر لتسويق حالة التخلف التي نعاني منها: بدءًا باتهام الذات بالبعد عن الله، وصولًا إلى هوس التفسير التأمري لما تمر به الأمة اليوم.

لا بد أن نتحرر من الهوس والإسراف في جلد الذات واتهام الأمة بإيمانها، فهذا شرط أساس للنهضة والتفكير الحضاري، أما المؤامرة فلا أحسب عاقلًا خبيرًا بواقع الصراع المحموم بين الأمم ينكر وجود المؤامرة وفعلها السلبي في حياة المجتمعات ومصالحها، وإنما الأمر المستنكر المرفوض هو الهوس والغلو في ظاهرة التفسير التأمري، الذي يلجأ إليه بعضهم بغية إراحة أنفسهم من آلام الأمة وتحرير ذواتهم من المسؤولية.

إن منهج الاستخلاف في الأرض قوائمه العلم والعمل، فإذا قام التوازن الدقيق بينهما قام المنهاج الصحيح لعمارة الأرض، وقامت الحضارة الآمنة العادلة.

أنت من ألف حديث وضعتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فيها حرف نطق به؟ فيبادره الخليفة بقوله: فأين أنت يا عدو الله من أبي إسحاق الفزاري وعبد الله بن المبارك ينخلانها نخلًا، فيخرجانها حرفًا حرفًا^(١٥)، وعندما تحدث أحدهم عن انتشار الموضوعات قال ابن المبارك: (تعيش لها الجهابذة)^(١٦).

ثالثًا: شبهة تساهل المحدثين في رواية الحديث الموضوع والعمل به في فضائل الأعمال

ينسب بعض العقلانيين للمحدثين أنهم وصلوا من التساهل في رواية الموضوعات أن قالوا بالعمل بها في فضائل الأعمال، (فاعتبروا الحديث الموضوع صنفًا من أصناف الحديث الضعيف التي لا يعمل بها إلا في الفضائل)^(١٧).

وهذا القول ينطوي على حقيقة ومغالطة؛ أما الحقيقة فهي أن المصنفين في علوم الحديث عدوا الموضوع نوعًا من أنواع الحديث الضعيف، ولكنهم نصوا على أنه شر الأحاديث الضعيفة، وقد اعترض بعض المحدثين على عد الموضوع قسمًا من أقسام الضعيف، يقول الزركشي: (أما أن الموضوع من أقسام الضعيف فغير مُسلم؛ لأن الموضوع ليس بحديث أصلاً بل لا ينبغي أن يعد البتة)^(١٨)، ويقول ابن حجر تعقيباً على قولهم شر الأحاديث الضعيفة: (استُكِرَّت، لأن الموضوع ليس من الحديث النبوي)^(١٩)، ثم أجاب عن ذلك فقال: (أراد بالحديث القدر المشترك، وهو ما يُحدث به)^(٢٠)، أي أن الحديث هنا هو إطلاق لغوي، وليس إطلاقاً مصطلحياً.

أما المغالطة فهي ادعاؤه أن المحدثين كانوا يقولون بالعمل بالحديث الموضوع، فهذا ما لم يكن البتة، بل أقوالهم تنهى عن مجرد رواية الموضوع من دون بيان حاله، فكيف بالعمل به! يقول ابن الصلاح: (ولا تحل روايته لأحد علم حاله في أي معنى كان إلا مقروناً ببيان وضعه، بخلاف غيره من الأحاديث الضعيفة التي يحتمل صدقها في الباطن، حيث جاز روايتها في الترغيب والترهيب)^(٢١).

فالعامل بالموضوع لا قائل به، وإنما قال جمهور المحدثين

وجعلته حجةً فيما بيني وبين الله تعالى^(٢٢) فقد قال أيضاً: (لم أخرج في هذا الكتاب إلا صحيحاً، وما تركت من الصحيح أكثر)^(٢٣)، ومع أن ما نقلوه عن البخاري من أنه اختار أحاديث صحيحه من هذا الكم الهائل من الروايات يدل على مدى الدقة والتحري لدى هذا الإمام الكبير فقط لا على حصر عدد الصحيح، إلا أن الحق أنهم فهموا هذا النص على غير وجهه حتى يوظفوه فيما يريدونه.

وإن المطلع على علم الحديث ليعلم أن المقصود من هذه الألف المؤلفات من الأحاديث إنما هو الطرق والأسانيد لا المتون، وهذا يعني أن الأحاديث الصحيحة فيها ليست أربعة آلاف حديث فقط، بل هي أكثر من ذلك بكثير كما قال الإمام البخاري، فلا يمكن التسليم بنسبة الأحاديث الصحيحة إلى الأحاديث الموضوعية.



«إن انتشار الوضع والكذب لا يدل على أن الموضوعات قد تسربت إلى كتب المحدثين، فقد كانوا لها بالمرصاد»

ويكفينا لبيان نسبة الأحاديث الضعيفة والموضوعية إلى الأحاديث الصحيحة أن ننقل قولاً آخر للبخاري، يقول رحمه الله تعالى: (أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح)^(٢٤) أي أن الأحاديث غير الصحيحة -وهذا يشمل الموضوع والضعيف- ضِعْف الأحاديث الصحيحة في محفوظات الإمام البخاري.

وزيادة على ما سبق فإن انتشار الوضع والكذب لا يدل على أن هذه الموضوعات قد تسربت إلى كتب المحدثين، فقد كانوا لها بالمرصاد، وبذلوا الغالي قبل الرخيص في سبيل تنقية سنة المصطفى مما قد يعلق بها، وكان هذا الحرص على تنقية السنة أمراً مستقراً في الأذهان حاضراً في الواقع، فهذا هو أحد الزنادقة يُذهب به لتضرب عنقه فيقول: (لم تضرب عنقي يا أمير المؤمنين؟ قال: أريح الناس منك، قال: فأين

(١٢) هدي الساري (٤٨٩/١).

(١٣) المصدر السابق (٧/١).

(١٤) الإرشاد في معرفة علماء الحديث: الخليلي، مكتبة الرشد -الرياض، ط١، ١٤٠٩هـ: ٩٦٢/٣، تاريخ بغداد: الخطيب البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، (٣٤٠/٢).

(١٥) إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب (معجم الأدباء): ياقوت الحموي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ٩٥/١. تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعية، ابن عراق الكنتاني، دار الكتب العلمية - بيروت، ط١، ١٣٩٩ (١٦/١).

(١٦) الموضوعات: ابن الجوزي، د.د، ط١، ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، (٤٦/١).

(١٧) نحو فقه جديد: جمال البناء، (١٠٩/٢).

(١٨) النكت على ابن الصلاح: الزركشي، أضواء السلف -الرياض، ط١، ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م: (٣٩٥/١).

(١٩) النكت على ابن الصلاح: ابن حجر، الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط١، ١٩٨٤م، (٨٣٨/٢).

(٢٠) المصدر السابق، الموضوع نفسه.

(٢١) علوم الحديث: ابن الصلاح، دار الفكر، دمشق، ط٣، ٢٠٠٠م: (٩٨-٩٩). نزهة النظر: ابن حجر، مطبعة الصباح، دمشق، ط٢، ١٩٩٣م، (٩١).

يروى عن عائشة أم المؤمنين^(٧)، هكذا يصور هيكمل أن الجو العام جو تنافرٍ وتباغضٍ دفع كل طرفٍ إلى أن ينشر الموضوعات ويسعى في ذلك، بينما يُعرض عن أحاديث الطرف الآخر ويضعف ما عنده من الروايات.

ويكفي الرد على هذا الادعاء أن نفتح أي كتاب من الكتب الجوامع لنجد كم الأحاديث التي تروى عن عليٍّ وأهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، سواء تلك التي تنقل عنهم أحاديث يروونها عن النبي صلى الله عليه وسلم أو تلك المخصصة للحديث عن فضائلهم رضي الله عنهم، فقد روى أصحاب الكتب الستة عن عليٍّ رضي الله عنه وحده أكثر من ثلاثمائة حديث^(٨)، وروى له أحمد في مسنده أكثر من ثمانمائة حديث^(٩)، كما أفرد البخاري باباً خاصاً في فضائل علي، سماه (باب مناقب علي بن أبي طالب القرشي الهاشمي أبي الحسن رضي الله عنه)، روى فيه سبعة أحاديث في فضائله رضي الله عنه، وكذلك فعل مسلم، فقد روى في فضائله ستة أحاديث.

ولا يخفى أن العصر الذي كتب فيه الأئمة الستة كتبهم هو عصر بني العباس، وكان الجفاء بين بني العباس وبني علي بن أبي طالب هو السائد، فلم تُكتب هذه الأحاديث إذا كان للسياسة يد طولى على المحدثين؟

ثانياً: عدد الأحاديث الصحيحة بالنسبة للأحاديث الموضوعية

يزعم قائلهم أن البخاري (ألقى الأحاديث المتداولة تُربي على ستمائة ألف حديث، لم يصح لديه منها أكثر من أربعة آلاف، وهذا معناه أنه لم يصح لديه من كل مئة وخمسين حديثاً إلا حديث واحد^(١٠))، ويؤيدون استدلالهم بقول الإمام الدارقطني: (الحديث الصحيح في الحديث الكذب كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود^(١١)).

ليت المخالف إذ احتج أنصف، ولكن المتحدث هنا قد اجتزأ من خطة تصنيف الإمام البخاري لصحيحه ما يفيد في فكرته، ثم فسر هذا النص المجتزأ بما يهواه، وكذلك ديدن تلامذتهم إلى اليوم، والحقيقة أن الإمام البخاري إذ قال: (صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة، خرّجته من ستمائة ألف حديث،

كان المنافقون واليهود يكذبون عليه صلى الله عليه وسلم، وكان ذلك قبل أن يطالب الصحابة بالسند، وهذا ما ساعد على قبولها^(١٢)، واستدلوا بأن أحد المنافقين تقول كذباً على النبي صلى الله عليه وسلم أنه أمره بأن يَسْتَطْلَعَ أي بيوت المسلمين شاء، فلما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم الخبر قال لأبي بكر وعمر: ((انطلقا إليه، فإن وجدتماه حيّاً فاقْتُلَاهُ ثُمَّ حَرِّقَاهُ بالنار، وإن وجدتماه قد كُفِّيْتُمَاهُ فحَرِّقَاهُ، ولا أراكما إلا وقد كُفِّيْتُمَاهُ))، فأتياه، فوجداه قد خرج من الليل يبول، فلدغته أفعى، فمات، فحرقاه بالنار^(١٣).

ومنهم من ذهب إلى أن الوضع بدأ زمن الفتنة، يقول أبو رية: (وقد أجمع الباحثون والعلماء المحققون على أن نشأة الاختراع في الرواية ووضع الحديث على الرسول صلى الله عليه وسلم إنما كان في أواخر عهد عثمان، وبعد الفتنة التي أودت بحياته، ثم اشتد الاختراع واستفاض بعد مبايعة علي رضي الله عنه^(١٤))، وهو ما يتفق مع قول علماء الإسلام، وقد جعل الدكتور السباعي سنة أربعين فاصلاً بين عصر صفاء السنة من الدخيل وبين عصر اختلاطها بغيرها^(١٥).

ويسوق العقلانيون جملة من الادعاءات التي يتخذونها سبباً للطعن في منهج المحدثين، وجعل هذه الطعون حجة لإنكار الثبوت التاريخي للسنة المطهرة، ومن هذه الادعاءات:

أولاً: قضية وضع الحديث بدوافع سياسية

يقول محمد هيكمل: (والواقع أن المنازعات السياسية التي حدثت بعد الصدر الأول من الإسلام أدت إلى اختلاق كثير من الروايات والأحاديث تأييداً لها^(١٦))، (ومن الحق أن المسلمين بلغ اختلافهم بعد وفاة النبي حداً دعا الدعاة إلى اختلاق الآلاف المؤلفة من الأحاديث والروايات، فلما استتب الأمر لبني أمية جعل المحدثون المتصلون ببني أمية يضعفون ما يروى عن علي بن أبي طالب وفضائله، في حين جعل أنصار علي وأهل بيت النبي يزيدون في هذه الأحاديث ويحاولون إذاعتها بكل الوسائل، كما جعلوا يُعرضون عما

(٢) نحو فقه جديد: جمال البنا، دار الفكر الإسلامي، د. ط، د. ت: ١٦١/٢، فجر الإسلام: أحمد أمين، مؤسسة هندواي، القاهرة، (٢٣١).

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، دار الحرمين - القاهرة، ١٤١٥ هـ، (٣١٨/٢). وقد اختلف العلماء في حكم هذا الحديث، فجعله بعضهم موضوعاً، وعده بعضهم ضعيفاً، وقال آخرون بأنه يرتقي إلى رتبة الحسن لغيره بطرق وشواهد. ينظر: السنة ومكانتها في التشريع للدكتور مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي - دار الوراق، بيروت، ط ١، ٢٠٠٠ م: (٢٦٧-٢٦٩)، والمنهج الإسلامي في الجرح والتعديل، د. فاروق حمادة، دار طيبة، الرياض، ط ٣، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، (٣٢٤-٣٢٦).

(٤) أعضاء على السنة المحمدية: محمود أبو رية، دار المعارف - القاهرة، ط ٦، (٩١). انظر: حياة محمد، محمد حسين هيكمل، دار المعارف، القاهرة، ط ١٤، د. ت: (٦٦)، والنص القرآني: (٦٦).

(٥) السنة ومكانتها في التشريع (٩٢).

(٦) حياة محمد (٦٦).

(٧) حياة محمد (٦٧-٦٨).

(٨) تحفة الأشراف بمعرفة الأطراف: المزي، المكتب الإسلامي، بيروت، (٢٦/٧).

(٩) مستند الإمام أحمد، من الحديث رقم (٥٦٢) إلى الحديث رقم (١٣٨٠). مؤسسة الرسالة، بيروت، ط ٢، ١٤٢٠ هـ.

(١٠) حياة محمد: (٦٦). وانظر: النص القرآني، طيب تيزيني: (٦٧).

(١١) لم أجد قول الدارقطني هذا، ولا أدري من أين جاء به هيكمل.

بعضهما، وكذلك حال الثقات من تلامذته، وإنما خلط بينهما من لم يكن من الحفاظ عنه.



« شبهة تسرب الإسرائيليات إلى السنة النبوية لا تعدو كونها ادعاءً لا دليل عليه، إلا أن يكون مجردُ الرفض العقلي لحديث ما -بالنسبة لهم- دليلاً على كونه من الإسرائيليات »

الموقف الثاني: أن أبا هريرة لم يكن يقبل ما يرويه كعبٌ مخالفًا لما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روى أبو هريرة قال: (أتيت الطور، فوجدت ثَمَّ كعبًا، فمكثت أنا وهو يومًا، أحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحدثني عن التوراة، فقلت له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة؛ فيه خلق آدم، وفيه أهبط، وفيه تيب عليه، وفيه قبض، وفيه تقوم الساعة، ما على الأرض من دابةٍ إلا وهي تصبح يوم الجمعة مُصيخة حتى تطلع الشمس شفقاءً من الساعة إلا ابن آدم، وفيه ساعة لا يصادفها مؤمن وهو في الصلاة يسأل الله شيئًا إلا أعطاه إياه)) فقال كعب: ذلك يوم في كل سنة؟ قلت: بل هي في كل يوم جمعة، فقرأ كعب [أي التوراة]، قال: صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم هو في كل جمعة^(٣٤). فانظر إلى تشبث أبي هريرة رضي الله عنه بما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم ورده على كعب لما خالفه، ثم انظر إلى رجوع كعبٍ إلى الحق، لتعلم أن الكل يبحث عن الحق.

الموقف الثالث: الأصل فيما يرويه أبو هريرة أن يكون مرفوعًا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، أما ما يحكيه عن أهل الكتاب فينص عليه، فعندما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قوله: ((فُقدت أمة من بني إسرائيل، لا يدري ما فعلت، ولا أراها إلا الفأر، ألا ترونها إذا وضع لها ألبان الإبل لم تشربه، وإذا وضع لها ألبان الشاء شربته؟))، قال أبو هريرة:

(٣٤) أبو داود، أبواب الجمعة، باب فضل يوم الجمعة وليلتها، حديث رقم (١٠٤٦)، دار الكتاب العربي، بيروت، د. ط، د. ت، ومالك في الموطأ، دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٥ م، (١٠٨/١)، والنسائي في الكبرى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤١١ هـ، ١٩٩١ م، (٢٩٣/٢).

الأمر الذي يستتبع البعد عنها لأن الترخص في هذا يمكن أن يدخل على الإسلام هذه التحريفات^(٣٥).

ولا بد لبيان صوابية ما ذهبوا إليه من خطئه من مناقشة نقطتين:

الأولى: هل تسربت الإسرائيليات إلى السنة، والثانية: موقف علماء الإسلام منها.

أولاً: هل تسربت الإسرائيليات إلى السنة؟

إن من يقرأ كلام العقلانيين يخيل إليه أن الإسرائيليات قد غابت السنة النبوية فغلبتها، بحيث أصبحت الكثرة الكاثرة مما ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ذات مصدر يهودي أو مسيحي، ولكن هذا التخيل يزول لو علمنا نسبة الأحاديث التي يرويها مسلمة أهل الكتاب بالنسبة لما رواه غيرهم، فلو عدنا إلى الكتب الستة وبحثنا عن عدد مرويات عبد الله بن سلام مثلاً، لوجدنا أنه لم يرو أكثر من (١٧) سبعة عشر حديثاً^(٣٦)، وروى أصحاب الكتب الستة لكعب الأخبار سبعة أحاديث^(٣٧)، وروى أبو هريرة ثلاثة أحاديث عن كعب من قوله، ولم يرو عبد الله بن عمرو أي حديث عن كعب الأخبار، فهؤلاء هم أشهر الرواة من مسلمة أهل الكتاب، وأبو هريرة وابن عمرو بن العاص أشهر الرواة عنهم من الصحابة، ولم يتجاوز مجموع مروياتهم جميعاً الثلاثين حديثاً، وهذا يثبت أن محاولة الإيهام بكثرة الرواية عن علماء بني إسرائيل محاولة غير موفقة.

ومما يؤكد أن هذه الإسرائيليات لم تتسرب إلى السنة موقف أبي هريرة من أحاديث كعب الأخبار، ويتجلى ذلك في هذه المواقف الثلاثة^(٣٨):

الموقف الأول: أن أبا هريرة كان يميز بين ما سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم وما سمعه من كعب الأخبار، فقد روى مسلم بسنده إلى بسر بن سعيد قال: (اتقوا الله وتحفظوا من الحديث، فوالله لقد رأيتنا نجالس أبا هريرة فيحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحدثنا عن كعب الأخبار ثم يقوم، فأسمع بعض من كان معنا يجعل حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كعب، وحديث كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم) ^(٣٩)، فهو يميز بينهما، ولا يخلطهما

(٢٩) الأعلان العظيم الكتاب والسنة، رؤية جديدة: جمال البناء، مطبعة حسان، القاهرة، (٢٩٢).
(٣٠) تحفة الأشراف، المزي: (٣٥٧-٣٥٢/٤) من الترجمة رقم (٥٣٢٨) حتى الترجمة رقم (٥٣٤٥).
(٣١) تحفة الأشراف (٣٤٤-٣٤٣/١٣) من الترجمة رقم (١٩٢٣٨) حتى الترجمة رقم (١٩٢٤٤).
(٣٢) الاتجاه العقلي وعلوم الحديث: د. خالد أبا الخيل، الجمعية العلمية الفكرية السعودية، الرياض، ط، ١٤٣٥، (٣٦٩-٣٧١).
(٣٣) التمييز: الإمام مسلم، دار الكوثر، السعودية، ط، ١٤١٠ هـ، ١٩٩٠ م، (١٧٥).

عما كان قبل الإسلام أو ما ستؤول إليه الخليفة، وفيها الحق والباطل، أما المسيحيات فهي تلك الروايات المنسوبة للنصارى أتباع المسيح عيسى عليه السلام^(٢٥).

وقد رأى العقلانيون أن كثيرًا من الإسرائيليات والمسيحيات قد تسربت إلى الحديث النبوي، فنسبت إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وعندما نقل الصحابة علومهم الحديثية كانت الإسرائيليات متداخلة مع الحديث النبوي، فلم يتم التمييز بين ما صدره الرسول صلى الله عليه وسلم وما صدره كعب الأحبار أو عبد الله بن سلام أو وهب بن منبه أو غيرهم من مُسلمة أهل الكتاب^(٢٦).

وبحسب هؤلاء فقد ساعد على تسرب الإسرائيليات والمسيحيات عاملان:

الأول: مكر اليهود ودهاؤهم، فقد استطاعوا أن يتغلغلوا في الصف الإسلامي بوصفهم مسلمين، وقد عملوا على تمثيل دور الأتقياء الورعين، الأمر الذي مكّنهم من كسب ثقة الصحابة الذين كانوا يمتازون بالفطرة العربية التي لا تعرف المكر والخديعة، ثم تمكنوا من بث سمومهم الرامية إلى نقض الإسلام من داخله، تارة على أنها معلومات مستقاة من الكتاب المقدس، وتارة على أنها أحاديث سمعوها من النبي صلى الله عليه وسلم أو من صحابته الكرام، ومن أشهر من قام بهذا الدور عبد الله بن سلام وكعب الأحبار ووهب بن منبه.

الثاني: أن السنة لم تكن محدودة المعالم أو محفوظة الأصول بسبب تأخر التدوين^(٢٧).

وهكذا دخلت الإسرائيليات وأصبحت جزءًا من السنة، (ولا يعجب القارئ من أن يدخل في الإسلام مسيحيات بعد أن دخل فيه إسرائيليّات، فإنه قد شُيِب من كل دين ومن كل نحلة)^(٢٨).

ويرى العقلانيون أن مجرد رواية الإسرائيليات خطأ كبير وقع فيه المحدثون، إذ كيف استساغوا رواية الإسرائيليات وكتاب الله ينههم إلى أن التحريف قد طال كلاً من التوراة والإنجيل؟ يقول أحدهم: (ويقدم المحدثون لتبرير الإسرائيليات أقاويل هي مزيج من السذاجة والتحليل، مع وجود الآيات الصريحة في القرآن عن تحريف الرهبان والأخبار للكتب المقدسة،

بالعمل بالضعيف في فضائل الأعمال، واشترطوا لذلك شروطًا ثلاثة:

الأول: أن يكون الضعف غير شديد، فيخرج من انفراد من الكذابين والمتهمين بالكذب ومن فحش غلطه.

الثاني: أن يكون مندرجًا تحت أصل عام، فيخرج ما يُخترع بحيث لا يكون له أصل أصلاً.

الثالث: ألا يعتقد عند العمل به ثبوته، لئلا ينسب إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما لم يقله^(٢٩).

وبهذا يظهر أن نسبة التساهل إلى المحدثين غير صحيحة أصلاً، بل منهج المحدثين قائم على وضع الأمر موضعه اللائق به بدون تشدد أو تساهل.

المبحث الثاني:

الإسرائيليات والمسيحيات في الحديث

الإسرائيليات: جمع إسرائيلية، نسبة إلى بني إسرائيل، وإسرائيل هو يعقوب عليه السلام، وبنو إسرائيل هم أبناء يعقوب ومن تناسلوا منهم فيما بعد إلى عهد موسى ومن جاء بعده من الأنبياء حتى عهد عيسى عليه السلام، أما من آمنوا بعيسى فقد أصبح يطلق عليهم اسم النصارى^(٣٠).

وأشهر كتب اليهود هي التوراة، وقد ذكرها الله في بدايات سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿الْم، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ، نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابُ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ، مِنْ قَبْلُ هُدًى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ [آل عمران: ١]، ومن كتبهم أيضًا الزبور -وهو كتاب داود عليه السلام- وأسفار الأنبياء الذين جاؤوا بعد موسى عليه وعليهم السلام.

وتسمى التوراة وما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها (العهد القديم)، وكان لليهود بجانب التوراة المكتوبة التلمود، وهي التوراة الشفهية، وهو مجموعة قواعد ووصايا وشرائع دينية وأدبية ومدنية، وشروح وتفسيرات وتعاليم وروايات كانت تتناقل وتدرس شفهيًا من حين إلى آخر^(٣١).

في تراثنا الإسلامي يقصد بالإسرائيليات تلك الروايات التي تسبب لعلماء بني إسرائيل، وهي عبارة عن قصص تتحدث

(٢٥) المرجع السابق (١٣).

(٢٦) الحدائق وموقفها من السنة: د. الحارث فخري عيسى عبد الله، دار السلام، القاهرة، ط ١، ٢٠١٣: (١٧١).

(٢٧) أضواء على السنة المحمدية (١١٨-١١٩).

(٢٨) أضواء على السنة المحمدية (١٥٥).

(٢٩) منهج النقد في علوم الحديث: د. نور الدين عتر، دار الفكر، دمشق، ط ٣، ١٤١٨ هـ، ١٩٩٧ م، (٢٩٣).

(٣٠) الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير: محمد أبو شهبة، مكتبة السنة، مصر، ط ٤، (١٢).

(٣١) المرجع السابق (١٢-١٣).

الحادثتين في جزئية ما كافٍ لادعاء أن إحداهما أصل للأخرى؟
والحق أن دعوى إسرائيلية هذا الحديث قائمة على دعامتين:

الأولى: ادعاء أن الحديث يُثبت واسطةً بين العبد وربّه، وهذا ليس من الإسلام. والواقع أن هذا الادعاء بُني على فهم خاطئ، فليس في الحديث ما يدل على أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان واسطةً لِعُكَّاشَةِ لدخول الجنة، بل غاية ما في الحديث أن أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن عكاشة من أهل الجنة الذين يدخلونها بغير حساب، وهذا من إطلاع الله له بما سيكون، وهو متوافق مع قوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦ - ٢٧].

الثانية: أن ثمة تشابهاً بين الحادثتين، وهو غير مسلم به، فالحادثتان مختلفتان، فالرسول صلى الله عليه وسلم امتنع عن أن يدعو للصحابي الثاني أن يكون ممن يدخل الجنة بغير حساب، ولعل ذلك لأن الله أطلععه على أن هذا الصحابي لن يدخل الجنة بدون حساب، أو لغير ذلك، بينما تتضمن حادثة إسحاق وأبنائه تعميداً وتبريكاً ليسا في الإسلام أصلاً، وحتى لو تشابهت الحادثتان في تلك الجزئية، فإن ذلك لا يدل على أن مصدرهما واحد، بل قد يدل التشابه على أن كلا النصين وحي من الله تعالى، فينقلب التشابه دليلاً على أن السنة وحي كما التوراة والإنجيل^(٤١).



« وقف المحدثون من
الإسرائيليات موقفاً متوسطاً،
فلا هم صدقوهم في كل ما
حدثوا به، ولا هم كذبوهم في
كل ذلك، بل أرجعوا الأمر لما في
الكتاب وصحيح السنة »

ثانياً: موقف علماء الإسلام من الإسرائيليات
تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة، هي:

كَيْفَ نَكَلِّمُ مَنْ كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿مريم: ٢٩﴾، وامتن الله على عيسى أن جعله ينطق وهو صبي في المهد: ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ ادْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا﴾ [المائدة: ١١٠] وما جاز أن يكون معجزة لنبي جاز أن يكون كرامة لولي، ونحن إذا ما استرسلنا في إنكار كل ما يخرق المألوفات فإننا سننكر كثيراً من آي الكتاب الحكيم من مثل قوله تعالى: ﴿فَلَنَأْيَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، وقوله: ﴿فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ﴾ [الأعراف: ١٠٧]، والذي يعني في هذا المقام أن الكاتب زعم أن هذا الحديث من الإسرائيليات دونما دليل يؤيده، اللهم إلا مجرد عدم قناعته العقلية بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يمكن أن يقوله.

المثال الثاني: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب))، قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: ((هم الذين لا يكتوون ولا يسترقون، وعلى ربهم يتوكلون)) فقام عكاشة فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: ((أنت منهم))، قال: فقام رجل فقال: يا نبي الله، ادع الله أن يجعلني منهم، قال: ((سبقك بها عكاشة))^(٤٢)، جعل أحد العقلانيين هذا الحديث من الإسرائيليات لأن الدين الإسلامي لا يجعل وسيطاً بين العبد وربّه، بخلاف دين أهل الكتاب الذي يحرم العبد من إجراء اتصال مباشر مع ربه، ويسوق دليلاً على أن هذا الحديث من الإسرائيليات قصة منسوبة لإسحاق بن إبراهيم: عندما طلب من ابنه البكر عيسو أن يأتي بقربان حتى يدعو له ويباركه، علمت بذلك زوجته التي تحب ابنه الأصغر يعقوب أكثر من ابنه الأكبر، فجعلته يخدع أباه الضربير، فيأتي بقربان، فيدعو له الأب ظناً منه أنه عيسو، وعندما عاد عيسو وقدّم القرбан لأبيه أدرك الأب أنه وقع في مكيده، فطلب منه عيسو أن يدعو له، فقال: (لا أستطيع أن أدعوك وأباركك؛ لأنني سبق أن دعوت لأخيك يعقوب قبلك)، ثم يعلق قائلاً: (هذا منطبق التوراة وليس منطبق القرآن، وهذا الأسلوب غير موجود في الإسلام أبداً، إذاً مصدر الحديث وصاحبه من أهل الكتاب)^(٤٣).

ويلاحظ من هذا الاستدلال أن الكاتب جعل قصة عُكَّاشَةِ مختلقةً مصدرها الإسرائيليات؛ لأن التوراة تضمنت قصة مشابهة امتنع فيها النبي إسحاق عن الدعاء لابنه عيسو لأن أخاه يعقوب قد سبقه بطلب الدعاء، فهل مجرد التشابه بين

(٣٩) البخاري، كتاب الطب، باب من لم يترك حديث رقم (٥٤٢٠)، ومسلم، كتاب الإيمان، باب الدليل

على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب، حديث رقم (٢١٦).

(٤٠) دين السلطان: عز الدين التيازي، الأهالي للطباعة، دمشق، ط ٢، ١٩٩٧، (١٦٦).

(٤١) الاتجاه العقلي وعلوم الحديث (٣٦٨).

وَبَيْنَا صَبِيٌّ يَرْضَعُ مِنْ أُمِّهِ، فَمَرَّ رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى دَابَّةٍ فَارَاهُ،
وَشَارَةً حَسَنَةً، فَقَالَتْ أُمُّهُ: اللَّهُمَّ اجْعَلْ ابْنِي مِثْلَ هَذَا، فَتَرَكَ
الثَّوْدِي وَأَقْبَلَ إِلَيْهِ، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلَنِي مِثْلَهُ، ثُمَّ
أَقْبَلَ عَلَى ثَدْيِهِ فَجَعَلَ يَرْضَعُ، قَالَ: فَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَحْكِي ارْتِضَاعَهُ بِإِصْبَعِهِ السَّبَابَةَ فِي
فَمِهِ، فَجَعَلَ يَمصُّهَا.

فحدثت هذا الحديث كعباً، فقال: أنت سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلت: نعم، قال ذلك مراراً، قلت: أقرأ التوراة؟^(٣٥) قال النووي: (وهو استفهام إنكار، ومعناه: ما أعلم، ولا عندي شيء إلا عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا أنقل عن التوراة ولا غيرها من كتب الأوائل شيئاً، بخلاف كعب الأبحار وغيره ممن له علم بعلم أهل الكتاب)^(٣٦).

يثبت من هذا أن شبهة تسرب الإسرائيليات إلى السنة النبوية لا تعدو كونها ادعاءً لا دليل عليه، اللهم إلا أن يكون مجردُ الرفض العقلي لحديث ما - بالنسبة لهم - دليلاً على كونه من الإسرائيليات، أو أن يكون مجرد التشابه بين ما يحكيه الحديث وما يتضمنه الكتاب المقدس دليلاً على ذلك، وواضحٌ لكل ذي بصيرة أن كلاً من الأمرين لا يمكن أن يكون دليلاً على هذه الدعوى العريضة، ولأوضح هذا الأمر بمثالٍ على كل دعوى:

المثال الأول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى ابن مريم، وصاحب جريج، وكان جريج رجلاً عابداً، فاتخذ صومعةً فكان فيها، فأنته أمه وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أنته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: يا رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فانصرفت، فلما كان من الغد أنته وهو يصلي، فقالت: يا جريج، فقال: أي رب، أمي وصلاتي، فأقبل على صلاته، فقالت: اللهم لا تمته حتى ينظر إلى وجوه المومسات، فتذاكر بنو إسرائيل جريجاً وعبادته، وكانت امرأةً بغياً يُتمثل بحسنها، فقالت: إن شئتم لأفنتنّه لكم، قال: فتعرضت له، فلم يلتفت إليها، فأنت راعياً كان يأوي إلى صومعته، فأمكنته من نفسها، فوقع عليها، فحملت، فلما ولدت قالت: هو من جريج، فأتوه، فاستزلوه وهدموا صومعته، وجعلوا يضربونه، فقال: ما شأنكم؟ قالوا: زנית بهذه البغي، فولدت منك، فقال: أين الصبي؟ فجأؤوا به، فقال: دعوني حتى أصلي، فصلّى، فلما انصرف أتى الصبي، فطعن في بطنه وقال: يا غلام من أبوك؟ قال: فلان الراعي، قال: فأقبلوا على جريج يقبلونه ويتمسحون به، وقالوا: نبني لك صومعتك من ذهب، قال: لا، أعبدوها من طين كما كانت، ففعلوا.

» نظرة واحدة إلى كتب السنة
تبطل دعوى دعاة العقلانية، فهي
مليئة بأحاديث تقوض عروش
السلطين، وتقلب استقرارهم

قال: ((ومرؤا بجارية وهم يضربونها ويقولون: زنيـت سـرقت، وهي تقول: حسبي الله ونعم الوكيل، فقالت أمه: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فترك الرضاع ونظر إليها، فقال: اللهم اجعلني مثلها، فهناك تراجعاً الحديث، فقالت: حَلَقَـي مَرَّ رجل حسن الهيئة فقلْتُ: اللهم اجعل ابني مثله، فقلْتُ: اللهم لا تجعلني مثله، ومرؤا بهذه الأَمّة وهم يضربونها ويقولون زنيـت، سـرقت، فقلْتُ: اللهم لا تجعل ابني مثلها، فقلْتُ: اللهم اجعلني مثلها، قال: إن ذاك الرجل كان جباراً، فقلْتُ: اللهم لا تجعلني مثله، وإن هذه يقولون لها زنيـت ولم تنز، وسـرقت ولم تسرق، فقلْتُ: اللهم اجعلني مثلها))^(٣٧)، وقد علّق أحد العقلايين على هذا الحديث قائلاً: (هذه الخرافة غير مقبولة، حتى لو كتبت في كتاب للأساطير الشعبية؛ لأنها من الخرافات الإسرائيلية التي نهى الله سبحانه المؤمنين أن يستمعوا لمثلها)^(٣٨)، ولم يُؤيد أيّ دليل يدعم قوله.

ولعله إنما استشكل هذا الحديث فنسبه إلى الإسرائيليات لأن فيه إثباتاً لحديث الرضيع، وهو مخالف للسنة الكونية؛ إذ المعتاد أن لا يتكلم الرضيع إلا بعد بلوغه سنًا معينة، لكن هذا الذي استنكره الكاتب غير ممتنع شرعاً، وهو واقعٌ فعلاً، فقد تكلم عيسى ابن مريم وهو في المهد، قال تعالى: ﴿قَالُوا

(٣٥) البخاري، كتاب بدء الخلق، باب خير مال المسلم غنم، حديث رقم (٢٢٩)، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ٣، ١٤٠٧، ١٩٨٧، ومسلم، كتاب الزهد والرفاق، باب الفأر وأنه مسخ، حديث رقم (٢٩٩٧)، دار الجيل، بيروت - دار الآفاق الجديدة، بيروت، دط، دت.

(٣٦) المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، النووي، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط ٢، ١٣٩٢، (١٢٤/١٨).

(٣٧) البخاري، كتاب الأنبياء، باب ﴿واذكر في الكتاب مريم﴾، حديث رقم (٣٢٥٣)، ومسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدین علی التطوع بالصلاة، حديث رقم (٢٥٥٠).

والصلة والآداب، باب تقديم بر الوالدين على التطوع بالصلاة، حديث رقم (٢٥٥٠).
(٣٨) الحديث والقرآن: ابن قنبر، دار الجمل، ألمانيا، ط ١، ٢٠٠٨، (٨٠).



د. وصفي عاشور أبو زيد
دكتوراه في مقاصد الشريعة الإسلامية

الجوانب الحضارية عند الشيخ محمد الغزالي رحمه الله

مقدمة

عن كل جانب منها موردا من كلام الشيخ ما يجلي رأيه فيه ورؤيته حوله، وبيان آثار كل جانب منها، وكانت الجوانب التي كتبت عنها هنا كالاتي:

أولاً: الجانب الروحي، ثانياً: جانب محاربة الاستبداد وترسيخ الشورى، ثالثاً: جانب الحياة وعمارتها، رابعاً: جانب العلوم الإنسانية، خامساً: جانب فقه الأولويات والنسب بين الأعمال، سادساً: جانب المرأة، سابعاً: جانب الأدب شعراً ونثراً، ثامناً: جانب الإصلاح والتغيير، وهو أطولها، وفيه تفصيل وأفكار متعددة لأهميته في واقعنا المعاصر.

ولا أدعي حصر الجوانب الحضارية عند الشيخ رحمه الله، فقد اقتصرت على عدد منها فقط كما أذاني إليه النظر والتأمل، وإلا ففكر الشيخ ومشروعه يحتاج إلى تخصيص سفر كبير، يستجلي الجوانب الحضارية ويتبعها في مشروعه المتميز، والحمد لله رب العالمين.

الحضارة عند الشيخ الغزالي:

بحثت عن كلمة (حضارة) عند الشيخ في ستين كتاباً من كتبه^(١)، فوجدتها تكررت (٦٦٦) مرة، في حين وردت كلمة الحضارة الإسلامية (٧٥) مرة، وهذا يدل على

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فإن أبرز ما يميز الشيخ المجدد المصلح محمد الغزالي رحمه الله أنه صاحب مشروع متكامل، استطاع أن يقدم الإسلام بجوانبه المتنوعة عقيدةً وشريعةً، أخلاقاً ومعاملةً، قرأنا وسنةً، سلوكاً وحضارةً، عقلاً ونقلاً، سياسةً واقتصاداً، روحاً وجسداً؛ بلاغاً للدعوة وإقامة للحجة ودفعاً للشبهة مع إحساس واسع وشعور عميق بواقع الأمة، وتداعٍ مستمر لقضاياها ومشكلاتها ونوازله ومستجداتها.

واستهدف الشيخ من هذا كله أن يكون الإسلام حاضراً في حياة الناس، وأن تبسط الشريعة سلطانها على الحياة والأحياء، وأن يكون للإسلام في كل نازلة قول، وفي كل حادثة بيان، وفي كل مستجد رأي، مع فهم عميق لكتاب الله وسنة رسول الله، وهو ما يحقق الحضور للعقيدة والأخلاق والشريعة والمعاملة والسلوك في حياة البشرية، وهذا ما يمكن أن يحقق معنى الحضارة بشكل عملي؛ فالحضارة من الحضور والوجود.

ومن هنا أردت في هذه الورقة المختصرة أن أرصد أهم الجوانب الحضارية في فكر الشيخ وفي مشروعه، أتحدث

(١) هذا وفقاً للكتب الموجودة في المكتبة الشاملة التي حوت كتب أعلام الحركة الإسلامية، وفيها هذا العدد من كتب الشيخ الغزالي.

وتقلب استقرارهم إلى قلق دائم.

٤. يرى العقلانيون أن نسبة الحديث الصحيح في الموضوع كشجرة بيضاء في جلد ثور أسود.

٥. إن ادعاء العقلانيين ندرة الحديث الصحيح جهل منهم بحقيقة الأسانيد، فليس معنى أن عند المحدث آلاف الأحاديث أنها جميعاً بمتون مختلفة، بل يعبر المحدثون عن كل طريق من طرق الحديث بأنه حديث مستقل، فقد يكون للمتن الواحد المئات من الطرق، بعضها مطعون فيه، وبعضها الآخر صحيح.

٦. انتشار الموضوعات - لو صدق زعمهم - ليس دليلاً على أنها دخلت في كتب المحدثين، فهذا زعم لا دليل عليه، بل واقع أحوال المحدثين في التحري والتنقيب والرحلة في طلب الحديث يخالف ما زعموه.

٧. إن زعم بعضهم أن المحدثين كانوا يتساهلون في رواية الموضوعات بل يعملون بها في فضائل الأعمال هو قول من لم يقرأ كتب المحدثين أو يعرف مناهجهم؛ فالمحدثون يحذرون من الكذب على رسول الله أيما تحذير، بل ويعدون توبة التائب من الكذب في حديث النبي صلى الله عليه وسلم غير مقبولة، فكيف يروون الموضوعات؟

٨. يرى العقلانيون أن الإسرائيليات قد تسربت بشكل كبير إلى السنة النبوية من خلال مسلمة أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب الأحبار والنقلة عنهم من الصحابة كأبي هريرة وابن عمرو بن العاص.

٩. واقع الأمر يكذب ذلك، فلم ترو الكتب الستة عن مسلمة أهل الكتاب إلا بضعة عشر حديثاً، ولم يرو كبار الأخذين عنهم إلا قريباً من ذلك.

١٠. وموقف المحدثين من الإسرائيليات يعزز هذه النظرة، فقد وقفوا موقفاً متوسطاً، فلا هم صدقوهم في كل ما حدثوا به، ولا هم كذبوهم في كل ذلك، بل أرجعوا الأمر لما في الكتاب وصحيح السنة، فإن وافقه فهو المقبول، وإن خالفه فهو المردود، وإن كان مسكوتاً عنه يسمع من غير أن تعتقد صحة ما جاء به.

وفي الختام: اسأل الله العلي القدير أن أكون قد وفقت إلى عرض هذه المسألة المهمة وإيفائها حقها، فما كان من صواب فهو محض توفيق من الله تعالى، وما كان غير ذلك فهو مني ومن الشيطان، وأستغفر الله منه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

أ. ما يُعلم صحته: بأن نُقل عن النبي صلى الله عليه وسلم نقلاً صحيحاً، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر، فقد جاء هذا الاسم صريحاً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخاري، أو كان له شاهد من الشرع يؤيده، وهذا القسم صحيح مقبول.

ب. ما يُعلم كذبه: بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا، أو كان لا يتفق مع العقل، وهذا القسم لا يصح قبوله ولا روايته.

ج. ما هو مسكوت عنه، لا هو من قبيل الأول، ولا هو من قبيل الثاني، وهذا القسم نتوقف فيه، فلا نؤمن به ولا نُكذِّبه، وتجوز حكايته؛ لاحتمال أن يكون صدقاً أو كذباً، ولكن لما لم يكن ثمة دليل قاطع على أحدهما جازت روايته من دون إعطائه وصفاً^(٤٢).

وهذا المنهج مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم: ((لا تصدقوا أهل الكتاب، ولا تكذبوهم، وقلوا آمنا بالله وما أنزل^(٤٣)))، وقوله: ((ما حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم، ولا تكذبوهم، وقلوا: آمنا بالله ورسوله، فإن كان باطلا لم تصدقوه، وإن كان حقاً لم تكذبوه))^(٤٤).

وموقف علماء الإسلام هذا نابع من إيمانهم بأن هذه الكتب أصلها صحف منزلة من عند الله تعالى، ولكن دخلها كثير من التحريف والتزوير، فكان موقف علماء الإسلام موقفاً معتدلاً متزناً، قام على رفض ما ثبت تحريفه لمخالفته القرآن أو السنة الصحيحة، وقبول ما وافقهما، أما ما لم يكن له مؤيد إيجابي أو سلبي فقد سُمح بروايته لاحتمالية صدقه، ونُهي عن الإيمان بما فيه لاحتمالية تزويره، وهذه قمة العقلانية^(٤٥).

الخاتمة:

ولا بد في الختام من التأكيد على ما يأتي:

١. يرى العقلانيون أن الأصل في كتب السنة أنها تروي الموضوعات، أما الأحاديث الصحيحة فهي نادرة في كتبهم.

٢. ويرى هؤلاء أيضاً أن الدافع إلى رواية الموضوعات إنما هو السياسة.

٣. الواقع أن نظرة واحدة إلى كتب السنة تبطل دعوى دعاة العقلانية، فهي مليئة بأحاديث تقوض عروش السلاطين،

(٤٢) التفسير والمفسرون: حسين الذهبي، مكتبة وهبة، القاهرة، د. ط. د. ت، (١٣٠/١).

(٤٣) البخاري: كتاب الشهادات، باب لا يسأل أهل الشرك عن الشهادة، تعليقا.

(٤٤) أبو داود: كتاب العلم، باب رواية حديث أهل الكتاب، حديث رقم (٣٦٤٤).

(٤٥) الاتجاه العقلاني وعلوم الحديث (٣٥٨-٣٥٧).

هذه هي نورانية الشيخ الغزالي حين تتكشف، وربانيته حين يتحدث، وتواضعه حين يتعامل، فهذا جانب مشرق من الجوانب الحضارية عند الشيخ؛ إذ يسهم في جعل الإنسان حاضرًا مستجمعًا نفسه وقواه المختلفة ليقوم بدوره في الاستخلاف والعمارة، وهكذا كان الشيخ الغزالي.

ثانيًا: جانب محاربة الاستبداد وترسيخ الشورى

يستحق هذا الجانب أن نثني به بعد الجانب النوراني عند الشيخ رحمه الله؛ ذلك أنه كرس حياته لأنصفها الأول -لمحاربة هذا الاستبداد من ناحية، ومن ناحية أخرى- فإن الاستبداد هادمٌ للحضارات مقوِّضٌ لل عمران طارِدٌ للكفاءات معطلٌ للطاقات مُهدِرٌ للموارد؛ لهذا استحققت محاربته أن تكون ضمن إرادة بناء حضارة وقيام أمة، ويؤكد الشيخ أن (الاستبداد السياسي ليس عصيانًا جزئيًا لتعاليم الإسلام، وليس إماتة لشرائع فرعية فيه، بل هو إفلات من ربقة ودمار على عقيدته)^(٩)؛ ذلك أن (الحكّام المستبدين كالحشرات القذرة، لا تعيش أبدًا في جو نظيف، ولا تنصب شباكها للصيد والنهب إلا حيث الغفلة السائدة والجهالة القاتمة)^(١٠) (ونحب أن نقول بجلاء: إنه حيث يسود الحكم المطلق تنتقض الإنسانية من أطرافها بل من صميمها)^(١١).

وفي مواجهة الاستبداد المالي والمظالم الاجتماعية خاض رحمه الله أول معاركه الفكرية، فأصدر عدّة مؤلفات كانت لبنة في مشروعه الحضاري، هي: الإسلام والأوضاع الاقتصادية، والإسلام والمناهج الاشتراكية، والإسلام المفترى عليه بين الشيوعيين والرأسماليين، والإسلام في مواجهة الزحف الأحمر، إذ قدّم فيها فكرًا ثوريًا بامتياز، كيف لا وهو الذي قال: (حيث يكون العسف والخسف لا بد أن يكون الإسلام دينًا ثائرًا يطلب النصفة والرحمة، وحيث يكون الاستعلاء والاستعباد لا بد أن يكون المسلمون ثوارًا ينشدون العزة والكرامة)^(١٢).

ويُعدُّ كتابه الإسلام والاستبداد السياسي علامة فارقة في هذا المسار، فقد كان اسمه سببًا لأن يكون الشيخ بغيضًا

التزكية والأخلاق مثل الجانب العاطفي من الإسلام، وجدد حياتك، وخلق المسلم، وغير ذلك.

ووجه عدّ الجانب الروحي ضمن جوانب الحضارة أن أية حضارة لا يكون لها من هذا الجانب نصيب لا تسمى حضارة على الحقيقة كما نقلنا عن الشيخ آنفًا، وأن الجانب الروحي مقوِّم أساس من مقومات قيام أي حضارة إنسانية، يقول الشيخ الغزالي: (أعتقد أن انهيار الحضارة الإسلامية في الأعصار الأخيرة جاء من الاهتمام بأعمال الجوارح والغفلة عن أعمال القلوب)^(١٣).

أما الحضارة التي تتخذ المادية منهجًا لها فيقول عنها: (والمادية تهدف إلى تحطيم المعاني والمثاليات وإلى تجريد الأشياء من كل قيمة عدا قيمتها التي تقدر بالمال، بل وصل الأمر إلى تقدير الإنسان بالمال! أصبحنا نسمع عن إنسان يساوي مليونًا، وابتسامة تساوي مائة ألف...، الذي يسير على قدميه لم يعد يفكر في متعة السير في أحضان الطبيعة بقدر ما يفكر فيما يعود عليه من قدرة بدنية تعينه على العمل والإنتاج والكسب، أصبحنا نقدر حياتنا على أساس ما حققناه من كسب مادي دون أن ندخل في الحساب عملاً من أعمال الخير، أو لفظة من لفئات القلب، أو لحظة من لحظات الحب والتضحية)^(١٤).

ومن تجليات نورانية الشيخ وربانيته وأنه رجل أوّاب متواضع ما يذكره حين يحكي القصة الآتية: (قلت لرجل تعود شرب الخمر: ألا تتوب إلى الله؟ فنظر إلي بانكسار، ودمعت عيناه، وقال: ادع الله لي، تأملت في حال الرجل ورقّ قلبي؛ إن بكاءه شعور بمدى تفریطه في جنب الله وحزنه على مخالفته ورغبته في الاصطلاح معه، إنه مؤمن يقينا ولكنه مبتلى، وهو ينشد العافية ويستعين بي على تقربها، قلت لنفسي: قد تكون حالي مثل حال هذا الرجل أو أسوأ، صحيح أنني لم أذق الخمر قط؛ فإن البيئة التي عشت فيها لا تعرفها، لكنني ربما تعاطيت من خمر الغفلة ما جعلني أذهل عن ربي كثيرًا وأنسى حقوقه، إنه يبكي لتقصيره وأنا وأمثالي لا نبكي على تقصيرنا، قد نكون بأنفسنا مخدوعين. وأقبلت على الرجل الذي يطلب مني الدعاء ليرتك الخمر، قلت له: تعال ندع لأنفسنا معًا ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]^(١٥).

(٩) الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية (٥٧)، دار نهضة مصر.

(١٠) الإسلام والاستبداد السياسي (٨٣)، دار نهضة مصر.

(١١) من مقالات الشيخ الغزالي (٦٧/١).

(١٢) حصاد الغرور (١٥٤)، دار نهضة مصر.

(١٣) كنوز من السنة (٦٠)، دار نهضة مصر.

(١٤) كفاح دين (١٢٧).

(١٥) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (١٧٣)، دار نهضة مصر.

الحضارة، قال: (لو لم يظهر محمد صلى الله عليه وسلم في جزيرة العرب، ويتدفق خيره في المشارق والمغارب خلال القرون المقبلة، ما كان للعرب من ذكر، وبم يذكرون إذا لم يكن لديهم كتاب ولا سنة؟ ربما عاشوا في أرضهم كشعب بورما في آسيا، أو كشعب ناميبيا في إفريقيا، وأشرف ما يذكره العرب تركية لأنفسهم أن الإسلام ضاعف فضائلهم، وكبت أهواءهم وغرائزهم، وبذلك أمكنهم من صعودهم له أهل، فلسنا حريصين على الزرابة بأحد)^(٤).

أما الحضارة الحديثة التي لا تقيم للروحانية اعتباراً، ولا تنطلق إلا في ضوء الماديات، فلا يمكن وصفها بأنها حضارة، قال: (وفي الحضارة الحديثة نلاحظ أن الاستمتاع بالنساء أخذ طرقاً معوجة كثيرة، ويستحيل وصف هذه الحضارة بأنها عفيفة أو مقتصدة في ملذاتها، إنها لا تزال تكرر من الآثام حتى تهلك من التخمّة، وكذلك تصنع في سائر علاقاتها بالدنيا)^(٥).

هكذا كان اهتمام الشيخ الغزالي بالحضارة الإنسانية والإسلامية في عصورها الوسطى وفي عصرها الحديث، مبنياً مقوماتها وخصائصها وما يجب أن تكون عليه، وإلا فسوف تشقى البشرية إذا لم تتبع منهج الله وتحقق خصائص الحضارة ومقوماتها في حياتها.

هذا وفي السطور الآتية نحاول الحديث عن جوانب حضارية في فكر الشيخ:

أولاً: الجانب الروحي

مما يميز الشيخ الغزالي أنه عالم نوراني رباني أوّاب، وقد استمد هذه الربانية من اهتمامه بالقرآن الكريم الذي كتب فيه كتباً مستقلة مثل المحاور الخمسة للقرآن الكريم، ونظرات في القرآن، ونحو تفسير موضوعي لسور القرآن الكريم، ومعرفة المصحف في العالم الإسلامي، وكيف نتعامل مع القرآن الكريم، فضلاً عن متناثرات في كتبه المتنوعة؛ واستمدّها كذلك من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم، فكتاباتة عن السيرة المشرفة تدمع لها العين ويحبُّ لها القلب وتخضع لها النفوس، وخير دليل على ذلك ما كتبه في فقه السيرة، وفن الذكر والدعاء عند خاتم الأنبياء؛ ثم استمدّها مما كتبه في

اهتمام الشيخ بالحضارة الإنسانية عامة، والحضارة الإسلامية خاصة، واهتمامه بالحضارة الإنسانية أوسع وأشمل، وهو دال على البعد العالمي والمنطلق الإنساني للشيخ رحمه الله.

وقد تحدث الشيخ عن الحضارة الإسلامية، والحضارة في العصور الوسطى، وبيان فضل الحضارة الإسلامية عليها، وعَرَّض في حديثه الحضارة الحديثة، وقال عن الحضارة الإسلامية وطبيعتها وما قدمته للبشرية: (انطلقت الحضارة الإسلامية صُعُداً تشق طريقها في أطواء التاريخ، وتصنع للإنسانية جمعاء ما لم تصنعه حضارة أخرى...، لم يكن البشر في ظلها يعانون فراغاً ما في صلاتهم بأنفسهم أو صلات بعضهم البعض الآخر، أو صلاتهم جميعاً بالدولة الموجهة وإن اضطرب جبل الحكم...، ونهضت الثقافة الإسلامية بعبئها في كل ميدان)^(٦).

أما حضارة العصور الوسطى حضارة الكنيسة، فقد تحدث عنها الشيخ مبيّناً فضل الحضارة الإسلامية عليها قائلاً: (أما العصور الوسطى التي يتحدث الصحافي الفرنسي عنها فهي تشرف آباءنا ولا تشرف آباءه، لقد كانت أوروبا في هذه العصور مجموعة من البهائم السائمة، ولولا ما أفاض الإسلام عليهم من خير وبركة لظلوا إلى اليوم كالأنعام أو أضل سبيلاً، إن الحضارة الإسلامية علمتكم من جهل، وأنقذتكم من فوضى، فماذا حدث لَمَّا مالت الريح إليكم وأصبحت الدولة لكم؟ أبيتم إلا أن تبنوا على أنقاضنا، وصبغتم أرجاء الدنيا بدمائنا، وهكذا يصدق فينا وفيكم قول القائل:

ملكنّا فكان العفو منا سجية فلما ملكتم سأل بالدم أبطح

فحسبكم هذا التفاوت بيننا وكل إناء بالذي فيه ينضح

إن الاستعمار المغتر الآن بقوته المعتر بسطوته ستخبو بعد قليل ناره، ويومئذ تحاسب الإنسانية من دمروا عليها حاضرها ومستقبلها)^(٧).

لكن الشيخ يعود ويؤكد أن المسلمين عامة والعرب خاصة لا قيمة لهم ولا ذكر بدون الإسلام، وإذا تنكروا له فسوف تتنكر لهم الأرض وتحتلهم الحضارات الأخرى، ولولا الإسلام لما قدموا للعالم والإنسانية هذه

(٢) الإسلام والطاقت المعطلة (١٣٤)، دار نهضة مصر.

(٣) الإسلام والاستبداد السياسي (٢١٤)، آخر الكتاب، دار نهضة مصر.

(٤) الحق المر (٣/ ١٧٨).

(٥) صحبة تحذير من دعاة التنصير (٣٣).

الرنانة التي تقال في ميدان القول لتتحوّل الخطبة نفسها إلى عمل حقيقيّ للنهضة والتمكين، يقول في كلام معبر: (إن ساسة الشرق الإسلامي من أبرع الناس في صوغ الخطب الرنانة، ولكن الخطبة البليغة من الطيب هي إقامة مستشفى كبير، والخطبة البليغة من المهندس هي مد طريق أو تشييد جسر، والخطبة البليغة من الضابط هي إجادة صناعة الموت، والخطبة البليغة من الوزير هي إتقان فن الحكم، والجماعة التي ترعم العمل للإسلام ثم لا تحول أعضائها على عجل إلى رجال مبرزين في شؤون الحياة وقادة مرموقين في ركب الحضارة هي لا ريب جماعة فاشلة)^(٢١).

وفي باب الحديث عن توجيه الإسلام أتباعه نحو عمارة الدنيا كما الآخرة تكلم الشيخ الغزالي رحمه الله عن العلم التجريبي بصفته أساساً من أسس النهضة الحضارية؛ إذ به تتقدم الأمم في هذه الحياة وتغلب الأمم الأخرى، ولن تعمر الدنيا ولن تقاد الحياة بالعلم الديني فقط وإن كان هو رائد الجانب التجريبي والموجّه له، لكن لا بد من القيادة والريادة في العلم التجريبي الذي سبق فيه الغرب سبقاً بعيداً، وصرنا نحن في ذيل القافلة بعد أن عمرنا هذه الحياة وقادناها أكثر مما عمروها وقادوها، يقول الشيخ: (إن الحضارة الإسلامية قدمت الشيء الكثير في عالم الطب، وقد ظلت أوروبا قرنين من الزمان تعتمد على كتاب القانون الذي ألفه ابن سينا، كما أن ابن النفيس كان أول من كشف أثر العدسات في خدمة النظر القصير، وهكذا يجحد فضلنا شيوعي عربي، ويتقل من محاربة المتطرفين - كما يزعم - إلى محاربة الإسلام نفسه! إن عالماً منصفاً مثل تيري فاير تحدث في جلسة الافتتاح لجماعة الصداقة الألمانية العربية، فقال: (إن جميع العلوم التي تدرس الآن في الغرب لا بد أن تكون من صنع العرب، إن العرب استفادوا من الحضارات التي سبقتهم، وأسّدوا جديداً لمن جاء بعدهم)^(٢٢).

إن النص الديني في الإسلام يحرض على ذلك ويدعو

سبيل ذلك لا مانع من الاقتباس من الآخرين بما يتوافق وأصولنا وأخلاقنا، قال: (النقل والاقتباس في شؤون الدنيا وفي المصالح المرسلّة وفي الوسائل الحسنة ليس مباحاً فقط بل قد يرتفع إلى مستوى الواجب)^(١٨).

وحين يسود غير المسلمين الأرض ويقودون الحياة ويصبح المسلمون في ذيل الأمم تكون من ذا فتنة لهم ولنا؛ إذ يصبحون أولى بالأرض منا، ودينهم أحقّ من ديننا، ومبادئهم أولى بالبقاء من مبادئنا، يقول الشيخ: (إن الأوربيين أثاروا الأرض وعمروها أكثر مما أثارنا نحن وعمرناها، وقدروا على استخراج معادنها الجامدة والسائلة على حين عجزنا نحن كل العجز، أفلا يزيّن لهم هذا السبق أنهم أولى بالأرض منا، وأن مبادئهم أحقّ بالبقاء من مبادئنا، وأن أرباح هذا السبق حلّ لهم وحرام علينا؟ فإذا حدث بعد زمان طويل أو قصير أن تلاشى ذلك التفوق العلمي بقي أمر آخر ذو بال: أين تفوّقنا الإداري في ميدان الحكم والمال؟)^(١٩).

ومن فضل الله على المسلمين والعرب أن عندهم مقومات هذه القيادة، لكنهم يحتاجون إلى إيمان عميق وثقة فيما يحملونه من هدى ونور، يقول الشيخ: (يظن كثيرون منا أن الشرق الإسلامي أصابه في العصر

الأخير ما أصابه من ضعف وتقهقر لأنه فقير إلى بأس الحديد وفعالق الجنود، ولأن أعداءه أكثر مآلاً وأعزّ نفراً، وذلك خطأ؛ فإن المسلمين هانوا حقاً ولكن لأنهم فقراء إلى العقائد والأخلاق والأعمال، وأعداءهم عزّوا حقاً لأنهم «ولا نفتئت عليهم» - لا يقلون غنى في قواهم المعنوية عن غناهم الواسع في آفاق الحياة المادية، إن ثقة هؤلاء الناس بما عرفوا من أوامير ربّي من إيماننا نحن بما ورثنا من إسلام، وتضحياتهم في سبيل ما اعتنقوا من مبادئ أعظم من تضحياتنا في سبيل ما عرفنا من دين)^(٢٠).

ولأجل صناعة هذه القيادة لا بد من تجاوز الخطب

(١٨) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (١٥٦).

(١٩) الغزو الثقافي يمتد في فراغنا (١٤٢) دار نهضة مصر.

(٢٠) ظلام من الغرب (١٨٢)، دار نهضة مصر.

(٢١) في موكب الدعوة (٢٠٣)، دار نهضة مصر.

(٢٢) الحق المر (٦٠/٤).

التقوى إذا كان بدنه عاريًا، ولا بدّ من التمهيد الاقتصادي الواسع والإصلاح العمراني الشامل إذا كنّا مخلصين حقًا في محاربة المعاصي والرذائل باسم الدين أو راغبين حقًا في هداية الناس لرَبِّ العالمين^(١٥).

وكي تعتدل الكِفَّة ويستقيم الميزان فإن الشيخ لم يكتفِ بمحاربة الاستبداد السياسي والظلم الاجتماعي المفزيين للتخلف الحضاري، بل تحدث عن الحرية والشورى وحق الأمة في اختيار من يحكمها ويسوسها، وأنها هي مصدر السلطة، يقول: (الأمة مصدر السلطة، هي وحدها التي تختار حكامها، وهي التي إذا شاءت عزلتهم، وليس لأحد حق إلهي ولا وصاية عليها على الناس تجعل وجوده السياسي ضربة لازب، أو تجعل انقياد الجماهير له فريضة محكمة، إذا كانت لشيء ما مكانة دينية فهو الرأي العام الإسلامي، الذي إذا أحب كانت محبته آية على رضوان الله، وإذا كره كانت كراهيته آية على سخطه)^(١٦)، بل إن الشيخ جعل للأمة الحق في ألا تسمع ولا تطيع حين يتناقض نصب الحاكم ووظائفه، وهذا من صميم الحرية الجماعية وتفعيل لأعلى مستوياتها، يقول: (والأمة في حلٍّ من السمع والطاعة بداهة إذا حُكمت على أساس من جحد الفرائض وإقرار المحرمات ونهب الحقوق وإجابة الشهوات؛ لأن معنى ذلك أن الحكم قد مرق من الإسلام وفسق عن أمر الله، وأن الحاكمين أنفسهم قد انسلخوا عن الدين؛ فليس لهم على أحد عهد)^(١٧).

ثالثًا: جانب الحياة وعمارتها

آمن الشيخ محمد الغزالي أن الوصول إلى الآخرة لا بد أن يكون على جسر من عمارة الدنيا، وأن الله تعالى خلق المسلمين كي يكونوا قادة الدنيا ورواد الحياة وعُمَّار الأرض؛ لذا صبَّ جانبًا كبيرًا من منجزه الفكري والدعوي على هذا المعنى، معنى تحريض المسلمين على عمارة الأرض وقيادة الحياة حتى يحققوا الاستقلال الاقتصادي والاكتفاء الذاتي، ومن ثمَّ يكون عندهم استقلال في القرار السياسي، لهذا كان يقول: (إن بناء المصانع يعدل بناء المساجد؛ فحراسة الحق كتعليمه، وإقامة سياج حوله -أيًا كان هذا السياج- لا يقل عن الاعتناء بنصوصه) وفي

إلى الجهة الحاكمة، وحكى الشيخ الغزالي عن هذا الكتاب بقوله: (أشهر كتبني عندما هاجمت فيه الطغيان وفساد الحكم، وأسميته الإسلام والاستبداد السياسي، وكان ذلك في أواخر الأربعينيات، وكان هذا اليوم من أهم أيام حياتي، وأعتبره نقطة انطلاق لي...، بمجرد أن نزل الكتاب إلى الأسواق فوجئت بالحكومة كلها تهتز وتصدر قرارا بمصادرة الكتاب، وأحسست أن القصر الملكي اهتز بشدة من هذا الكتاب، وقُبض عليّ وقدمت للمحاكمة بتهمة مهاجمة الحكومة، وخرجت من هذه القضية بدون أن يثبت عليّ شيء)^(١٨).

بل إننا إذا أردنا أن نتأمل في المكتبة الإسلامية والكتابات عن الاستبداد فيها لا نخطفنا محطتان فارقتان وكتابان رئيسان ومصدران أساسان، هما: طبائع الاستبداد ومصارع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبي، وكتاب الإسلام والاستبداد السياسي لمحمد الغزالي، حتى إن الشيخ في أخذه بالقرآن كان مهمومًا بالبحث في هذا الموضوع، متأملًا القرآن متدبرًا له في هذا الإطار ضمن أطُر كان يهتم بها في أخذه بالقرآن الكريم، فقد تمتع الشيخ بنظرته الأصيلية وقراءته الكلية للقرآن الكريم، قال: (تلوت سورة القصص وربطت آخرها بأولها، فرأيت أن الله سبحانه شرح أحوال الاستبداد السياسي والطغيان الاقتصادي في قصتي فرعون وقارون، ثم ساق هذا القانون الحضاري الصارم ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]، إنه بعد عشر صفحات من السرد التاريخي الحافل قرَّر هذه الخلاصة أن الاستعلاء والفساد يستحيل أن يأتيا بخير، كل فرد مزهو بنفسه فوضوي في سلوكه سائب في إدارته ظالم لغيره ناسٍ لربه لا بد أن يجني الويل من هذه الخلال)^(١٩).

إن قواعد الإيمان ومعاقد الشريعة ومكارم الأخلاق لا يمكن أن يقدم عليها مسلم في ظل استبداد وظلم وخسف، يفضي بالناس إلى التجويع والمرض والجهل والخراب العمراني والاقتصادي، يقول الشيخ: (لقد رأيتُ بعد تجارب عدّة أنني لا أستطيع أن أجد بين الطبقات البائسة الجوّ الملائم لغرس العقائد العظيمة والأعمال الصالحة والأخلاق الفاضلة، إنّه من العسير جدًّا أن تملأ قلب إنسان بالهدى إذا كانت معدته خالية، أو أن تكسوه بلباس

(١٥) الإسلام والأوضاع الاقتصادية (٤٣)، دار نهضة مصر.

(١٦) معركة المصحف في العالم الإسلامي (١٣٦)، دار نهضة مصر.

(١٧) الإسلام والاستبداد السياسي (١٦٣).

(١٨) الإسلام والاستبداد السياسي (٨)، دار نهضة مصر.

(١٩) الطريق من هنا (١٦)، دار نهضة مصر.

يتحدث فيه هؤلاء الحمقى» (٢٩).

هذه النظرة المعتدلة المقسطة بإدراك فقه مراتب الأعمال هي التي تجعل المسلم متمتعاً بأكبر قدر من الحضور، مسهماً بأوفر نصيب في بناء حضارة راشدة، تقدر الأمور حق قدرها، وتواكب الركب المعاصر ولا تتأخر عنه بل تتقدم عليه وتقوده، وتقدم من نفسها أنموذجاً مبهرًا كما قدمته أمتنا في عصور سالفه.

سادسًا: جانب المرأة

لن نستطيع أن نكون على قدر كامل من التحضر والحضور الذي يبني الحضارة إلا إذا تم تفعيل الشق الآخر من الإنسان وهو المرأة، فالمرأة لها رسالتها التي تؤديها ولا يحسنها الرجال، سواء في عملها الخاص أو في ميادين العمل العام المناسبة لها.

والشيخ الغزالي من رواد المناداة بذلك، بل لعله من أوائل الذين كشفوا اللثام عن التصور الحقيقي للمرأة في الإسلام بعيداً عن الطغيان والإخسار، بمعزل عن تيار التحجر والتحرر، مبرزاً الرؤية الإسلامية الصحيحة للمرأة المتسقة مع الكتاب والسنة وما كان عليه عصر الرسالة، يقول الشيخ: (وقد جاء الإسلام فاحترم الأنوثة، واستبعد كل النظرات السيئة إليها إلا أن التقاليد العربية الجاهلية التي كانت تجتاح الأنوثة قديماً عزَّ عليها أن يطفر الإسلام بالمرأة هذه الطفرة، فعاتت تسلب ما منح الدين وتكر ما أقر، وتعامل المرأة على أساس أنها متعة وحسب؛ ومن ثم صدر تحريم من جهات غير معروفة بالأصل تصلي المرأة في مسجد، وصدر تحريم مثل الأول بالأصل تتسبب إلى مدرسة ولو لمحو الأمية، وصدرت فتاوى مكذوبة بأن وجه المرأة عورة، وقيل: إن المرأة إجمالاً لا علاقة لها بالنشاط الثقافي والاجتماعي) (٣٠).

بيد أن المسلمين في واقعهم المعاصر لم يكونوا على ذاك المستوى، يقول الشيخ الغزالي: (إن المسلمين في الأعصار الأخيرة فتكت بهم أميَّة طامسة وكانت بالنساء أفتك، وغابت عنهم هدايات الله في تفتيق الأبواب وتنمية الفضائل وكانت عن النساء أبعد، إن الجاهلية القديمة سمحت لنسوة تقيات أن يشاركن في بيعة العقبة وما وضعت على أيديهم قيداً، أما المسلمون في القرون

رفيعة القدر في مجال الخلق والتربية والسلوك، ولأمكننا أن نصوغ نصف العلوم الإنسانية في قالب إسلامي جميل ونافع» (٢٧).

خامسًا: جانب فقه الأولويات والنسب بين الأعمال

لن نملك القدرة الفاعلة على التأثير والتغيير وقيادة الحياة واستثمار طاقات الأشياء والأشخاص والأحداث إلا إذا كان عندنا فقه أكبر يتعلق بالأولويات وإدراك النسب بين الأعمال، وهذا هو القادر على التقدم والترقي وقدر الأمور حق قدرها.

وأنا أشهد أن الشيخ محمد الغزالي أحد القلائل في تاريخنا الذين شغلهم فقه مراتب الأعمال، والنظر للأصول على أنها أصول وللفروع على أنها فروع، وتقديم ما يستحق التقديم وتأخير ما يستحق التأخير، وإقامة الوزن بالقسط في نظراته للأمور بلا طغيان ولا إخسار، لهذا كان يحذر من أصحاب الفهم المقلوب الذين يرون الفروع أصولاً والأصول فروعاً ويعادون الأولياء ويسلم منهم الأعداء، يقول: (احذروا من يثير الفرقة ولا يبالي الجماعة، احذروا من يصعد بالفروع إلى الأصول أو يهبط بالأصول إلى الفروع، احذروا من يسطر لسانه فينا ولا يقول كلمة أبداً في أعدائنا، لقد رأيت من لم يكتب حرفاً ضد الصهيونية أو الصليبية أو الشيوعية أو العلمانية، ومع ذلك ألف كتباً ضد مسلمين ربما كانوا مخطئين أو مصيبين، ما أخرسك هنا وأنطقك هناك! إن لم تكن العمالة لعدو الله فنحن أغنياء عن الحمقى الذين تهيجهم الصغائر ولا تهيجهم الكبائر) (٢٨).

ويستفزه أولئك الذين يهتمون بصغائر الأمور ولا يبالون بكبيرها، يقول: (والصغار دائماً يهتمون بالصغائر، فإذا رأيت من يهتم اهتماماً هائلاً بقبض اليدين في الصلاة أهو فوق السرة أم أعلى الصدر، ويستثير ذلك أعصابه أكثر مما يستثيره قتل عشرة آلاف مسلم في تشاد، فاعلم أنك أمام مسخ من الخلق لا يؤمن على دين الله ولا دنيا الناس، وهذا النفر من المتدينين عبء على الأرض والسماء، والأمة التي تسلم زمامها إلى هذا الإنسان المخبول إنما تسلمه لجزار، ودين الله أشرف من أن

(٢٧) علل وأدوية (١٥١).

(٢٨) دستور الوحدة الثقافية بين المسلمين (١٨).

(٢٩) الفساد السياسي (٣٧).

(٣٠) سر تأخر العرب والمسلمين (٢٠).

فإذا الوالد الذي يُذكر لها كلّها هو اليونان، إن جرثومتها الأولى لم تعرف لها من أرض الله وطنًا إلا اليونان، ثم تقفز هذه الدراسة مسافة ألف سنة لتظهر في أوروبا وتبدأ عملها هناك، عجبًا! أين كانت خلال هذه القرون؟ كانت في بغداد ودمشق والقاهرة ومراكش، إن الجواب معروف ولكن لا يجوز النطق به لأن العرب والمسلمين لا يجوز أن ينسب لهم فضل ولا أن يعرفوا بين الناس بخير! ليس لعلماء المسلمين أي جهد في ميدان العلوم الإنسانية، هكذا يكذب الاستعمار الثقافي، ويريد إفهام الناس أن علماء المسلمين لم يسهموا بشيء في مجال العلوم أو الفلسفة^(٢٤) بل إن الشيخ يرى أن هذه العلوم تأتي في المرتبة الثانية في ثقافة الداعية بعد العلوم الدينية، يقول: (ويأتي بعد العلوم الدينية التي يجب أن ينهل منها الداعية العلوم الإنسانية: علم النفس، علم الاجتماع، علم السياسة، علم التاريخ، علم الاقتصاد)^(٢٥).

ورغم أن لنا تراثًا وجهدا مشكورا في هذه العلوم قديمًا إلا أننا اليوم لا جهد لنا ولا إسهام يذكر، وقد رأيت كتابا منذ أسابيع وقمت بطباعة نسخة منه لي، عنوانه (أهم خمسين كتابا في علم النفس) لمؤلفه: توم باتلر وباودون، تقوم فكرته على انتقاء أهم خمسين كتابا في علم النفس من وجهة نظرهما وتقديم تقرير عن كل كتاب منها، والشاهد أنني لم أجد كتابًا واحدًا منها عربيًا ولا مؤلفًا عربيًا أو مسلمًا، بل كلّهم غربيون وغير مسلمين، فيا للأسف الشديد! وهذا يدلنا على مدى التخلف الذي لحقنا في ميدان العلوم الإنسانية، بل يرى الشيخ الغزالي أن من أسباب تأخر المسلمين والعرب تخلفهم في هذا الجانب، فأورد حديثًا ليس قصيرًا عن علم الاجتماع في كتابه سر تأخر العرب والمسلمين^(٢٦)، ويرى أن دراسة هذه العلوم واجبة، وأن عندنا تراثًا هائلًا منها يمكن غرلته وإنتاجه وإخراجه للإنسانية، يقول: (ونلاحظ أن هناك وحشة بإزاء عدد من العلوم الإنسانية مثل علم النفس والتربية والأخلاق والاجتماع... إلخ، والواجب أن تدرس هذه العلوم، وأن توضع في إطار إسلامي صلب، وعندي أننا لو غرلنا التراث الصوفي وقدرنا جهود ابن القيم وابن الجوزي والغزالي وابن عطاء الله السكندري وغيرهم لأمكننا أن نخرج بحصيلة

إليه، ولا يوجد نص إلهي آخر سوى القرآن الكريم يدعو إلى دراسة الكون والنظر فيه ودراسة العلم التجريبي الديني لإقامة الدنيا، فلا يليق بالمؤمنين أن يكونوا عن ذلك معرضين، وغيرهم له فاعلون، إنها إذا مفارقة عجيبة! فقد أمر الله عباده المؤمنين بالتفكير في مخلوقاته، يقول الشيخ: (أي تناقض مذهل إذا مشى الكافرون بين مخلوقات الله وهم يسبرون أغوارها ويعرفون أسرارها ويجيدون استخدامها، ومشى المؤمنون بين هذه المخلوقات لا يكادون يفقهون حديثًا أو يحسنون صنعًا)^(٢٧).

رابعًا: جانب العلوم الإنسانية

كانت عندنا -نحن المسلمين- ريادة وقيادة في العلوم الإنسانية، ولكن ما لبث الزمان حتى أصبحت شمس هذه العلوم تشرق من الغرب، وأصبح العرب والمسلمون عالة على الغربيين في هذه العلوم، وأقصى ما يجتهد به عربي أو مسلم أن يترجم ما كتبه الغرب أو ينقل من هنا وهناك مما كتبه ويؤلف كتابا مملقًا.

ولا شك أن العلوم الإنسانية يدار بها العالم في عصرنا، وما نراه اليوم من أساليب حديثة في إدارة الصراع العالمي إعلاميًا واقتصاديًا واجتماعيًا أو سياسيًا ما هو إلا أثر من آثار العلوم الإنسانية الحديثة والتخطيط في ضوءها، ولقد اهتم الشيخ محمد الغزالي رحمه الله بهذا الجانب، وجعله علامة النهضة وآية بناء الحضارة، فتكرر هذا التركيب الوصفي (العلوم الإنسانية) في كتبه ٤٤ مرة، فضلًا عن ذكره لكل علم على حدة مثل علم التربية وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق وعلم النفس وعلوم السياسة وغير ذلك.

ويرى الشيخ الغزالي أن (العلوم الإنسانية تحتاج إلى شيء من التأمل، وهذه العلوم هي علم الأخلاق والتربية والاجتماع والنفس والاقتصاد والسياسة وغير ذلك، وتسميتها علومًا ضرب من التجوز؛ فهي فروع فلسفية تعتمد على الفكر أكثر من اعتمادها على التجربة، وموضوعها الإنسان وملكاته ورسالاته في هذه الحياة، وهذا الموضوع أشبع الإسلام دراسة وأغناه بجملة وافرة من الأحكام والمبادئ والتطبيقات، ولكن العلوم الإنسانية تدرس في أوروبا ثم تترجم هذه الدراسة إلينا

(٢٤) غلام من الغرب (١٢٥).

(٢٥) مقالات الشيخ الغزالي (١٩٠/٣).

(٢٦) سر تأخر العرب والمسلمين (٨٧) وما بعدها، طبعة نهضة مصر.

(٢٧) الطريق من هنا (٢٢).

أسباب الثورات ومطالب الثوار:

يرى الشيخ الغزالي أن أسباب الثورات هي شيوع الظلم ومصادرة الحريات وسلب ضرورات الجماهير، يقول: (العدل هو المساواة التي لا تعطي أحداً حقاً ليس له ولا تبخس إنساناً شيئاً من مقومات حياته الكريمة، غير أن الدنيا كانت عند سوء الظن بها، فما لبثت حقوق الأمم المعقولة أن وضعت على موائد المترفين، فأكلوها أكلاً لئماً، وسُلب الألف ضرورتهم ليُنخَم بها أفراد، وصودرت حريات شتى ليشبع طغيان الكبر عند الأوغاد، وقد ثُقل بعض صحائف التاريخ فتسمع بها ضجيج الثوار الذين حطموا الأصنام، وهتكوا حجاب الخرافات المقدسة، ولكن صحائف التاريخ الطويلة عليها صمت مريب، كأنما هو صمت القبور التي ماتت فيها الآمال، وذلت فيها الرجال من طول ما توارثت البشرية من عسف وطغيان وتشريد)^(٣٧)، ومن أسبابها أيضاً شيوع حكم الفرد، يقول: (ونحب أن نقول بجلاء: إنه حيث يسود الحكم المطلق تنتقض الإنسانية من أطرافها بل من صميمها)^(٣٨).

وفي مقام آخر يبين أن سر نجاح الثورات مرتبط بظهور غضب حقوق الناس وفشو أكل أموالهم بالباطل، يقول: (إن الأمة التي يفشو فيها أكل أجور العامل وغضب حقوقه الواضحة ليست الأمة التي تعيش في ضمان السماء، أو التي تتوقى نكبات الحياة، أو التي إذا أصابها حرج تَوَقَّع لها الفرج، بل على العكس لا تكاد تتردَّى في هاوية حتى تجد من يتقدم ليهيّل عليها التراب لا لينجدها ﴿وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ﴾ [القصص: ٥٩]، وذلك سر نجاح الثورات الكبرى في هذه الحياة، إنها تندلع في نظم قد دبَّ فيها البلى، وطال منها الظلم، وابتعد عنها التوفيق، وأدبر عنها النجاح، فما تكاد تُدْر التمرّد على الطغيان والاستبداد تظهر في الأفق حتى يفغر التاريخ فمه ليتلع دولة شاخت، ويسلكها في عداد الذكريات المرة، وليتأذن بميلاد دولة جديدة ونظام جديد تتعلق به آمال البشر كرة أخرى)^(٣٩).

ويبين الشيخ الحالة النفسية والواقعية للثوار حين تحقّق الثورة بصفتها ردّ فعل على طول وقوع الظلم عليهم والعسف بهم، يقول: (ما إن اندلعت الثورات في القرن الأخير حتى تطلعت الجماهير إلى مساواة خيالية كالظمآن الذي طال عليه العطش، فلما وقع على الماء أخذ يعب ويعب حتى خرج الري من

الأفق وروعة الحصيللة العلمية خلال لا بد منها لأي داعية موفق، والداعية الذي يشعر بغربة في ميدان الأدب يجب أن يترك ميدان الدعوة لفوره؛ فإن الذي يحاول خدمة الرسالة الإسلامية دون أن يكون محيطاً بأدب العربية في شتى أعصارها إنما يحاول عبثاً، وأنتى لرجل محروم من حاسة البلاغة أن يخدم ديناً كتابه معجزة بيانية ورسوله إمام للحكمة وفصل الخطاب؟ الداعية لا بد أن يدرس آداب العربية القديمة والحديثة، وأن يدرّب نفسه على الأداء العالي والعبارة الرائقة، وليس القصد أن يكون كلامه إنشاءً منمقاً، كلا فهذا مزلة له ولرسالته، وإنما القصد أن يحسن صوغ العلم النافع والحقائق الركينة في أسلوب يبرز ما فيها من نفع وقوة، وقد قالوا: الخط الحسن يزيد الحق وضوحاً، وكذلك القول الحسن والخطاب الجميل)^(٣٥).

أما واقعنا المعاصر فهو يعبر عن ثقافة ضحلة لا تمكن الأمة من بناء نهضة وصناعة حضارة، يقول: (ورأيت أن الثقافة التي آلت إلينا في القرون الأخيرة كانت ضحلة آسنة لا في مجال المعرفة الدينية وحدها بل في مجال الأداء الأدبي كذلك، وهذه الثقافة كانت أعجز من أن تصنع أمة تنهض برسالتها وتخدم كتب ربها وستة نبيها)^(٣٦).

ثامناً: جانب الإصلاح والتغيير

كما هو معلوم لكل مطالع لسيرة الشيخ الغزالي ومسيرته الفكرية والحضارية أنه نذر نصف حياته الفكرية والدعوية الأول لبيان مفاسد الاستبداد والمستبدين، ولمقاومة الزحف الأحمر والمذاهب الفكرية الهدامة، بينما كان نصف حياته الأخير متمحوراً حول كشف عوار الفكر الأحول، وبيان زيف التدين المغشوش، والتحذير من الفهم المغلوط للإسلام.

وتمر أمتنا العربية والإسلامية بفترات عصيبة، تصلّى فيها نار الظلم والقهر ونهب مقدرات البلاد، حتى انتهت هذه المسيرة في الطغيان والمظالم إلى أن قامت هذه الشعوب بحركات تغيير تمثلت في ثورات على أنظمة طالما بغت وتجبرت، فيها هو الشيخ الغزالي يحدثنا من قبره عن الثورات وعن أسبابها، وعن مفاهيم الخروج على الحكام ووظيفة الحاكم والحكومة، وعن شروط نجاح الثورات وعن ضوابط تحكمها وترشّد سيرها، وغير ذلك مما هو مبثوث في كتبه ومنثور في تراثه.

(٣٧) الإسلام المفترى عليه (٤٦)، طبعة نهضة مصر.

(٣٨) من مقالات الشيخ محمد الغزالي (٦٦/١).

(٣٩) الإسلام والمناهج الاشتراكية (١٩٠).

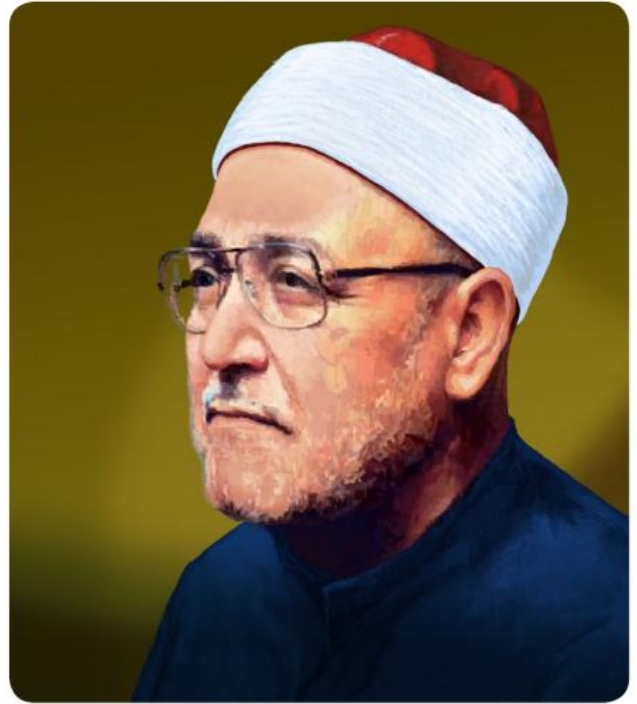
(٣٥) مع الله دراسات في الدعوة والدعاة: الشيخ الغزالي (١٨١)، دار نهضة مصر.

(٣٦) سر تأخر العرب والمسلمين (١٢٨).

الأخيرة فيستحيل أن تسمح تقاليدهم بذلك).

وإذا كانت أشرف وظائف المرأة هو مهمتها في بيتها وأبنائها فإن هذا لا يعارض مهمتها الاجتماعية والدعوية، ويجب أن يكون هناك توازن بين هذا وذاك، يقول: (لا ريب أن وظيفة المرأة في بناء الأسرة خطيرة لا يقبل التفريط فيها كما أنه لا ريب في أن المجتمع كله مطالب بصيانة الأعراض ومنع أي عبث بها، والأمة الراشدة تستطيع التوفيق بين هذه الأهداف جميعاً، فلا تضع المرأة في قفص الاتهام بغباوة ولا تطلقها لتكون مصيدةً للآثام، ولا تجور على غيرة الرجل ولا تهمل حقوق الله^(٣١)) ولن تقوم المرأة لهذه الوظيفة إلا بالتعليم، ولن يستوعب الرجال ذلك إلا بالتعليم كذلك، يقول الشيخ: (فنحن يجب أن نتعلم، والعلم يجب أن يشمل الأمة كلها)^(٣٢).

وحسبنا عنوان كتابه الدالّ دلالة واضحة على هذا المعنى: قضايا المرأة بين التقاليد الرائدة والوافدة، فهو من جهة يبين ملمح الوسطية عند الشيخ، ومن



الشيخ محمد الغزالي توفي في شوال ١٤١٦ هـ - آذار ١٩٩٦ م

جهة أخرى وضع أيدينا على التصور الصحيح ورؤية الإسلام للمرأة، فهناك أعرافٌ راکدة في مجتمعاتنا نشأ

الناس عليها وعاشوها وتقدم بهم العمر حتى ظنوا أنها جزء من الدين، وهناك أناس يسعون وراء الغرب وما يفد إلينا منه، ويظن بعضهم أن مقتضى التطور والتحضر أن نتابع الغرب في كل عاداته وأعرافه، أما الإسلام فلا يعرض عن هذا بالكلية، ولا يقبل ذاك بالكلية، وإنما هناك ميزان حساس يوزن عليه الراكد والوافد، فما اتفق وهذا الميزان قبلناه، وما خالفه رفضناه، وما كان خليطاً ميّزنا حقه من باطله، فقبلنا حقه ورددنا باطله.

سابعاً: جانب الأدب شعراً ونثراً

لا نهضة بلا ثقافة، ولا ثقافة بدون علوم العربية وآدابها، وقد كان الشيخ الغزالي أحد البلغاء الشعراء الذين ترى كتاباتهم تنضح بلاغة وبياناً، فضلاً عن كونه شاعراً له ديوان شعري عنوانه الحياة الأولى، قال د. مصطفى الشكعة في دراسته عنه في مقدمة الكتاب: لقد عرف الناس عن الشيخ الغزالي تلك المواهب المعرفية الإسلامية التي أسلفنا ذكرها، وأما الذي لا تعرفه جمهورهم بل مجموعهم هو أنه كان شاعراً ذا موهبة خصبة وقرينة معطاءة وقلم مطواع وبيان سائح^(٣٣).

يرى الشيخ ابتداء أن نجاح النهضة يبنى على المشاعر والأفكار، وأن الثورات الاجتماعية لا بد أن تسبق بثورات أدبية تمهد لها، قال: (إن نجاح النهضة وبقائها يرتبطان بمقدار ما تستند إليه من مشاعر وأفكار، بل إن الارتقاء الصحيح لا يكون إلا معتمداً على خصب المشاعر ونضارة الأفكار؛ ولذلك لا بد في الثورات الاجتماعية الكبرى من ثورات أدبية تمهد لها، وتملاً النفوس والعقول إيماناً بها، وقد تعرتي الأمم هزات موقوتة أو انكسارات وانتصارات سريعة، وقد يصيب الحضارات مد وجزر لأسباب شخصية أو محلية، وذلك كله ينظر إليه المؤرخون نظرة عابرة، ولا ينتظرون من ورائه نتائج بعيدة المدى، أما النهضة التي تصحبها يقظات إنسانية واسعة، وتحف بها عواطف جياشة ونظرات عميقة، فهي أمر له خطره وله ما بعده)^(٣٤).

كما يرى الشيخ أن العلوم الأدبية واللغوية من مقومات الثقافة الأساسية لدى الداعية، وبدونها لن يقدر على إبلاغ رسالته وتحقيق غايته، يقول: (إن غزارة الثقافة وسعة

(٣٣) الحياة الأولى (ديوان شعر): (ص ٦)، طبعة نهضة مصر.

(٣٤) نظرات في القرآن (١٢).

(٣١) الطريق من هنا (١٢٩).

(٣٢) مقالات الشيخ الغزالي (٢/ ١٥٨، ٣/ ٢٠٦).

نحن متفرون على حقنا وهم مجتمعون على باطلهم! فقلت له: ما أحسب المتفرقين على حقهم أصحاب حق، فطبيعة الحق أن يجمع أهله، إن أعداداً كبيرة من السائرين تحت لواء الحق تكمن في بواطنهم أباطيل كثيرة، فهم يحتشدون بأجسامهم فقط تحت رايته، ويبدو أن المآرب الكثيرة والأغراض المختلفة تجعل لكل منهم وجهة هو موليها، وذاك في نظري ما جعل ثورات عديدة تسرق من أصحابها، ويسير بها الشطّار إلى غاية أخرى، حتى قيل: الثورات يرسمها المثاليون وينفذها الفدائيون ويرثها المرتزقة، ترى لو كان المثاليون والفدائيون على قلب رجل واحد في الإيثار والتجدد أكان يبقى للمرتزقة موضع قدم؟ إن أخطاء خفية نستخف بها عادة هي التي تنتهي بذلك المصير! (٤٨).

نصيحة للحكام والمرشحين للحكم:

وفي النهاية نورد نصيحة يوجهها الشيخ المجاهد للحكام ومن يرون أنفسهم أهلاً لتولي الحكم، وهي نصيحة -أحسب أنها في وقتها الآن وفي كل آن- للحكام الذين يعاندون القدر أو لمن سيأتي للحكم في البلاد التي نجحت فيها الثورات، يقول الشيخ: (إلى الحكام والمرشحين للحكم: دعوا مواكب الإسلام تمر بألويتها إلى ما تريد، لا تحرصوا على كل شيء فتفقدوا كل شيء، اقبلوا حكم الدين في دنياكم قبل أن تسلبكم الثورات الحاقدة كل رحمة في الدين وكل متعة في الدنيا) (٤٩).

خاتمة

هكذا تحدث الشيخ الغزالي عن جوانب حضارية جمة ودورها في بناء النهضة وقيام الحضارة، ولم يُفِ الشَّيْخُ أن يبين واقعنا المعاصر فيها، فقد كان مهموماً بواقع أمته وقضايا واقعه، وقد كانت هذه إشارات لمجرد إشارات -في هذه الجوانب، وليست استقراءً لكل ما كتبه فيها، كما أن هذه الجوانب ليست حصراً جوانب البناء الحضاري الكاملة عند الشيخ، فلا شك أن هناك جوانب أخرى يمكن استخراجها من فكر الشيخ وبيان تصوره عنها، لكن هذا ما اقتضته الظروف وسمحت به الأحوال.

رحم الله الشيخ العلامة محمد الغزالي وجزاه عن أمة الإسلام خيراً.

الحق ولا يضار به الباطل، وقد رأى الفقهاء أن إزالة المنكر إذا استتبعت مفسدة أعظم فمن الخير التبرص بها وارتقاب الفرص السانحة لها، والسكوت حيث لا يسكوت مجبنة وتخوف، ولكنه ترسم سياسة أفضل في حرب المنكر كما قال الله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [الأنفال: ٢٥]، كما أن الحماسة للخير لا تعني السفاهة على الناس وسوء الأدب في عسرهم والمتاجرة بأخطائهم بغية فضحهم والتشهير بهم، فذلك كله ليس خلق المسلم ولا منهجه في تدعيم الجماعة ورفع شأنها، فالحرية المطلوبة حدها الأعلى أن تتمكن من قول الحق، لا أن تتمكن من التناول والبذاء (٤٦).

شروط نجاح الثورات:

ونجاح الثورات والنهضات مرهون بشروط متى تحققت نجحت الثورة، ومتى غابت لم تُحقق الثورة نجاحاً يذكر؛ ولهذا يرى الشيخ أن من شروط نجاحها التمهيد لها بأدبيات تملأ النفوس وتشحذ العقول وتحمس الهمم بما يحقق نقطة إنسانية عالية شاملة، يقول الشيخ: (إن نجاح النهضة وبقائها يرتبطان بمقدار ما تستند إليه من مشاعر وأفكار، بل إن الارتقاء الصحيح لا يكون إلا معتمداً على خصب المشاعر ونضارة الأفكار؛ ولذلك لا بد في الثورات الاجتماعية الكبرى من ثورات أدبية تمهد لها، وتملأ النفوس والعقول إيماناً بها، وقد تعترى الأمم هزات موقوتة أو انكسارات وانتصارات سريعة، وقد يصيب الحضارات مد وجزر لأسباب شخصية أو محلية، وذلك كله ينظر إليه المؤرخون نظرة عابرة، ولا ينتظرون من ورائه نتائج بعيدة المدى، أما النهضة التي تصحبها يقظات إنسانية واسعة، وتحف بها عواطف جياشة ونظرات عميقة، فهي أمر له خطره وله ما بعده) (٤٧).

ومن شروط نجاحها عند الشيخ وعند العقلاء تحقق الوحدة على اختلاف المشارب والأفكار، فمتى تخلص الجميع عن رؤاه الخاصة ومكاسبه المحدودة، وذاب بغيره في إطار تحقيق هدف واحد ومصلحة كبرى، تحقّق النجاح بلا ريب؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، أما حين تجتمع الأجساد وتفرق العقول والأرواح فهنا يكون الفشل المؤكد، ويقوم المرتزقة بسرقة الثورات ووراثتها، يقول الشيخ: (سمعت قائلاً يردد في ألم:

(٤٨) الحق المر (١/٥٧-٥٨).
(٤٩) الإسلام والمناهج الاشتراكية (٢٠).

(٤٦) المرجع السابق (١٦٤).
(٤٧) نظرات في القرآن (١٢).

هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان»^(٤٣)، وهذا حديث لا غبار عليه، وأرقى الأمم الدستورية تعمل بوحية في أيام حربها وسلامها، فإن حق الثورة المسلحة ليس كلاً مباحاً يرعاه كل غضبان، أما اعتبار المعارضة المشروعة خروجاً على الدين وحكومته يُقتل من أجلها المعارض استدلالاً من الحديث السابق فهو ما لا موضع له في أدمغة العلماء، إن السفلة من الحكام قتلوا كثيراً من الناس جرياً على طبائع الاستبداد لا اتباعاً لأحكام الله، فلا ينبغي الاعتذار للمجرمين بأنهم تأولوا آيات الكتاب وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام، فهم لا يعرفون الله حقاً ولا لرسوله حرمة، وقيح بنا هذا الانتحال»^(٤٤).

ولو كانت الأمة متيقظة لأداء حاكمها أبداً، وتأخذ على يديه دائماً، كما وصلنا إلى هذا الحد من سفك الدماء التي قام بها السفلة من الحكام - على حد تعبير الشيخ -؛ ولهذا فالفرق بيننا وبين الغرب هائل في هذا السياق، وقد ألمح الشيخ إلى ذلك حين قال مقارناً بيننا وبينهم: (وإسقاط حكومة ما في البلاد التي تسودها النظم الديمقراطية عمل معتاد، وفي الغرب شواهد متجددة على أن استبدال وزارة بأخرى أمر هين، وسحب الثقة من أية وزارة هناك يرجع إلى رغبة الشعب في تحقيق مطالب معينة أو رؤية لون جديد من النظم والأفكار، وقلما تسقط حكومة هناك لخروجها عن طبيعة وظيفتها، فإن يقظة الأمم هناك وأمانة الحكام لا تسمحان بتطور الأمور على هذا النحو القاتم، وليت الأمور في الشرق تجري على هذا النسق الرتيب فيستريح الحاكم والمحكوم من اضطراب الأجواء وعصف الأنواء)^(٤٥).

ضوابط للثورات:

ولكي تؤتي الثورات ثمارها وتحقق غاياتها وتلبي تطلعات الشعوب التي قامت من أجلها؛ تحدث الشيخ عن سياسة عامة لا يصح أن تغيب عن عقول المصلحين أثناء الثورات، وأورد ضوابط أخلاقية يجب أن ينضبط بها الثوار حتى لا نسيء من حيث أردنا الإحسان، يقول الشيخ: (على أن لقول الحق وغرسه في المجتمع سياسة لا ينبغي أن تغيب عن أذهان الدعاة والمصلحين، فليس الهدف المقصود أن يستقتل المرشدون من غير جدوى، وأن يضحوا بغير ثمرة؛ فذلك ما لا ينتفع به

أظافره)^(٤٦)، وهو ما نشهده رأي العين في واقعنا المعاصر.

وفي الوقت نفسه يستبعد الشيخ - رحمه الله - بل يرفض إلباس الثورات ثوب الاضطهاد الديني على أنه سبب لها، وهو ما يتصل بالواقع المصري وما شابهه بشكل أو بآخر، يقول: (وإلباس الثورة في مصر ثوب الاضطهاد الديني محاولة فاشلة لجعل تاريخ الإسلام مشابهاً لتاريخ النصرانية في التعصب ضد الأقليات)^(٤٧).

الحاكم والخروج عليه:

وفي سياق الثورات وبعد بيان أسبابها يحسن أن نورد تكييف الشيخ لوضعية الحاكم ووظائفه في الإسلام، وكذلك الحكومة وواجباتها نحو الأمة، يقول: (وظيفة حاكم ما في أي بلد مسلم أن يحرس الإيمان ويقيم العدالة ويصون المصالح، فإذا فرط في أداء هذه الواجبات فقد قصر في أعمال وظيفته، ووجب تنبيهه وإرشاده، أما إذا هدم الإيمان بالإلحاد، وأضاع العدالة بال جور، وأهمل المصالح باللهو، فقد خرج عن طبيعة وظيفته ووجب إسقاطه)).

ويبين متى ينحل العقد الذي بين الحاكم والمحكومين، فيقول: (والأمة في حِلٍّ من السمع والطاعة بداهة إذا حُكمت على أساس من جحد الفرائض وإقرار المحرمات ونهب الحقوق وإجابة الشهوات؛ لأن معنى ذلك أن الحكم قد مرق من الإسلام وفسق عن أمر الله، وأن الحاكمين أنفسهم قد انسلخوا عن الدين؛ فليس لهم على أحد عهد)^(٤٨).

معنى الخروج على الحاكم وحقيقته:

ولا يخفى على أحد الفتاوى المغلوطة التي نتصحب بها ونتمسى في هذه الآونة من بعض المنتسبين إلى العلم الشرعي، الذين يعلنون أن هذه المظاهرات خروج على الحاكم وخرق لطاعة ولي الأمر وأنها بدعة، إلى غير ذلك من هذه التأويلات الفاسدة والتزييلات الباطلة؛ ولهذا يحرر الشيخ معنى الخروج على الحاكم مراعيًا تطور دلالات المصطلحات، فيقول: (وكلمة الخروج على الحاكم كانت قديمًا تعني شهر السلاح في وجهه، ولا أظن أحداً ينتظر من الإسلام أن يبيح هذا الحق لمن يشاء متى يشاء، وكل ما ذكره الإسلام في إطفاء بذور الحرب الأهلية قول الرسول صلى الله عليه وسلم: ((ستكون هنات وهنات، فمن أراد أن يفرق أمر

(٤٣) رواه مسلم، كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع، رقم ١٨٥٢، ترويض عبد الباقي.

(٤٤) من هنا نعلم (٥١).

(٤٥) الإسلام والاستبداد السياسي (١٦٠).

(٤٦) الإسلام المفترى عليه (٤٦).

(٤٧) التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام (٢٣٩).

(٤٨) الإسلام والاستبداد السياسي (١٦٢).

بأن مصطلح الأقليات إنما هو مصطلح سياسي جديد بدأ ظهوره واستعماله بشكل كبير في بداية العهد الاستعماري الحديث.

«إلا أن حماية حقوق الأقليات بقيت مجرد حالات معزولة لا تعبر عن سياسة قانونية عامة حتى إنشاء عصبة الأمم؛ التي وضعت نظاماً دولياً لحماية الأقليات؛ طبق في مواجهة عدد محدود من الدول.

وبعد فشل نظام العصبة المتعلق بحماية الأقليات وانتهاء العمل به؛ بزوال عصبة الأمم وحلول الأمم المتحدة محلها؛ بات مستقرًا في أذهان القائمين على إنشاء الأمم المتحدة عدو الجدوى من إنشاء نظام خاص لحماية الأقليات، وأن فكرة عالمية حقوق الإنسان والمساواة كافية لوضع حد لمشكلة الأقليات، إلا أن الأمم المتحدة سرعان ما شرعت بدراسة الموضوع، فوضعت صكوكاً دولية عديدة تهدف إلى حماية الأقليات»^(١)، وبذلك صارت (حقوق الأقليات) جزءاً من شرعة حقوق الإنسان، وصارت وسيلة ضغط فعالة تسوّغ التدخل في شؤون الدول بحق وباطل.

ومما يؤسف له أن بعض هذه المجموعات العرقية أو الأثنية أو القومية؛ قبلت أن تكون وسيلة ضغط للقوى الاستعمارية، متذرعة بالخوف على الوجود والمصالح، مع شيء من الطمع بأن تتحول هذه المجموعات إلى دول، وما دَرَوْا أنهم بقبولهم هذا كانوا يمهّدون لقيام الكيان الصهيوني في فلسطين.

تعريف مصطلح الأقليات:

كون هذا المصطلح ناشئاً، فإنه لا وجود له في قواميس السياسة الشرعية عندنا، وإنما نجده في قواميس السياسة المعاصرة.

وكحال أي مصطلح ناشئ حديث النّحت، فإنه يَعتَوِرُهُ بعض الاضطراب، والسبب في ذلك أن تعريفات هذا المصطلح هدَفَ واضعوها من خلالها إلى جعلها مفتاحاً لتأمين مصالحهم في الدول التي فُصِّلَ هذا المصطلح من أجلها وعلى مقاسها!

فمثلاً الموسوعة البريطانية تعرّف الأقليات بأنهم: (جماعة

مبسّطاً، محاولاً البحث عن الدوافع التي تحرك مفهوم الأقليات اليوم، والإجابة عن بعض الإشكاليات التي تُطرح بدهاء ومكر. لذلك سأبدأ بالتعريف بمصطلح (الأقليات) وتاريخ نشأته، ثم أعرج على الدوافع لبروزه، محاولاً بيان وجهة نظري في هذا الموضوع.

مصطلح الأقليات.. النشأة والتاريخ

لم يعرف المسلمون في تاريخهم ولا في كتبهم ولا ثقافتهم هذا المصطلح، وإنما ظهر مع بوادر ضعف الدولة الإسلامية المتمثلة بالإمبراطورية العثمانية وفقد نفوذها، وظهور ما بات يعرف يومها بالمسألة الشرقية، حيث كانت أوروبا خاصة والغرب عامة يعدون العدة لورثة الرجل المريض، فتوسلوا إلى ذلك بالوصاية عليهم، وكان ذلك من خلال افتعال الفتن بين المسلمين وأبناء المجموعات الأثنية التي تشكل مع المسلمين نسيج المجتمع المسلم، ثم وضع الدولة العثمانية تحت الأمر الواقع وإجبارها على الاعتراف بوصايتهم على هذه المجموعات الإثنية.

يومها بدأ هذا المصطلح بالظهور مع التركيز على ضرورة حماية هذه المجموعات التي أطلقوا عليها لقب (الأقليات)، وإنما المسألة في الحقيقة نوع من الوصاية المباشرة بهدف التدخل في الشأن الإسلامي والضغط على السلطنة لتقديم التنازلات وتقليص نفوذها.

وقد برز هذا التوجه جلياً في معاهدة برلين سنة ١٨٧٨م، والتي أُلزِمَتْ فيها الدول الأوروبية الجديدة المنفصلة عن السلطنة العثمانية، وهي: بلغاريا، وصربيا، والجبل الأسود، ورومانيا، إضافة إلى السلطنة العثمانية، بقبول كل الالتزامات التي نصت عليها هذه المعاهدة وفي مقدمتها: حماية الحريات الدينية، والمساواة لمصلحة الأشخاص المنتمين إلى الأقليات^(٢). مما يؤكد القول

(١) معاهدة برلين: لما قبلت روسيا عرض معاهدة سان استافانوس على مؤتمر دولي يعقد في برلين كتب البرنس بسمارك تلغرافاً إلى الدول كافة يدعوهم فيه لإرسال مندوبيهم للاجتماع في يوم (١٢) حزيران. يونيه سنة (١٨٧٨)م، فاجتمع المندوبون، وتناقشوا أياماً، وكان ينوب عن الدولة محمد علي باشا وقره تيودوري باشا وسعد الله بك. وأهم ما جاء في المعاهدة: تقسيم بلغاريا إلى القسمين: القسم الشمالي يعطى امتيازاً عادياً، والقسم الجنوبي يمنح نوعاً من الامتيازات. وأن تستقل رومانيا استقلالاً سياسياً ويضاف إلى بلادها مقاطعة دوبريجه، في مقابل استيلاء الروس على بسارابيا. وأن يضم إلى الصرب إقليم نيش، وأن يعطى الجبل الأسود ميناء انتيفاري وثلاث الأراضي التي أعطيت له بموجب معاهدة سان استافانوس، وأن تستولي روسيا على بسارابيا التي كانت انتزعت منها سنة (١٨٥١)م، وأن يضم إلى أملاكها بأسيا قارص وأردهان وباطوم. وقرر المؤتمر أيضاً أن تستولي إيران على إقليم قطور، والنمسا على فرضة أسبيرا، وأن تحتل جنودها البوسنة والهرسك إلى أجل غير مسمى. وتعهد الباب العالي أن يقلل، بلا تمييز بين دين ودين، شهادة رعاياه أمام المحاكم، وأن ينفذ النظام الذي سن لجزيرة كريت سنة (١٨٦٨)م، وأن تدخل نظمات مشابهة لها في جميع القسم التركي الأوروبي بعد تحويلها إلى ما يوافق حاجة تلك البلاد. وأن يهتم الباب العالي بتنظيم بلاد الأرمن، وأن يحميهم من تعديات الجركس والأكرد، وأن يبلغ الدول من حين لآخر ما أحدثه من تلك الإصلاحات.

(٢) - دلالة مصطلح الأقليات في القانون الدولي والمعاهدات/ الحلقة الثانية
<http://www.gilgamish.org/html/١٤٢٢٤/٢٦/١١/٢٠٠٨/>



أ. د. ماجد الدرويش
أستاذ الحديث الشريف وعلومه
في جامعة الجنان - لبنان

الأقليات.. حصان طروادة جديد لشرق أوسط جديد



حفظ وجودهم وضمن لهم استقلايتهم وخصوصيتهم، أما اليوم وبعد اضمحلال السلطة السياسية للإسلام، فقد بات هذا التنوع سبباً على المنطقة، وباعثاً قلاقل وحروب، ومفتاحاً لتقسيم البلاد وإضعافها سياسياً وجغرافياً.

ومع معرفتي بأن دراسة هذا الموضوع دراسة علمية تحتاج إلى نظر في قواعد الفقه السياسي، ونشأة المجتمع المسلم، والضوابط والأصول التي أصلتها الشريعة في التعامل مع المخالفين، وكيف نظرت إليهم؟ هل اعتبرتهم أقليات بمفهوم اليوم؟ أم رعايا؟ أم جاليات؟ أم مواطنين؟ وهل مفهوم المواطنة في الفقه السياسي الشرعي يتوافق مع مفهوم المواطنة في الفكر السياسي للمدارس السياسية المختلفة اليوم؟

وهل منطلقات الفكر السياسي الإسلامي في تعامل الإسلام مع المخالفين؛ تشبهها منطلقات الفكر السياسي للمدارس السياسية المختلفة اليوم؟ بل هل مفهوم الدولة في الإسلام يشبه مفهوم الدولة اليوم؟

هذه كلها أسئلة تحتاج إلى إجابات صريحة وواضحة، لأنه على أساسها تكون العلاقات بين سائر شرائح المجتمع.

طبعاً لن أدخل في متاهة الجواب عن شيء من هذه الأسئلة، إلا أنني سأعرض للواقع الذي نعيشه عرضاً

الحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وعلى سائر الأنبياء والمرسلين، وبعد:

منذ فترة ليست بالبعيدة ونحن نسمع عن الأقليات في العالم وعن ضرورة حفظ حقوقها، مما يوحي بوجود ظلم لاحقٍ بالأقليات في المجتمعات المتنوعة.

ثم التركيز الأكبر دائماً على منطقتنا العربية التي تعتبر عقر دار المؤمنين، لأن فيها نسيجاً منوعاً من عقائد مختلفة، وقوميات مختلفة، وما كان لهذا التنوع أن يبقى إلى اليوم لولا عقيدة الإسلام وأحكامه في التعامل مع المخالفين، من باب تأويل قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة الحجرات: آية ١٣]، فلم يبن المسلمون محاكم للتفتيش، ولم يجبروا أحداً على تغيير معتقده، بينما وجدنا بعضاً من غير المسلمين؛ إذا دخلوا بلاد المسلمين عنوة منتصرين؛ يلجؤون إلى الإبادات التي تطهر البلاد من غيرهم، أو في أحسن الأحوال يخبرون الناس بين تبديل المعتقد أو الطرد، إن لم نقل القتل، وما الأندلس، أو كوسوفا، أو البوسنة والهرسك عنا ببعيد. فالإسلام ابتداءً ليست له مشكلة مع المخالفين، ولذلك

المسلم الواحد.

وقد نظرت الوثيقة إلى اليهود على أنهم «أمة» أي مجموعة لها استقلاليتها الدينية الكاملة ضمن المجتمع المدني، واعتُبر ما اتفق عليه بمنزلة معاهدة، والمعاهدة تكون بين طرفين متميزين عادة، وقد عَنَوَنَ لها ابن إسحاق في مغازيه بقوله: (وَكَتَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كِتَابًا بَيْنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَادَّعَى فِيهِ يَهُودَ وَعَاهِدَهُمْ، وَأَقْرَهُمْ عَلَى دِينِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ، وَشَرَطَ لَهُمْ، وَاشْتَرَطَ عَلَيْهِمْ)، ومما جاء في الوثيقة: ((وَإِنَّ يَهُودَ بَنِي عَوْفٍ أُمَّةٌ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْيَهُودِ دِينُهُمْ، وَلِلْمُسْلِمِينَ دِينُهُمْ مَوَالِيَهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ -أي يهلك- إِلَّا نَفْسَهُ، وَأَهْلَ بَيْتِهِ.

وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي النَّجَّارِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْحَارِثِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي جُشَمِ بَنِي سَاعِدَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي الْأَوْسِ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، وَإِنَّ لِيَهُودِ بَنِي ثَعْلَبَةَ مِثْلَ مَا لِيَهُودِ بَنِي عَوْفٍ، إِلَّا مَنْ ظَلَمَ وَأَثِمَ، فَإِنَّهُ لَا يُوتَغُ إِلَّا نَفْسَهُ وَأَهْلَ بَيْتِهِ))^(٤).

وهكذا فقد تمتع اليهود في المدينة بحكم ذاتي شبه تام، ووزَّع ولاؤهم على قبائل العرب حتى لا يؤخذ بطنٌ بجريرة غيره، وهذا غاية العدل، ولذلك عندما غدر يهود بني قينقاع لم يُجَلَّ سواهم، وكذلك عندما غدر بنو النضير لم يحاسب يهود خيبر، وهكذا.. إلا أن اليهود أبوا إلا أن يجتمعوا على الغدر، فجاء الحكم العام بإجلائهم عن الجزيرة نهائياً، ومن هنا أطلق عليهم فقهاؤنا لقب «الجالية»، وقد أطلقه علماؤنا ابتداءً على أهل الكتاب خاصة، ثم على كل من كان في ذمة المسلمين عامة، فشمل كل المجموعات التي كانت تعيش في كنف الدولة المسلمة.

يقول الإمام مرتضى الزبيدي في معجمه الفريد «تاج العروس»: (والجالية: الَّذِينَ جَلَّوْا عَنْ أَوْطَانِهِمْ: يَقَالُ: فَلَانٌ اسْتُعْمِلَ عَلَى الْجَالِيَّةِ، أَيْ عَلَى جَزِيَّةِ أَهْلِ الذِّمَّةِ؛ كَمَا فِي الصَّحَاحِ. وَإِنَّمَا سُمُّوا بِذَلِكَ لِأَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، أَجْلَاهُمْ عَنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ

الدروز والموارنة، والتي تولت فرنسا كبرها، والوقوف على الدور الذي قامت به الأكثرية السنية الحاكمة في وقف الفتنة من خلال الدور الذي قام به الأمير عبد القادر الجزائري، تبين ما أقول.

”

«تمتع اليهود في المدينة بحكم ذاتي شبه تام، ووزَّع ولاؤهم على قبائل العرب حتى لا يؤخذ بطنٌ بجريرة غيره»

مصطلح الأقليات والسلطة:

ومصطلح «الأقلية» لا يقف عند هذا الحد، بل نجد أنه يتخطاه إلى مفهوم السلطة في النظام الديمقراطي، حيث يحكم الأكثرية الأقلية، وتمارس الأقلية دور المعارضة، ولا يلزم أن تكون المعارضة مقهورة، إلا أن هذا لا يؤدي إلى المشاكل التي يؤدي إليها نظام الأقليات القائم على القوميات والعرقية والإثنيات، فالأول غالباً بيني، والثاني غالباً يهدم ويقسم.

أمة وجالية.. لا أقلية:

إذا كان مصطلح الأقليات لا وجود له في ثقافتنا، فماذا أطلق المسلمون على هذه الفئة من الناس التي يدور حولها البحث؟

لا بد من الرجوع لبدايات نشأة الدولة في الإسلام لمعرفة كيفية التعامل مع غير المسلمين في المجتمع المسلم، لأن الذي يرسم سياسة التعامل معهم هو الشرع، لذلك فلا بد من النظر في نشأة مجتمع المدينة المنورة للنظر في كيفية التعامل مع أهل الكتاب الذين كانوا يستوطنون المدينة المنورة. وهذا يمكن أن نجده في وثيقة المدينة المنورة التي نظمت حياة الناس، والتي تعتبر أهم وثيقة دستورية في تنظيم حياة المجموعات المختلفة في المجتمع

(٤) - سيرة ابن هشام ٢ / ١٠٧

بخصائص مشتركة عامة ذات طبيعة إثنية أو دينية أو لغوية تميزهم عن باقي السكان). فلم يعرّج على الامتيازات السياسية.

وليس ببعيد عنه التعريف الذي أورده الدكتور سعد الدين إبراهيم في موسوعته «الملل والنحل والأعراق» حيث عرف الأقليات بأنها: (أية مجموعة بشرية تختلف عن الأغلبية في واحد أو أكثر من المتغيرات التالية: الدين أو اللغة أو الثقافة أو السلالة).

ومن خلال هذه التعريفات نلاحظ من دون كبير عناء كيف أنها لا تتفق فيما بينها إلا على موضوع العدد والخصوصية الثقافية أو العرقية أو الدينية، وبعضها يزيد قيوداً تهدف إلى دغدغة مشاعر المجموعات العرقية والقومية المختلفة، وكأنها تحرضها على بعضها البعض.

إن كل الصكوك الرئيسة التي أصدرتها الأمم المتحدة، المتعلقة بحقوق الأقليات، لم تُعرّف فيها الأقليات تعريفاً واضحاً، وإنما أعطت أوصافاً لما يمكن أن يعتبر أقليات، ونصت بتلقائية مفرطة على أن هؤلاء عندهم مشكلة مع الغالبية المهيمنة على قرار البلد، ثم بنت على ذلك أنه لا بد من التدخل المباشر لحماية حقوق هذه الأقليات، لدرجة أنه كانت تخلق مشاكل وحروباً لتسويغ فرض هذه الحقوق، التي هي في حقيقتها استعمار من نوع جديد.

مع العلم أنه توجد دول تحكمها أقليات بمفهومهم، وهي متسلطة فيها على الأكرثيات، بل وربما مارست ضدها ما يشبه حروب الإبادة، فلو نظرنا إلى بلادنا العربية مثلاً لوجدنا دولاً تحكمها أقليات، وتتمتع فيها بامتيازات لا توجد عند الغالبية، وهذا بالتالي يخرجها من حيز مصطلح الأقليات بحسب التعريفات المعتمدة اليوم، وهذا برأيي ينقض هذا التعريف ويجعله غير منضبط، مع تمييزنا بين أقليات وأخرى، إذ ليس كل حكم لأقلية يعني أن الأمر على ما وُصف، فقد تحكم الأقلية وتكون عادلة، بناءً، تعمل للصالح العام.

بالإضافة إلى أنه ليس صحيحاً أن كثيراً من المشكلات التي تقع داخل مجتمع فيه أقليات وأكرثيات سببه تسلط الأكرثية على الأقلية، ونحن لو استقرنا تاريخ المنطقة، لوجدنا أن الأكرثية السنية كانت عامل استقرار في المنطقة، ولم تكن يوماً عامل إثارة فلاق، ولعل الإشارة إلى فترة عام ١٨٦٠م التي وقعت في جبل لبنان ودمشق بين

من الأفراد يمايزون عرقياً أو دينياً أو قومياً أو لغوياً، عن بقية الأفراد في المجتمع الذي يعيشون فيه). وهذا تعريف بالوصف.

أما الموسوعة الأمريكية فتعرف الأقليات بأنهم: (جماعة لها وضع اجتماعي داخل المجتمع أقل من وضع الجماعة المسيطرة في نفس المجتمع، وتمتلك قدرًا أقل من النفوذ والقوة، وتمارس عددًا أقل من الحقوق مقارنة بالجماعة المسيطرة في المجتمع. وغالبًا ما يُحرّم أفراد الأقليات من الاستمتاع الكافي بحقوق مواطني الدرجة الأولى).

وهذا تعريف مبني على الهدف الذي يسعى إليه واضعوه وهو دغدغة مشاعر المعنيين لفتح باب للتدخل المباشر، لأن مضمون هذا التعريف لم يوجد إلا في ظل الدول التي أتت بها اتفاقية سايكس-بيكو، أما في تاريخنا الإسلامي فمضامين هذا التعريف غير موجودة. عدا عن أن الحاكم الذي يمارس سلطة أعلى على مجموعة عندها حقوق أقل؛ قد لا يكون من مجموعة ذات أكرثية عددية، وهناك مجتمعات تتسلط فيها (الأقليات) على (الأكرثيات) وتغتصب حقوقها، وبالتالي فهذا لا يصلح تعريفاً.

أما الخبير الإيطالي فرنسيسكو كابوتورتى^(٣) فقد عرف الأقلية في دراسته المكلف بها من قبل الأمم المتحدة، والتي اعتمدت في المنظمة الدولية، بقوله: (الأقلية: هي مجموعة أقل عددًا بالنسبة إلى باقي السكان في دولة ما، وفي مركز غير مهيمن في الدولة التي ينتمون إليها، وتمتلك هذه المجموعة خصائص ثقافية: طبيعية أو تاريخية أو دينية أو لغوية تختلف عن باقي السكان، ويعبرون عن شعور بالتضامن للمحافظة على ثقافتهم أو دينهم أو لغتهم). وهذا التعريف لا يختلف في مضمونه عن سابقه لكن عبارته ألطف. ويقال فيه ما يقال في سابقه.

وكذلك الأمر في عبارة الخبير النرويجي اسبيرون أيدي، الذي اعتمدت لجنة حقوق الإنسان التابعة للأمم المتحدة تعريفه في الدراسة التي أعدها عام ١٩٨٩م عن حقوق الإنسان، حيث قال: (يقصد بالأقلية كل مجموعة من الأشخاص المقيمين في دولة ذات سيادة، ويشكلون أقل من نصف السكان في المجتمع الوطني، ويتمتع أفرادها

(٣) Francesco Capotorti, Study on the Rights of Persons belonging to Ethnic, Religious and Linguistic Minorities, United Nations: New York, ١٩٩١، فلقد نشرت الأمم المتحدة عام ١٩٩١م دراسة للمقرر الخاص فرنسيسكو كابوتورتى حيث تتبع تطور مفهوم الأقلية منذ عام ١٩٣٠م حتى تاريخ صدور التقرير.

لذلك فإن أعدادهم في تناقص مُتّرد يؤذن بشرق جديد ليس فيه أحد من المسيحيين.

هكذا يصور الأمر تصويرًا قاتمًا مستفزًا، وما أظن أن أحدًا فيه مُسكّة من مروءة يقبل بذلك، إذ كيف يُقبل أن يُهجّر إنسان من أرضه وبيته وتاريخه؟ وبخاصة أن المسيحية في الشرق موجودة قبل الإسلام!! لذلك فإن الانطباع الأول حيال هذا العرض أن المسلمين عليهم أن يحترموا منطق التاريخ والجغرافيا وأن لا يعملوا على إفراغ الشرق من أبنائه المسيحيين. مع العلم أن واقع الحال والتاريخ يشهد بعكس ذلك.

ومن أجل تدارك هذا الخلل أنشئت هيئات للحوار الإسلامي المسيحي، وانتدب لها أفاضل الناس من كلا الديانتين، وكانت الندوات دائما تعرض لتاريخ العلاقة بين الإسلام والمسيحية كدين، وبين المسلمين والمسيحيين كشعوب متجاورة متداخلة، ثم يُدلف بعد ذلك إلى الواقع الأليم الذي وصلت إليه المنطقة اليوم، حيث يشهد العالم بشكل عام، والشرق الأوسط بشكل خاص، تطرفًا دينيًا وتزمتًا وتناميًا لمشاعر العداء بين الأديان المختلفة، أو بين الملّك والنّحل في الدين الواحد، حتى إن أحد المحاضرين ربط يومًا بين تنامي ظاهرة التطرف الديني والهجرة المسيحية في الشرق، وبرأيي هذه معادلة ظالمة لأنها تنافي واقع الحال. إذ التطرف ليس مقصورًا على دين بعينه ولا شعب بعينه، وإنما التطرف سلوك نجده عند كثيرين من أتباع الديانات وفي بلاد شتى.

وقد خرجت هذه المتدييات والحوارات بنوع من التوصيات التي يمكن أن تعالج هذا الخلل الحاصل، منها: التركيز على التاريخ الناصع للعلاقة بين الديانات عبر التاريخ من خلال تعاليم هذه الأديان نفسها، لأن هذا النوع من العلاقة أمر بدهي طالما أننا نشارك الأرض نفسها، أما الجنة فيقضي الله بها لمن يشاء، ونحن - بني البشر - لنا أن نختر العقيدة التي نرى أنها تبلغنا تلك الجنة الموعودة، وبالتالي فنحن مسؤولون عن اختيارنا أمام الله سبحانه وتعالى، وملزمون بعد ذلك بالعمل وفق هذا الاختيار.

غير أن بعض الطروحات التي كانت تعرض لم تكن منطقية وواقعية، ولم تعالج المشكلة، وإنما حلقت أزمت جديدة وهيأت لصراعات جديدة، كما أن فيها

معاملة تليق بهم.

وسواء اعتُبر النصارى في بلادنا جالية أم أقلية أم رعايا، فالسؤال الذي يجب أن يطرح: هل ظلمهم الإسلام يوما؟ وإن كنا نفهم التوجس من الأنظمة الظالمة المستبدة، وإن تَجَلَّبَتْ بِجِلْبَابِ الإسلام، إلا أننا لا يمكن أن نستوعب التوجس غير المسوغ من الإسلام السُنّي على الإطلاق.

المسيحيون الموارنة في لبنان

بعد هذه المقدمات السريعة أُلجّ إلى بلدنا لبنان وما فيه من خصوصيات، لا لأعرض لتاريخ نشأة لبنان والظروف التي شكلته سياسيًا، وإنما لأتكلم عن امتيازات من يعيشون فيه.

فمن أكثر الجماعات الدينية التي استفادت من الوصاية الأوروبية على الدولة العثمانية في القرنين الماضيين: المسيحيون، وبخاصة الموارنة، الذين ربطوا أنفسهم بالكنيسة الكاثوليكية استجابة لدعوات الآباء الكبوشيين، ثم تولّت فرنسا الضغط على الباب العالي للمطالبة بحق حماية المسيحيين الكاثوليك في الإمبراطورية العثمانية^(١٠)، فكانت كل الفرمانات الهمايونية التي تصدر تراعي وجودهم وخصوصياتهم، حتى اشتهر المثل الذي يقول: (هنيئًا لمن له مرقد عنزة في جبل لبنان).

ومنذ أن بدأ التدخل بدأت المشكلات تظهر تباعًا بين أطراف المجتمع اللبناني، وتاريخنا ليس بالبعيد، وبالتالي فالكل في ذهنه صور وتطبيقات لهذا التدخل وآثاره، وإن اختلفت التأويلات.

وتجنبًا لكثير من السليبيات التي برزت في تاريخنا الحديث، وبالتحديد منذ ظهور مصطلح الأقليات، توسل اللبنانيون لذلك مبدأ الحوار، وبالأخص الإسلامي المسيحي، وثقافة قبول الآخر، وغير ذلك من الطروحات التي هدف أصحابها إلى زرع الطمأنينة في قلوب (الأقليات)، وبخاصة بعد سلسلة من الصراعات التي لم تجلب سوى الويلات، وإن كان بعض هذه الطروحات يستشف منها اتهام الإسلام بأنه مقصر في قبول غير المسلمين، ثم تُحشد شواهد الحال على ذلك والتي تُختَصَرُ اليوم بادعائهم تعرض مسيحيي الشرق للتضييق والاضطهاد الذي أدى إلى هجرتهم من بلادهم،

(١٠) - ينظر كتاب (الجاليات الأوروبية في بلاد الشام) للذكورة ليلى الصباغ، ١٣ / ١

بمصطلح قبول الآخر، بمعنى أن يقبلنا غيرنا، فيوم كنا حكام المنطقة وحاول خليفة المسلمين أبو جعفر المنصور إجلاء الموارنة من جبل لبنان بسبب ثورة قام بها بعض شبابهم، لم يأذن له الإمام الأوزاعي رحمه الله تعالى بتشتيت الناس وإجلائهم عن أراضيهم، ولم يسمح له أن يؤخذ البريء بجريرة المسيء وكتب له كتاباً طويلاً في الدفاع عن حقوقهم كان منه: (قَدْ كَانَ مِنْ إِجْلَاءِ أَهْلِ الذِّمَّةِ، مِنْ أَهْلِ جَبَلِ لُبْنَانَ، مِمَّا لَمْ يَكُنْ تَمَالاً عَلَيْهِ خُرُوجَ مَنْ خَرَجَ مِنْهُمْ، وَلَمْ تُطَبَّقْ عَلَيْهِ جَمَاعَتُهُمْ، فَقَتَلَ مِنْهُمْ طَائِفَةً، وَرَجَعَ بَقِيَّتُهُمْ إِلَى قَرَاهِمُ، فَكَيْفَ تُؤْخَذُ عَامَّةُ بَعْمَلٍ خَاصَّةٍ؟ فَيَخْرُجُونَ مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ؟ وَقَدْ بَلَّغْنَا أَنْ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَا يَأْخُذُ الْعَامَّةُ بِعَمَلِ الْخَاصَّةِ، وَلَكِنْ يَأْخُذُ الْخَاصَّةُ بِعَمَلِ الْعَامَّةِ، ثُمَّ يَبْعَثُهُمْ عَلَى أَعْمَالِهِمْ، فَأَحَقُّ مَا اقْتَدَيْ بِهِ وَوَقَفَ عَلَيْهِ حُكْمُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَأَحَقُّ الْوَصَايَا بِأَنْ تُحْفَظَ وَصِيَّةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَوْلُهُ: ((مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ فَأَنَا حَاجِبُهُ))... إِنَّهُمْ لَيُسَوُّوا بِعَيْدٍ فَتَكُونُوا مِنْ تَحْوِيلِهِمْ مِنْ بَلَدٍ إِلَى بَلَدٍ فِي سَعَةِ، وَلَكِنَّهُمْ أَحْرَارُ أَهْلِ ذِمَّةٍ^(٨).

ويوم جاء التتار لبلاد الشام وأسروا عدداً لا يستهان به من المسلمين واليهود والنصارى، ذهب لفكاكهم الإمام أحمد بن تيمية رحمه الله تعالى، ولما أراد القائد التتري أن يعطيه أسارى المسلمين فقط رفض، وقال له: (بَلْ جَمِيعُ مَنْ مَعَكَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى الَّذِينَ هُمْ أَهْلُ ذِمَّتِنَا؛ فَإِنَّا نَفْتِكُهُمْ وَلَا نَدْعُ أَسِيرًا لَا مِنْ أَهْلِ الْمِلَّةِ وَلَا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ)^(٩).

ونحن اليوم لا نحاسب على أفعال السلاطين، وإنما على مواقف العلماء، لأنها هي الترجمة الحقة لأحكام الدين ونصوصه، وإذا كان بعض النصارى ظلم من بعض الحكام، فإن كثيراً من المسلمين وأئمتهم وعلمائهم ظلموا من نفس الحكام أكثر بكثير، ولم يحدث في تاريخنا الإسلامي أن فرط علماؤنا بحقوق أهل الكتاب عامة، والمسيحيين خاصة.

وعليه فما نراه اليوم أو نسمعه لا يمكن تفسيره إلا بأنه حقد دفين على الإسلام والمسلمين، فهو غير مسوغ تاريخياً ولا أنبياً، لأننا لم نقصر يوماً في معاملة غيرنا

لَمَا تَقَدَّمَ مِنْ أَمْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ^(٥)، فَسُمُّوا جَالِيَّةً، وَلَزِمَهُمْ هَذَا الْأِسْمُ أَيَّنَ حَلُّوا، ثُمَّ لَزِمَ كُلَّ مَنْ لَزِمَتْهُ الْجَزِيَّةُ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ بِكُلِّ بَلَدٍ وَإِنْ لَمْ يُجَلُّوا عَنْ أَوْطَانِهِمْ^(٦).

فالإسلام نظر إلى هذه الجماعات منذ أول يوم على أنهم أمة مع المؤمنين، وأنهم جزء أصيل في المجتمع، لهم حقوق وعليهم واجبات، وإن كنا بحاجة لتحرير مفهوم وصف الأمة الذي أطلقه عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وكذلك الأمر مع نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة في العام التاسع للهجرة، ونزلوا المسجد النبوي الشريف، فعاهدهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكتب لهم كتاباً، ومما جاء فيه: ((ولنجران وحاشيتها، جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله على أموالهم، وأنفسهم، وملتهم، وغائبهم، وشاهدهم، وعشيرتهم، وبيعهم، وكل ما تحت أيديهم من قليل أو كثير، لا يغير أسقف من أسقفيتهم، ولا راهب من رهبانيتهم، ولا كاهن من كهانته، وليس عليهم ربيبة ولا دم جاهلية، ولا يحشرون ولا يعشرون ولا يطأ أرضهم جيش، ومن سأل منهم حقاً فبينهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين))^(٧).

فهل تعرف دساتير اليوم وضعاً خاصاً كالذي أعطاه الإسلام لهذه المجموعات التي كانت تشارك المسلمين البلاد؟

وهل ضاقت صدور المسلمين بالتعدد الذي كان يُلَوَّنُ مجتمعهم، كما ضاق صدر فرنسا بحجاب تضعه المسلمة على رأسها، وبالأمس ضاقت شوارعها على رجل يصلي في الطريق! وضاق صدر سويسرا بمآذن ترتفع في سماءها؟ أهكذا يكون التسامح وقبول الآخر؟

ويوماً إثر يوم نرى كيف أن صدور المخالفين تضيق بقبولنا، ولذلك أرى أننا نحن المعنيون أكثر من غيرنا

(٥) - لحديث ((أخرجوا المشركين من جزيرة العرب)) وروى ((أخرجوا اليهود)) وكأنها رواية بالمعنى، ولهذا الحديث تفسيرات متعددة، والمقصود - والله أعلم - ألا يكون للمشركين كيان سياسي مستقل على غرار ما كان لليهود قبل إخراجهم من جزيرة العرب، وهو من مفهوم حديث: ((لا يجتمع في جزيرة العرب دينان)) بمعنى أنه لا ينبغي أن تكون من سلطة إلا للإسلام، لأننا وجدنا أوزاعاً من يهود وغيرهم كانوا في أرجاء من الجزيرة العربية زمن الخلفاء الراشدين وبعدهم إلا أنهم كانوا أجراء ومستخدمين لا مجتمعات لها استقلاليتها، إلا إذا قلنا بقول الإمام أحمد إن جزيرة العرب المقصودة في الحديث هي المدينة المنورة وما حولها، والله أعلم.

(٦) - تاج العروس من جواهر القاموس: مادة (جلو): ٣٧ / ٣٦٨

(٧) - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة. محمد حميد الله الحيدر آبادي. ص ١٧٦

(٨) - فتوح البلدان للبلاذري ص ١٦٣ وكتاب الأموال لابن سلام ص ٢٢٠

(٩) - مجموع الفتاوى ج ٢٨ ص ٦١٨

بين أبناء الملة الواحدة، ففي العراق مثلاً يوجد عدّة أماكن تعتبر مقدّسة عند الشيعة، منها مرقد الإمامين العسكريين في سامراء، وسامراء تاريخياً مدينة سُنّية ليس للشيعة فيها وجود، بناها أمير المؤمنين المعتصم لتكون مركزاً لتجميع أجناد الدولة الذين ضجت منهم بغداد، ثم أُخذت مصيفاً للخلفاء العباسيين. وعبر تاريخ وجود هذين الضريحين كان السنة هم الذين يقومون على خدمة هذه الأضرحة، والكل يعلم أن ملكيتها تعود للأوقاف الإسلامية السنية في بغداد. فلمّ لم يتعرض أحدٌ عبر التاريخ لهذين الضريحين؟ ولمّ يفجّر هذان الضريحان في زماننا؟ لأن هناك واقعاً جديداً طرأ على المنطقة هو الاحتلال متعدد الجنسيات.

وما قلته هنا لست متفرداً به، بل وجدته عند أكثر من مرجع سياسي عند السنة والشيعة والمسيحيين على السواء، فعند الشيعة مثلاً سمعت السيد محمد حسين فضل الله يقول؛ سنة ١٩٨٣ م في بيته في بئر العبد قبل أن يوضع له ذلك الانفجار المشؤوم: «هناك دول ثلاثة في المنطقة سوف تعطيها أمريكا دوراً مستقبلياً ضمن منظومة الشرق الأوسط الجديد: إيران، وتركيا، وإسرائيل». وهذه دول قومية بامتياز، ودينية بامتياز.

وسمعت عند السنة معالي الوزير سمير الجسر، في غداء تكريمي للمكتب الدائم للحقوقيين العرب الذي انعقد عام ٢٠١١ في طرابلس يذكر ما ذكرته عن أن مشكلة المسيحيين في المنطقة سببها الاحتلال، بل وربما اقتبست من عباراته فيما أكتب، كما سمعته يعلّل بروز التطرف الديني في المنطقة بأنه لتسويق التطرف اليهودي: أنه إذا كان الإسلام لا يقبل الوجود المسيحي فلن يقبل الوجود اليهودي، مما يسوغ لليهود جعل دولتهم يهودية وطرده المسلمين منها.

وهذا هو المغزى الأساس من لعبة الأقليات في منطقتنا، وهذا يعني أن هجرة المسيحيين مطلوبة يهودياً لتسويق يهودية دولتهم.

وسمعت الأمير حارث الشهابي - وهو من أفاضل الموارنة في لبنان - يتكلم بعمق وإسهاب عن تاريخ العلاقة بين المسلمين والمسيحيين، وأن التعاليم الإسلامية لم تكن يوماً سبباً لمشكلة بين المسلمين والمسيحيين، وإنما لو حللنا كل خلاف حصل تاريخياً بينهم لوجدناه يرجع إلى عنصر خارجي.

كنائسهم ويُهَجَّرُوا من أرضهم؟ إنه الواقع الجديد الذي طرأ على العراق، إنه الاحتلال.

والأمر نفسه يقال عن الوجود المسيحي في فلسطين، فيوم تسلم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مفاتيح القدس من بطريكتها المسيحية، مَن كتب لهم العُهدَة العمرية التي اشترطوا لأنفسهم فيها ألا يسكنهم فيها يهود! ومن يومها ما أظن أن أحداً تعرض للوجود المسيحي في فلسطين، بل أكثر من ذلك؛ حتى عندما احتل الفرنجة أجزاء من العالم الإسلامي متسترين بالصليب، لم يتعرض المسلمون لمسيحيي الشرق لأنهم يعلمون أن تلك الحملات لم تكن دينية وإنما كانت سياسية وتستهدف خيرات بلاد المسلمين، بل أكثر من ذلك، فكثير من مسيحيي الشرق قاتلوا مع المسلمين ضد القادمين من الغرب باسم الصليب، فما الذي طرأ لتكون هذه الهجرة المسيحية من فلسطين؟ إنه الاحتلال اليهودي الذي يدعمه النظام الغربي بكل قوته.

ويبقى الوجود المسيحي في مصر، وقد فضحت الثورة المصرية دور النظام الذي كان قائماً بمباركة الغرب في فبكة الخلافات بين المسلمين والمسيحيين، وحادثة كنيسة القديسين خير دليل على ذلك.

ثم عندنا الوجود المسيحي في لبنان وفي سوريا، لماذا لا يتعرض لما يتعرض له سائر المسيحيين في الشرق؟ لأنه لا يوجد ذلك العنصر المفجّر وهو الاحتلال. مع العلم أن الوجود المسيحي في لبنان له امتيازات تفوق امتيازات المسلمين السُنّة في كثير من دولهم، وما قضية اتفاق الطائف والمناصفة في الحكم إلا ترجمة عملية لإقرار أرباب السياسة السنة بهذه المعادلة، لذلك استغرب الجميع تصريحات غبطة البطريرك الراعي في فرنسا والتي تخوف فيها من المدّ السني في بلاد الشام والعراق، هذا بالرغم من الوضع المتميز الذي يتمتعون به، مع العلم أنه ليس السُنّة الذين يطرحون المثالثة في لبنان!! وإنما الذين جاء بهم النظام الذي أبدى غبطته التعاطف معه حرصاً على المصلحة والمصير!

إن لبنان في هذا البحث هو مثال حي لحالة التدخل الغربي في بلادنا باسم الأقليات، بغية إثارة الفتن والنعرات في هذه المجتمعات المطمئنة بشكل مباشر أو بواسطة الأنظمة التابعة له.

ولو انتقلنا إلى الجانب الآخر من المشكلة، وهو العداء

وفي رأيي - واختصاراً للكلام - أن السبب الأساس هو ما خُطِّطَ لبلادنا باسم (الشرق الأوسط الجديد)، الذي بدأ مع سياسة التدخلات الأوروبية في السلطنة العثمانية في منتصف القرن التاسع عشر، والذي تمخّض عن دخول العنصر اليهودي على المنطقة من خلال قضية فلسطين، ومن خلال الأنظمة التي تدعم هذا الكيان والتي تسعى إلى إيجاد حالات تطرف لتسويق تطرف اليهود، كما تسعى هذه القوى إلى إيجاد حالات عداة بين المختلفين: إن في المعتقد أو في المذهب، لإضعاف ذلك المدّ المتجانس الذي يحيط باليهود في فلسطين، سواء بشقه الإسلامي أم بشقه المسيحي، وكل ذلك سعياً نحو السيطرة الكاملة على هذه المنطقة المهمة في التاريخ والجغرافيا، والتي تسمى (البلاد العربية).

وأستطيع أن أدلّل على قلبي هذا بكلمة قالها «ناحوم غولدلمان» رئيس المنظمة اليهودية العالمية في المؤتمر الذي عُقد في باريس سنة ١٩٦٨م بأنه إذا أرادت إسرائيل أن تعيش مطمئنة في فلسطين فعليهم تفسيح الشعوب من حولها، ثم أعطى تصوراً عن كيفية وصولهم إلى مبتغاهم، فذكر أن ذلك يكون عن طريق إقامة دويلة مارونية في لبنان ودويلة علوية في سوريا، ودويلة كردية في شمال العراق، وهذا يعني أنهم سيضربون على وتر: القوميات والعريقات والأثنيات، وهو الذي أطلقوا عليه اسم «حقوق الأقليات».

أليس هذا ما تعيشه منطقتنا اليوم؟

وتفنيدياً لبعض المزاعم أقول: لننظر إلى أكثر المناطق التي يُتعرّض فيها للمسيحيين، كالعراق وفلسطين ومصر مثلاً: ففي العراق نحن نعلم أن المسيحيين موجودون قبل المسلمين بدهور، وقصة نبينا صلى الله عليه وسلم مع عدّاس الغلام النصراني، الذي جاءه بقطعة العنب يوم أذته ثقيف في الطائف دليل واضح على ذلك. وكان عداس من أرض نينوى قرية نبي الله يونس بن متى عليه السلام في العراق.

ثم جاء المسلمون وبنوا الكوفة والبصرة ثم بغداد، وفي كل مراحل تاريخ العراق الإسلامي ما سمعنا أن أحداً تعرّض للوجود المسيحي، بل كل كتب التاريخ تؤكد على أن كثيراً من الشخصيات المسيحية كانت لها حظوة عند خلفاء المسلمين، فما الذي تغيّر اليوم لتفجّر

حيّة عن المطلوب، وخروجاً عن المعالجة الصحيحة للمشكلة؛ إذ لا يخفى على ذي لب أن هذه المشكلات حديثة حدوث مصطلح الأقليات، فالعقائد لم تكن يوماً هي المشكلة، وهذا باعتراف الجميع، إذ الكل يستشهد بالتاريخ على طيب العلاقة بين المسلمين والمسيحيين.

وقد سبق ذكر إقرار الإسلام لغير أتباعه على دينهم، وعلى لسان نبينا صلى الله عليه وسلم، الأمر الذي لا يدع مجالاً للتأويل.

وسواء كان المسيحيون أو غيرهم جالية أم أقلية، فإن الإسلام راعى خصوصياتهم وحفظ وجودهم فأخذوا حقوقهم في ظل حكمه وأكثر.

فإذا كان الأمر على ما ذُكر فما الذي جعل الأمور تصل إلى ما وصلت إليه؟



«سواء كان المسيحيون أو غيرهم جالية أم أقلية، فإن الإسلام راعى خصوصياتهم وحفظ وجودهم فأخذوا حقوقهم في ظل حكمه وأكثر»

هذا الذي ينبغي أن نسأله لأنفسنا ابتداءً: ما سبب هذه المشكلة؟ ذلك أن الحكم على الشيء فرع عن تصوره.

والمشكلة التي ينبغي أن نعالجها ذات شقين: الشق الأول، الهجرة المسيحية من الشرق، والشق الثاني، مظاهر العداة المتنامية بين المسلمين والمسيحيين، التي بلغت أوجها في تصريحات غبطة البطريرك الراعي في فرنسا، والتي تدل دلالة واضحة على تحالف ما بات يُعرّف بالأقليات في مواجهة الإسلام السنّي - تحديداً - ذي الانتشار الواسع، وبخاصة أنها تزامنت مع ما يروج له البعض تحت مصطلح (يقظة السنة في المنطقة).

وهذه المواقف لا تحافظ على الوجود المسيحي في لبنان بل تعرضه لخطر جديد، وبالتالي يتوجب على العقلاء دراسة الكلام جيداً قبل التصريح به، وبخاصة المرجعيات التي تحظى في المجتمع باحترام كبير.

القوافل عن مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع، وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدونها في بلادهم، وهي من الأمانة على غاية، وتجار النصارى يؤدون في بلاد المسلمين ضريبة على سلعهم، والاتفاق بينهم الاعتدال، وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية والدنيا لمن غلب) انتهى من «رحلة ابن جبير».

وبعد، فإن التسامح الديني في حضارتنا مما لا يعهد له مثيل في تاريخ العصور الماضية، وقد أجمع المؤرخون الغربيون ممن يحترمون الحق على هذا التسامح وأشادوا به.

يقول المستر «دراير» الأمريكي المشهور: (إن المسلمين الأولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيرًا من الأعمال الجسماء ورقوهم إلى مناصب الدولة، حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا بن ماسويه، ولم يكن ينظر إلى البلد الذي عاش فيه العالم، ولا إلى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر إلا إلى مكانته من العلم والمعرفة.

ويقول المؤرخ الشهير المعاصر «ولز» في صدر بحثه عن تعاليم الإسلام: (إنها أسست في العالم تقاليد عظيمة للتعامل العادل الكريم، وإنها لتنفخ في الناس روح الكرم والسماحة، كما أنها إنسانية السمة، ممكنة التنفيذ، فإنها خلقت جماعة إنسانية يَقلُّ ما فيها مما يغمر الدنيا من قسوة وظلم اجتماعي عما في أية جماعة أخرى سبقتها..) إلى أن يقول عن الإسلام: (إنه مليء بروح الرفق والسماحة والأخوة).

ويقول «رينو» في تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط: (إن المسلمين في مدن الأندلس كانوا يعاملون النصارى بالحسنى، كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير). انتهى من كتاب «من روائع حضارتنا».

إن فيما وصلت إليه في هذا البحث كفاية لكل متبصر، وأسأل الله تعالى أن يجنب بلاد المسلمين عاديات الفتن، وأن يلهم قادة العقول الإنصاف في القول والعلم، وأن يمن علينا بالأمن والأمان ورغد العيش، نحن وسائر من يساكننا في أوطاننا إنه سميع قريب مجيب.. وآخر دعوانا أن الحمد لله تعالى رب العالمين.

مختلف العلماء على اختلاف أديانهم ومذاهبهم. كانت للمأمون حلقة علمية يجتمع فيها علماء الديانات والمذاهب كلها، وكان يقول لهم: ابحثوا ما شئتم من العلم من غير أن يستدل كل واحد منكم بكتابه الديني، كيلا تثور بذلك مشاكل طائفية.

ومثل ذلك كانت الحلقات العلمية الشعبية. قال خلف بن المثني: لقد شهدنا عَشْرَةً في البصرة يجتمعون في مجلس لا يُعرف مثلهم في الدنيا علمًا ونباهة، وهم: الخليل بن أحمد صاحب النحو (وهو سني)، والجميري الشاعر (وهو شيعي)، وصالح بن عبد القدوس (وهو زنديق ثنوي)، وسفيان بن مجامع (وهو خارجي صفري)، وبشار بن برد (وهو شعوبي خليع ماجن)، وحماد عجرد (وهو زنديق شعوبي)، وابن رأس الجالوت الشاعر (وهو يهودي)، وابن نظير المتكلم (وهو نصراني)، وعمر بن المؤيد (وهو مجوسي)، وابن سنان الحراني الشاعر (وهو صابئي)، كانوا يجتمعون فيتناشدون الأشعار ويتناقلون الأخبار، ويتحدثون في جو من الود لا تكاد تعرف منهم أن بينهم هذا الاختلاف الشديد في ديانتهم ومذاهبهم!

ومن مظاهر التسامح الديني في حضارتنا الاشتراك بالأعياد الدينية بمباهجها وزينتها. فمنذ العهد الأموي كان للنصارى احتفالاتهم العامة في الشوارع تتقدمها الصُلبان ورجال الدين باللبستهم الكهنوتية. وقد دخل البطريق ميخائيل مدينة الإسكندرية في احتفال رائع وبين يديه الشموع والصُلبان والأناجيل، والكهنة يصيحون: قد أرسل الرب إلينا الراعي المأمون الذي هو مرقس الجديد. وكان ذلك في عهد هشام بن عبد الملك.

وجرت العادة أيام الرشيد بأن يخرج النصارى في موكب كبير وبين أيديهم الصليب وكان ذلك في يوم عيد الفصح. ومن الغريب أن مثل هذه المظاهر من الود ظلت حتى في الحروب الصليبية حيث كان الغرب يشن أقصى الحملات التاريخية على بلاد الإسلام باسم الصليب، وهذا هو الرحالة ابن جبير يقول لنا في رحلته: (ومن أعجب ما يحدث أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربما يلتقي الجمعان منهم ويقع المصاف بينهم، ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض. واختلاف

وتسامحنا معه، إلا أنني من باب التعريف لمن لا يعرف والتذكير لمن ينسى وإقامة الحجة على المعاند أسوق فصلاً من كتاب «من روائع حضارتنا» للدكتور مصطفى السباعي رحمه الله تعالى يبين فيه مدى التسامح الذي نعم به المسيحيون في ظل الدولة المسلمة، لعل هذا الكلام يوقظ الضمير النائم، ويفتح الأعين العمياء عن الحقائق.

يقول رحمه الله تعالى:

(ومن مظاهر التسامح الديني أن كانت الوظائف تعطى للمستحق الكفاء، بقطع النظر عن عقيدته ومذهبه، وبذلك كان الأطباء المسيحيون في العهدين الأموي والعباسي محل الرعاية لدى الخلفاء، وكان لهم الإشراف على مدارس الطب في بغداد ودمشق زمناً طويلاً، كان ابن أثال الطبيب النصراني طبيب معاوية الخاص، وكان (سرجون) كاتبه، وقد عين مروان (اتناسيوس) مع آخر اسمه إسحاق في بعض مناصب الحكومة في مصر، ثم بلغ مرتبة الرئاسة في دواوين الدولة.

ومن أشهر الأطباء الذين كانت لهم الحظوة عند الخلفاء جرجيس بن بختيشوع، وكان مقرباً من الخليفة المنصور واسع الحظوة عنده.

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيب المعتصم، ولما مات جزع عليه المعتصم جزعاً شديداً، وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة ديانته!

وكان بختيشوع بن جبرائيل طبيب المتوكل وصاحب الحظوة لديه، حتى إنه كان يضاهي الخليفة في اللباس وحسن الحال، وكثرة المال وكمال المروءة.

وكذلك كانت الحظوة للشعراء والأدباء لدى الخلفاء والأمراء، بقطع النظر عن أديانهم ومذاهبهم. وكلنا يعلم مكانة الأخطل في العهد الأموي.

وكان الأفراد كالخلفاء يصادقون من تروق لهم مصادقتهم بقطع النظر عن دينهم. كان إبراهيم بن هلال (الصابي) أي من الصائبة - وهم قوم من المجوس لهم ديانة خاصة بهم - قد بلغ أرفع مناصب الدولة، وتقلد الأعمال الجليلة في تقدمه الشعراء، وكانت بينه وبين زعماء الأدب والعلم من المسلمين صلات حسنة وصدقات وشيعة، حتى إنه لما مات رثاه الشريف الرضي شيخ الهاشميين العلويين ونقيبهم بقصائد خالدة.

وكانت الحلقات العلمية في حضرة الخلفاء تجمع بين

هذا كله قليل وأكثر، إلا أن المشكلة الحقيقية تكمن في أن مجموعات من المسلمين والمسيحيين على اختلاف مذاهبهم التقت مصالحها مع مصالح منظومة الشرق الأوسط الجديد الذي يقوم على أساس عرقي ومذهبي، فاستغلوا العاطفة الدينية عند الرعا، ودَعَمَهُم في هذا إعلام ديني وسياسي ضخّم رُوجَ لأفكارهم ترويجاً سلبياً، بمعنى ركّز على حالات العداء المفتعلة، وظل يبرزها ويطمس غيرها حتى ولّد ذلك ردات فعل عند سائر المسيحيين وجدنا آثارها في مجزرة أوصلو الشهيرة عام ٢٠١١م^(١١). ونجد آثارها كلما حصل خلاف بين السنة والشيعة مهما كان بسيطاً.

والواقع أن المسؤول عن هذا الشحن ليس السنة، بدليل ما يبذونه دائماً من مرونة مع غيرهم في مختلف مناطق وجودهم، وإنما الذين قبلوا لعبة الأقليات وصدّقوا أن الإسلام قد اضطهدهم منذ أن حكمهم، وهذا الكلام لا أقوله هباءً وإنما استناداً إلى المعطيات على الأرض وتصريحاتهم هم.

بعيد مجزرة باب التبانة في طرابلس سنة ١٩٨٦م التي ذهب ضحيتها أكثر من خمسمئة شخص، بين طفل وامرأة ورجل، على يد العلويين المحميين من النظام السوري، ما زلت أذكر أحد ضباط المخابرات السورية من العلويين الكبار في أعقاب نقاش حام بيني وبينه قال لي: (أنتم حكمتونا ١٤٠٠ سنة، والآن جاء دورنا لنحكمكم ١٤٠٠ سنة)، وبالتالي فإن الذين ارتضوا لعبة الأقليات يطالبون السنة اليوم بتسديد فواتير الدولة الإسلامية تجاههم على مدى أربعة عشر قرناً.

ولو استرسلنا في الكلام لما انتهينا من ذكر الوقائع، ولكنها نماذج تضعنا أمام الأسباب الحقيقية للمشكلة، وبالتالي فمواجهتها تكون بإزالة أسباب الأزمات والرجوع بالمنطقة إلى زمن التآلف والتواد وحسن الجوار، يوم لم يكن هناك كيان صهيوني في فلسطين وسوريا ولبنان ولا احتلال أمريكي للعراق، ولا استغلال للدين من قبل تجار السياسة، كما لم يكن يومها ما يُعرّف بـ «الأقليات» التي باتت حجة كل تقسيم وسبب كل صراع.

نماذج من التسامح السني مع غير المسلمين

مع أنني لست بحاجة للتدليل على احتضاننا لغيرنا في دولتنا

(١١) - أقصد بذلك المجزرة التي ارتكبتها اليمنية المتطرف « اندرس بهرنج » في شهر تموز من عام ٢٠١١م في أوصلو، والتي ذهب ضحيتها (٩١) شاباً وشابة كانوا في مخيم أقامه القطاع الشبابي في حزب العمال الحاكم والذي ضم مجموعة من العرب والمسلمين، وقد أشارت التحقيقات إلى أن المجرم كان مدفوعاً بعذائه للإسلام.

وبالداية عند أبي عمران الذي كان يعمل بالدعوة إلى الله في مدينة فاس، غير أن التحولات الخطيرة التي شهدتها مدينة فاس بعد سقوط الأمويين في الأندلس واستيلاء بني حمود عليها دفعته إلى الارتحال إلى القيروان والاستقرار فيها عام ٤٢٧هـ-١٠٣٥م والتفرغ للتدريس، كانت مدينة القيروان في تلك الفترة قد استعادت عافيتها ونالت حريتها بعد صراع طويل مع الشيعة الإسماعيلية، وعادت المدرسة المالكية لتتصدر حركة التعليم الإسلامي السني بعد انتصارها على المدرسة الشيعية^(٧).

التقى أبو عمران مع أمير جدالة وهو عائد من الحج، فشكى إليه الأمير حال قومه والجهل الذي يعم فيهم والفرق بينهم وبين من رآهم في الحج في تنظيمهم وعبادتهم، وقال له: (إننا في الصحراء منقطعون لا يصل إلينا إلا بعض التجار الجهال، حرفتهم البيع والشراء، وفيما أقوام يحرصون على تعليم القرآن وطلب العلم ويرغبون في الفقه والدين لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً^(٨))، طلب الأمير من الفاسي أن يرسل معه داعية من تلاميذه ليعلم قومه أمور دينهم، فأرسله أبو عمران إلى تلميذه وجاج، وهناك التقى الأمير يحيى بالشيخ وجاج، فأطلعته على حال قومه وسلّمه رسالة شيخه أبي عمران^(٩).

وهنا كان الاختبار الصعب العصيب لتلاميذ الشيخ، فمن ذا الذي يرضى أن يذهب إلى أعماق الصحراء المغربية حيث أقوام لا يعلمون عن سلوكهم وطباعهم شيئاً؟ فأنبرى عبد الله بن ياسين ليجيب نداء شيخه ويعرض نفسه لهذه المهمة.

عبد الله بن ياسين:

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن علي الجزولي، أصله من قرية تامانوات في طرف صحراء غانة، ويُنسب إلى قبيلة جزولة إحدى القبائل الكبرى، ومن هذه القبائل جدالة ومسوقة ولمتونة التي قامت بدور كبير في عهد المرابطين في المغرب والأندلس، وكانت جزولة هذه تشغل المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادي نول القريبة من المحيط الأطلسي.

درس على يد فقيه السوس وجاج بن زلو، ثم رحل إلى

العلم، فنزل القيروان وتلمذ على أبي زيد القيرواني ثم على أبي عمران الفاسي، ثم ارتحل إلى الأندلس وأمضى فيها بضع سنين، ثم عاد إلى المغرب ليستقر في مدينة سوس ويتفرغ للدعوة والتدريس^(٥)، ثم أقام في منطقة أكلو أو أجلو رباطاً علمياً تجاوز إشعاعه العلمي حدود المغرب، فذاع صيته وقصده طلبة العلم من الآفاق.

يُعرف هذا الرباط اليوم بالمدرسة العتيقة أو مدرسة أكلو، وما زالت إلى يومنا هذا قائمة بهيكلها ونظامها القديم، وتقع في ضواحي تزميت فوق ربوة جبلية محاذية لجبال الأطلس الصغير على حافة الوادي قريباً من شاطئ أكلو، وهي تتكون اليوم من ثلاثة طوابق ومطبخ ومساكن للطلبة تستوعب نحو مئة شخص، ومكاتب ومجالس للفقهاء وقاعة للضيوف ومرافق صحية وقاعات للتدريس وخزانة كتب، وقد أسست لتكون مدرسة للعلوم الشرعية والقراءات، ذكر المختار السوسي أنها أول مدرسة بنيت في المغرب أوائل القرن الخامس الهجري إلا أنه لم يجزم بهذا^(٦)، وهو مصيب بقوله؛ ذلك أن مهمة التعليم في بلاد المغرب لم تكن محصورة في المدارس، وليست المدارس هي أول ما وجد من مراكز التعليم هناك بل إن كل مسجد وزاوية كان بمنزلة مدرسة، ومن أرخوا لتاريخ المغرب لم يعتنوا كثيراً بالتفريق بين هذه الأماكن كما هو الحال مع مؤرخي الشرق الإسلامي.

يعد وجاج الأب الروحي لدولة المرابطين، خاصة أنه يُعد واحداً من أبرز العلماء الذين رسخوا فقه الإمام مالك في المغرب، وأصلوا في نفوس الناس علم السنة ومفاهيم التصوف والورع والزهد وحثهم على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فكان أن نشأ تلاميذه على القيم السامية، ومن هؤلاء التلاميذ عبد الله بن ياسين الذي كان نسخة عن شيخه وجاج، وقصة الاثنين وعلاقتهما بالدولة المرابطية تعود بنا إلى أبي عمران الفاسي الذي يعد من أعلام المدرسة المالكية في المغرب في القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجري، ومن الذين أسهموا في تحقيق الوحدة السياسية والدينية لبلاد المغرب والأندلس أواخر القرن الخامس الهجري، ومن أراد الخوض في تاريخ دولة المرابطين لا يسعه إلا أن يذكر هؤلاء الثلاثة ومعهم ثلاثة من أركان دولة المرابطين: يحيى بن إبراهيم وأبو بكر بن عمر ويوسف بن تاشفين.

(٧) علي الصلاحي: فقه التمكن عند دولة المرابطين، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط ١، ١٤٢٧هـ، ص (١٥).

(٨) ابن خلدون: العبر، ت: خليل شحادة، دار الفكر، بيروت، ط ٢، ١٩٨٨م، (٢٤٣/٦).

(٩) ابن خلدون: العبر، (٢٤٣/٦).

(٥) السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء (٧/٢).

(٦) المختار السوسي: سوس العالمية، مؤسسة بن شرق، الدار البيضاء، ط ٢، ١٤٠٤هـ، ص (١٧).



فُقَهَاءُ التَّمَكِّينِ وَمَنْهَجُ بِنَاءِ الدَّوْلَةِ

دَوْلَةُ الْمُرَابِطِينَ أَنْمُودَجًا

الدكتور أيمن يزبك
دكتوراه في التاريخ الإسلامي
ومحاضر في جامعة دمشق سابقًا

في بلاد المغرب فحسب؛ لكي تبقى علوم الشرع مستمرة في حياة الأمة ينقلها جيل عن جيل، هذا ما كرّس له علماء الغرب الإسلامي حياتهم وقدموا لأجله التضحيات؛ فقد آمنوا بأهمية التعليم وعده من مراتب العبادة السامية ودوره في تحقيق أمن المسلمين وحماية عقيدتهم.

وقد توارث العلماء أساليب التربية وطرق التعليم، ووضعوا في ذلك التأليف والتصنيف، من هؤلاء ابن سحنون^(٢) الذي اعتمد على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في استخراج الأساليب التربوية، ثم إن جهوده وجهود أمثاله كأبي الحسن القابسي^(٣) -الذي عُدد هو وابن سحنون من المنظرين في ميدان التربية الإسلامية- أسفرت عن مثل وجاج بن زلو^(٤).

عرف وجاج بن زلو بهذا الاسم الذي يعني باللغة البربرية العالم الكبير في قومه، وكانت نشأته في منطقة إداو سملال من نواحي مدينة سوس التي تقع جنوب مراكش، أخذ عن علمائها، ثم تنقل بين مدن المغرب وإفريقية يطلب

لم تكن الحركة العلمية الثقافية التي شهدتها بلاد المغرب في القرن الخامس الهجري -الحادي عشر الميلادي- محصورة في المساجد، بل إن الرُّبُط والثغور والقلاع والحصون كانت مراكز إشعاع علمي أيضا، فيها تعقد حلقات العلم وتدرس علوم الشريعة من توحيد وفقه وحديث وتفسير ولغة وما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة؛ لذلك كان ابن جبير يمدح أهل المغرب بقوله: (إنه لا إسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة، وما سوى ذلك بهذه الجهات الشرقية فأهواء وبدع وفرق أو شيع إلا من عصم الله عز وجل من أهلها)^(١).

وكان القائمون على هذه الأماكن من الفقهاء والعلماء مالكيّة، يعتمدون في منهجهم التعليمي التعليم العام أو الشعبي، والمقصود به الاتصال والتواصل مع عامة الناس، وتعليمهم أمور دينهم وأسس عقيدتهم وفقه المعاملات حتى يصبحوا على الجادة والسبيل القويم، وقد كان مالكية المغرب في الحرب قادة رباط وجهاد، وفي السلم شغل علم وإرشاد لا شغل لهم إلا العلم والدعوة، غايتهم إنشاء جيل واع بقضايا الأمة في الأندلس وبلاد الشرق كلّها وكل بقعة من الأرض أقام عليها المسلمون لا

(١) ابن جبير: الرحلة، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣م، ص (٥٥).

(٢) محمد بن عبد السلام التنوخي فقيه المالكية في المغرب صاحب المدونة في فقه الإمام مالك وكتاب آداب المعلمين. الذهبي: سير أعلام النبلاء، ت: شعيب الأرنؤوط ومحمد نعيم عرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، (٦٠/١٣).

(٣) علي بن محمّد بن خلف أبو الحسن القابسي المتعافري القيرواني الفقيه المالكي. نايف منصور: الزّوض الباسم في تراجم شيوخ الحاكم، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٣٢هـ، (٧٣٩/١).

(٤) وجاج بن زلو أبو عبد الله محمد بن زلو بن أبي جمعة بن محمد بن أبي القاسم بن يعقوب بن أحمد بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الفضيل بن يحيى بن إدريس الأزهر [بن إدريس الأكبر] بن عبد الكامل بن الحسن السبط ابن الحسن المثنى ابن علي بن أبي طالب وفاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وأخذ يشتري السلاح والخيول المعدة لخوض المعارك والجمال المجهزة لحمل الجيوش الملقى على عاتقها حماية الدعوة وتطبيق الشريعة الإسلامية في البلاد التي تحت يدها.

استطاع ابن ياسين أن يقيم مدرسته المرابطية على هذه الأصول والمعاني الدينية التي تسمو بالفكر والنفس معاً، وقد أمّ هذه المدرسة أعداد كبيرة من الطلبة ليتلمذوا على يد علمائها، ثم انطلقوا بعد انتهاء دراستهم إلى المدن والأرياف وأعماق الصحراء لينشروا علوم الشريعة التي تلقوها في هذه المدرسة، وأمضى ابن ياسين في هذه المدرسة عقدين من عمره، يُعدّ جيل القادة الذين لعبوا دوراً كبيراً في جملة المتغيرات السياسية والفكرية والاجتماعية التي عمّت أرجاء الغرب الإسلامي، ومن أبرز هؤلاء القادة أبو بكر بن عمر اللمتوني وابن عمه يوسف بن تاشفين.

أبو بكر بن عمر اللمتوني:

هو من قبيلة لمتونة إحدى القبائل العربية التي تنحدر من حمير اليمنية، هاجرت إلى المغرب أيام الخليفة أبي بكر الصديق، وتُعرف اليوم بالطوارق^(٢١)، وكان أبو بكر من بيت عرف الإمارة، فأخوه يحيى كان أميراً على لمتون، وتبنى دعوة الشيخ ابن ياسين، أقبل عليه في رباطه

طرّد من لا يراه مناسباً لهدفه المنشود، وكان شيخه وجاج على اتصال دائم معه للتشاور والتباحث فيما يستجد، فينصحه ويوجهه ويمده بالعلم اللازم، وقد أسّس الداعية الرباني ابن ياسين رباط السنغال، فكان منارة يشع نورها في تلك الصحاري القاحلة، فأصبح مركزاً علمياً مهماً، جذب أبناء قبائل صنهاجة إليه، ووفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة، فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يعرّض لها أحد بسوء، وقد أدّى ذلك إلى ازدهار التجارة، وتميّز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله؛ فساعد على قوة النواة الأولى لدولة المرابطين، وتشكل مجلس الشورى، وجماعة للحل والعقد تطورت بمرور الأيام وأصبحت مرجعية علياً للمُلتَمِّين^(٢٠).

أصول المنهج التربوي والعلمي عند ابن ياسين:

يُعد الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب استمد أصوله من أصول المالكية التي كانت ولا زالت ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي، إلا أن لابن ياسين اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملت عليها عليه طبيعة دعوته التي عاشها، ويمكن القول بأنه فقيه مجدد صاحب حركة دعوية، وبأنّ الأصول التي أسس عليها حركة المرابطين هي ذاتها الأصول التي أقام عليها الإمام مالك مذهب الفقه: القرآن والسنة وعمل أهل المدينة وأقوال الصحابة والمصالح المرسلة والقياس وسد الذرائع.

ولمّا رَسَخ ابن ياسين مبادئ الدعوة الإسلامية وقيمها السامية في نفوس أتباعه التفت إلى الجانب الاقتصادي، فأمرهم بإيتاء الزكاة وأداء العشر، واتخذ لذلك بيت مال يجمع فيه ما يُرفع إليه من ذلك، ومن أموال الزكاة والأعشار والخمس كان ابن ياسين ينفق على طلبة العلم في بلاد المصامدة خاصة مدرسته أكلو التي نشأ فيها، وحيثما وجد مركز علمي أرسل له ابن

ياسين الدعم المالي، ثم انتقل ابن ياسين إلى المرحلة الثالثة مرحلة الجهاد، فبدأ يركز على الجانب العسكري،

(٢٠) علي الصلابي: فقه التمكن، ص (٤٣).



القبة المرابطية - أحد معالم المرابطين المعمارية في مدينة مراكش

(٢١) يتكرر أن أسلاف هذه القبيلة وغيرها خرجوا من اليمن في الجيش الذي جهزه الصديق إلى الشام، ثم انتقلوا إلى مصر، ثم توجهوا إلى المغرب مع موسى بن نصير، ثم توجهوا مع طارق إلى طنجة، فأحبوا الانفراد فدخلوا الصحراء، وهم لمتونة وجدالة ولمطة وإينيسر وإينوازي ومسوفة وأفخاذ عذّة. الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط ١، ٢٠٠٣م، (١٧٠/١٠).

الرواة على أنه (كان من الفقهاء الناهيين الحذاق، شهماً قوي النفس ذا رأي وخير وتديبر)^(١٦)، وقد بدأ دعوته في شرح الإسلام للناس وشرح عقائده وبيان فضل الإسلام، واستجاب الناس لدعوة عبد الله بن ياسين إلا أنهم سرعان ما أجهضوها، قالوا: أما الصلاة والزكاة فقريب، وأما قولك «من قتل يقتل، ومن سرق يقطع، ومن زنا يجلد» فلا نلتزمه، فذهب إلى غيرنا؛ فعمَّهم الجهل، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة، وتلوث أخلاقهم، هذا فضلاً عن اصطدام توجيهه بمصالح أمراء القوم وكبرائهم؛ فثاروا عليه وكادوا يقتلونه إلا أنه ترك قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة يدعو فيها ويؤسس له فيها أنصاراً لدعوته^(١٧).

رباط عبد الله بن ياسين:

أقام ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها، فهو يقع قريباً من مملكة غانة الوثنية؛ لذلك هو مُهدَّد دائماً بالأعداء، ولا بُدَّ للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار المُلَّثَمِينَ، ومن ثم يمكن الاستناد إليهم في حالات الخطر^(١٨)، كما أن تلك الديار تشكّل مورداً بشرياً لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله، وقد عمل جاهداً على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مُجْتَمَعِهِ الجديد، ولم تكن إقامة الشرع في أبناء تلك القبائل بالأمر السهل، فكانوا مرات عدة يخرجون عن حدود الشرع وابن ياسين يقوّمهم ما استطاع، لقد عاشوا حياة أشبه ما تكون بالجاهلية قبل أن يقدم إليهم ابن ياسين ويعمل على دعوتهم وإصلاح شؤونهم، وقد حدث أن وجاج عاتب ابن ياسين لما بلغه أن جماعة المرابطين قد أكثروا القتل والنهب في بعض المواضع، فأجاب يعتذر بأن هؤلاء كانوا في جاهليّة، يَزْنُون ويُغَيِّر بعضهم على بعض، وَمَا تَجَاوَزْتُ الشَّرْعَ فِيهِمْ^(١٩).

كان ابن ياسين يهتم اهتماماً بالغاً بأهل العلم والمعرفة، ويرفعهم إلى مراتب عالية؛ فالتف حول مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعده على تربية الناس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة، ولم يكن الحياء يمنعه من

الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام فيها سبع سنين، وكانت الأندلس يومئذٍ تحت محنة حكام الطوائف الذين قسموا البلاد فيما بينهم، كان ذلك في بداية القرن الخامس الهجري، فرأى ما آل إليه الحكم في هذه البلاد وطغيان هؤلاء الذين اغتصبوا الحكم وما فعله بعضهم ببعض، وكيف لحق بالحكام الشعراء والفقهاء والعلماء من ضعفاء الإيمان، فأباحوا لهم المنكر وحلّلوا لهم الحرام^(٢٠).

اجتهد ابن ياسين في ظل هذا الواقع المرير في طلب العلم من فقهاء الأندلس، وابتعد عن المشاركة في الحياة السياسية، ثم عاد إلى المغرب ليصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلو، فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلو أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهاً عالماً ديناً تقياً مريباً فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي الذي قدم نفسه لهذه المهمة، وكان عالماً بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم، ولما دخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومساكن المُلَّثَمِينَ من قبيلة جدالة عام ٤٣٠هـ - ١٠٣٨م^(٢١) استقبله أهلها، واستمعوا له فأخذ يعلمهم، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، أما الإرشاد الديني للعامة فكان بلهجة أهل الصحراء البربرية^(٢٢)، يقول القاضي عياض: (وجّه الشيخ أكاد عبد الله بن ياسين مع جوهر بن سكن، وكان موصوفاً بعلم وخير، فسار معه وفهم له سيره ولقومه، وأخذ من الشدة في ذات الله تعالى وتغيير المناكير وانعزام صاحبه من لم يقبل الهدى، ولم يزل يستقر تلك القبائل حتى علا عليهم وأظهروا الإيمان هنالك)^(٢٣).

يصفه ابن أبي زرع بأنه من الأذكياء النبهاء النبلاء، ومن أهل الدين والفضل والتقوى والورع والفقه والأدب والسياسة، مشارك في العلوم^(٢٤)، فابن ياسين لم يكن فقيهاً فقط بل كان عالماً محدثاً مفسراً^(٢٥) كما أجمع

(١٠) إبراهيم الجمل: شخصية عبد الله بن ياسين، مقال منشور في مجلة الجامعة الإسلامية، عدد ١٦، ص (٣٩١).

(١١) أبو النشاء الصفاقسي: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، ت: علي الزواوي ومحمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٤٠٨، ١٤٠٩، ١٤١٠، ١٤١١، ١٤١٢، ١٤١٣، ١٤١٤، ١٤١٥، ١٤١٦، ١٤١٧، ١٤١٨، ١٤١٩، ١٤٢٠، ١٤٢١، ١٤٢٢، ١٤٢٣، ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦، ١٤٢٧، ١٤٢٨، ١٤٢٩، ١٤٣٠، ١٤٣١، ١٤٣٢، ١٤٣٣، ١٤٣٤، ١٤٣٥، ١٤٣٦، ١٤٣٧، ١٤٣٨، ١٤٣٩، ١٤٤٠، ١٤٤١، ١٤٤٢، ١٤٤٣، ١٤٤٤، ١٤٤٥، ١٤٤٦، ١٤٤٧، ١٤٤٨، ١٤٤٩، ١٤٥٠، ١٤٥١، ١٤٥٢، ١٤٥٣، ١٤٥٤، ١٤٥٥، ١٤٥٦، ١٤٥٧، ١٤٥٨، ١٤٥٩، ١٤٦٠، ١٤٦١، ١٤٦٢، ١٤٦٣، ١٤٦٤، ١٤٦٥، ١٤٦٦، ١٤٦٧، ١٤٦٨، ١٤٦٩، ١٤٧٠، ١٤٧١، ١٤٧٢، ١٤٧٣، ١٤٧٤، ١٤٧٥، ١٤٧٦، ١٤٧٧، ١٤٧٨، ١٤٧٩، ١٤٨٠، ١٤٨١، ١٤٨٢، ١٤٨٣، ١٤٨٤، ١٤٨٥، ١٤٨٦، ١٤٨٧، ١٤٨٨، ١٤٨٩، ١٤٩٠، ١٤٩١، ١٤٩٢، ١٤٩٣، ١٤٩٤، ١٤٩٥، ١٤٩٦، ١٤٩٧، ١٤٩٨، ١٤٩٩، ١٥٠٠، ١٥٠١، ١٥٠٢، ١٥٠٣، ١٥٠٤، ١٥٠٥، ١٥٠٦، ١٥٠٧، ١٥٠٨، ١٥٠٩، ١٥١٠، ١٥١١، ١٥١٢، ١٥١٣، ١٥١٤، ١٥١٥، ١٥١٦، ١٥١٧، ١٥١٨، ١٥١٩، ١٥٢٠، ١٥٢١، ١٥٢٢، ١٥٢٣، ١٥٢٤، ١٥٢٥، ١٥٢٦، ١٥٢٧، ١٥٢٨، ١٥٢٩، ١٥٣٠، ١٥٣١، ١٥٣٢، ١٥٣٣، ١٥٣٤، ١٥٣٥، ١٥٣٦، ١٥٣٧، ١٥٣٨، ١٥٣٩، ١٥٤٠، ١٥٤١، ١٥٤٢، ١٥٤٣، ١٥٤٤، ١٥٤٥، ١٥٤٦، ١٥٤٧، ١٥٤٨، ١٥٤٩، ١٥٥٠، ١٥٥١، ١٥٥٢، ١٥٥٣، ١٥٥٤، ١٥٥٥، ١٥٥٦، ١٥٥٧، ١٥٥٨، ١٥٥٩، ١٥٦٠، ١٥٦١، ١٥٦٢، ١٥٦٣، ١٥٦٤، ١٥٦٥، ١٥٦٦، ١٥٦٧، ١٥٦٨، ١٥٦٩، ١٥٧٠، ١٥٧١، ١٥٧٢، ١٥٧٣، ١٥٧٤، ١٥٧٥، ١٥٧٦، ١٥٧٧، ١٥٧٨، ١٥٧٩، ١٥٨٠، ١٥٨١، ١٥٨٢، ١٥٨٣، ١٥٨٤، ١٥٨٥، ١٥٨٦، ١٥٨٧، ١٥٨٨، ١٥٨٩، ١٥٩٠، ١٥٩١، ١٥٩٢، ١٥٩٣، ١٥٩٤، ١٥٩٥، ١٥٩٦، ١٥٩٧، ١٥٩٨، ١٥٩٩، ١٦٠٠، ١٦٠١، ١٦٠٢، ١٦٠٣، ١٦٠٤، ١٦٠٥، ١٦٠٦، ١٦٠٧، ١٦٠٨، ١٦٠٩، ١٦١٠، ١٦١١، ١٦١٢، ١٦١٣، ١٦١٤، ١٦١٥، ١٦١٦، ١٦١٧، ١٦١٨، ١٦١٩، ١٦٢٠، ١٦٢١، ١٦٢٢، ١٦٢٣، ١٦٢٤، ١٦٢٥، ١٦٢٦، ١٦٢٧، ١٦٢٨، ١٦٢٩، ١٦٣٠، ١٦٣١، ١٦٣٢، ١٦٣٣، ١٦٣٤، ١٦٣٥، ١٦٣٦، ١٦٣٧، ١٦٣٨، ١٦٣٩، ١٦٤٠، ١٦٤١، ١٦٤٢، ١٦٤٣، ١٦٤٤، ١٦٤٥، ١٦٤٦، ١٦٤٧، ١٦٤٨، ١٦٤٩، ١٦٥٠، ١٦٥١، ١٦٥٢، ١٦٥٣، ١٦٥٤، ١٦٥٥، ١٦٥٦، ١٦٥٧، ١٦٥٨، ١٦٥٩، ١٦٦٠، ١٦٦١، ١٦٦٢، ١٦٦٣، ١٦٦٤، ١٦٦٥، ١٦٦٦، ١٦٦٧، ١٦٦٨، ١٦٦٩، ١٦٧٠، ١٦٧١، ١٦٧٢، ١٦٧٣، ١٦٧٤، ١٦٧٥، ١٦٧٦، ١٦٧٧، ١٦٧٨، ١٦٧٩، ١٦٨٠، ١٦٨١، ١٦٨٢، ١٦٨٣، ١٦٨٤، ١٦٨٥، ١٦٨٦، ١٦٨٧، ١٦٨٨، ١٦٨٩، ١٦٩٠، ١٦٩١، ١٦٩٢، ١٦٩٣، ١٦٩٤، ١٦٩٥، ١٦٩٦، ١٦٩٧، ١٦٩٨، ١٦٩٩، ١٧٠٠، ١٧٠١، ١٧٠٢، ١٧٠٣، ١٧٠٤، ١٧٠٥، ١٧٠٦، ١٧٠٧، ١٧٠٨، ١٧٠٩، ١٧١٠، ١٧١١، ١٧١٢، ١٧١٣، ١٧١٤، ١٧١٥، ١٧١٦، ١٧١٧، ١٧١٨، ١٧١٩، ١٧٢٠، ١٧٢١، ١٧٢٢، ١٧٢٣، ١٧٢٤، ١٧٢٥، ١٧٢٦، ١٧٢٧، ١٧٢٨، ١٧٢٩، ١٧٣٠، ١٧٣١، ١٧٣٢، ١٧٣٣، ١٧٣٤، ١٧٣٥، ١٧٣٦، ١٧٣٧، ١٧٣٨، ١٧٣٩، ١٧٤٠، ١٧٤١، ١٧٤٢، ١٧٤٣، ١٧٤٤، ١٧٤٥، ١٧٤٦، ١٧٤٧، ١٧٤٨، ١٧٤٩، ١٧٥٠، ١٧٥١، ١٧٥٢، ١٧٥٣، ١٧٥٤، ١٧٥٥، ١٧٥٦، ١٧٥٧، ١٧٥٨، ١٧٥٩، ١٧٦٠، ١٧٦١، ١٧٦٢، ١٧٦٣، ١٧٦٤، ١٧٦٥، ١٧٦٦، ١٧٦٧، ١٧٦٨، ١٧٦٩، ١٧٧٠، ١٧٧١، ١٧٧٢، ١٧٧٣، ١٧٧٤، ١٧٧٥، ١٧٧٦، ١٧٧٧، ١٧٧٨، ١٧٧٩، ١٧٨٠، ١٧٨١، ١٧٨٢، ١٧٨٣، ١٧٨٤، ١٧٨٥، ١٧٨٦، ١٧٨٧، ١٧٨٨، ١٧٨٩، ١٧٩٠، ١٧٩١، ١٧٩٢، ١٧٩٣، ١٧٩٤، ١٧٩٥، ١٧٩٦، ١٧٩٧، ١٧٩٨، ١٧٩٩، ١٨٠٠، ١٨٠١، ١٨٠٢، ١٨٠٣، ١٨٠٤، ١٨٠٥، ١٨٠٦، ١٨٠٧، ١٨٠٨، ١٨٠٩، ١٨١٠، ١٨١١، ١٨١٢، ١٨١٣، ١٨١٤، ١٨١٥، ١٨١٦، ١٨١٧، ١٨١٨، ١٨١٩، ١٨٢٠، ١٨٢١، ١٨٢٢، ١٨٢٣، ١٨٢٤، ١٨٢٥، ١٨٢٦، ١٨٢٧، ١٨٢٨، ١٨٢٩، ١٨٣٠، ١٨٣١، ١٨٣٢، ١٨٣٣، ١٨٣٤، ١٨٣٥، ١٨٣٦، ١٨٣٧، ١٨٣٨، ١٨٣٩، ١٨٤٠، ١٨٤١، ١٨٤٢، ١٨٤٣، ١٨٤٤، ١٨٤٥، ١٨٤٦، ١٨٤٧، ١٨٤٨، ١٨٤٩، ١٨٥٠، ١٨٥١، ١٨٥٢، ١٨٥٣، ١٨٥٤، ١٨٥٥، ١٨٥٦، ١٨٥٧، ١٨٥٨، ١٨٥٩، ١٨٦٠، ١٨٦١، ١٨٦٢، ١٨٦٣، ١٨٦٤، ١٨٦٥، ١٨٦٦، ١٨٦٧، ١٨٦٨، ١٨٦٩، ١٨٧٠، ١٨٧١، ١٨٧٢، ١٨٧٣، ١٨٧٤، ١٨٧٥، ١٨٧٦، ١٨٧٧، ١٨٧٨، ١٨٧٩، ١٨٨٠، ١٨٨١، ١٨٨٢، ١٨٨٣، ١٨٨٤، ١٨٨٥، ١٨٨٦، ١٨٨٧، ١٨٨٨، ١٨٨٩، ١٨٩٠، ١٨٩١، ١٨٩٢، ١٨٩٣، ١٨٩٤، ١٨٩٥، ١٨٩٦، ١٨٩٧، ١٨٩٨، ١٨٩٩، ١٩٠٠، ١٩٠١، ١٩٠٢، ١٩٠٣، ١٩٠٤، ١٩٠٥، ١٩٠٦، ١٩٠٧، ١٩٠٨، ١٩٠٩، ١٩١٠، ١٩١١، ١٩١٢، ١٩١٣، ١٩١٤، ١٩١٥، ١٩١٦، ١٩١٧، ١٩١٨، ١٩١٩، ١٩٢٠، ١٩٢١، ١٩٢٢، ١٩٢٣، ١٩٢٤، ١٩٢٥، ١٩٢٦، ١٩٢٧، ١٩٢٨، ١٩٢٩، ١٩٣٠، ١٩٣١، ١٩٣٢، ١٩٣٣، ١٩٣٤، ١٩٣٥، ١٩٣٦، ١٩٣٧، ١٩٣٨، ١٩٣٩، ١٩٤٠، ١٩٤١، ١٩٤٢، ١٩٤٣، ١٩٤٤، ١٩٤٥، ١٩٤٦، ١٩٤٧، ١٩٤٨، ١٩٤٩، ١٩٥٠، ١٩٥١، ١٩٥٢، ١٩٥٣، ١٩٥٤، ١٩٥٥، ١٩٥٦، ١٩٥٧، ١٩٥٨، ١٩٥٩، ١٩٦٠، ١٩٦١، ١٩٦٢، ١٩٦٣، ١٩٦٤، ١٩٦٥، ١٩٦٦، ١٩٦٧، ١٩٦٨، ١٩٦٩، ١٩٧٠، ١٩٧١، ١٩٧٢، ١٩٧٣، ١٩٧٤، ١٩٧٥، ١٩٧٦، ١٩٧٧، ١٩٧٨، ١٩٧٩، ١٩٨٠، ١٩٨١، ١٩٨٢، ١٩٨٣، ١٩٨٤، ١٩٨٥، ١٩٨٦، ١٩٨٧، ١٩٨٨، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ١٩٩١، ١٩٩٢، ١٩٩٣، ١٩٩٤، ١٩٩٥، ١٩٩٦، ١٩٩٧، ١٩٩٨، ١٩٩٩، ٢٠٠٠، ٢٠٠١، ٢٠٠٢، ٢٠٠٣، ٢٠٠٤، ٢٠٠٥، ٢٠٠٦، ٢٠٠٧، ٢٠٠٨، ٢٠٠٩، ٢٠١٠، ٢٠١١، ٢٠١٢، ٢٠١٣، ٢٠١٤، ٢٠١٥، ٢٠١٦، ٢٠١٧، ٢٠١٨، ٢٠١٩، ٢٠٢٠، ٢٠٢١، ٢٠٢٢، ٢٠٢٣، ٢٠٢٤، ٢٠٢٥، ٢٠٢٦، ٢٠٢٧، ٢٠٢٨، ٢٠٢٩، ٢٠٣٠، ٢٠٣١، ٢٠٣٢، ٢٠٣٣، ٢٠٣٤، ٢٠٣٥، ٢٠٣٦، ٢٠٣٧، ٢٠٣٨، ٢٠٣٩، ٢٠٤٠، ٢٠٤١، ٢٠٤٢، ٢٠٤٣، ٢٠٤٤، ٢٠٤٥، ٢٠٤٦، ٢٠٤٧، ٢٠٤٨، ٢٠٤٩، ٢٠٥٠، ٢٠٥١، ٢٠٥٢، ٢٠٥٣، ٢٠٥٤، ٢٠٥٥، ٢٠٥٦، ٢٠٥٧، ٢٠٥٨، ٢٠٥٩، ٢٠٦٠، ٢٠٦١، ٢٠٦٢، ٢٠٦٣، ٢٠٦٤، ٢٠٦٥، ٢٠٦٦، ٢٠٦٧، ٢٠٦٨، ٢٠٦٩، ٢٠٧٠، ٢٠٧١، ٢٠٧٢، ٢٠٧٣، ٢٠٧٤، ٢٠٧٥، ٢٠٧٦، ٢٠٧٧، ٢٠٧٨، ٢٠٧٩، ٢٠٨٠، ٢٠٨١، ٢٠٨٢، ٢٠٨٣، ٢٠٨٤، ٢٠٨٥، ٢٠٨٦، ٢٠٨٧، ٢٠٨٨، ٢٠٨٩، ٢٠٩٠، ٢٠٩١، ٢٠٩٢، ٢٠٩٣، ٢٠٩٤، ٢٠٩٥، ٢٠٩٦، ٢٠٩٧، ٢٠٩٨، ٢٠٩٩، ٢١٠٠، ٢١٠١، ٢١٠٢، ٢١٠٣، ٢١٠٤، ٢١٠٥، ٢١٠٦، ٢١٠٧، ٢١٠٨، ٢١٠٩، ٢١١٠، ٢١١١، ٢١١٢، ٢١١٣، ٢١١٤، ٢١١٥، ٢١١٦، ٢١١٧، ٢١١٨، ٢١١٩، ٢١٢٠، ٢١٢١، ٢١٢٢، ٢١٢٣، ٢١٢٤، ٢١٢٥، ٢١٢٦، ٢١٢٧، ٢١٢٨، ٢١٢٩، ٢١٣٠، ٢١٣١، ٢١٣٢، ٢١٣٣، ٢١٣٤، ٢١٣٥، ٢١٣٦، ٢١٣٧، ٢١٣٨، ٢١٣٩، ٢١٤٠، ٢١٤١، ٢١٤٢، ٢١٤٣، ٢١٤٤، ٢١٤٥، ٢١٤٦، ٢١٤٧، ٢١٤٨، ٢١٤٩، ٢١٥٠، ٢١٥١، ٢١٥٢، ٢١٥٣، ٢١٥٤، ٢١٥٥، ٢١٥٦، ٢١٥٧، ٢١٥٨، ٢١٥٩، ٢١٦٠، ٢١٦١، ٢١٦٢، ٢١٦٣، ٢١٦٤، ٢١٦٥، ٢١٦٦، ٢١٦٧، ٢١٦٨، ٢١٦٩، ٢١٧٠، ٢١٧١، ٢١٧٢، ٢١٧٣، ٢١٧٤، ٢١٧٥، ٢١٧٦، ٢١٧٧، ٢١٧٨، ٢١٧٩، ٢١٨٠، ٢١٨١، ٢١٨٢، ٢١٨٣، ٢١٨٤، ٢١٨٥، ٢١٨٦، ٢١٨٧، ٢١٨٨، ٢١٨٩، ٢١٩٠، ٢١٩١، ٢١٩٢، ٢١٩٣، ٢١٩٤، ٢١٩٥، ٢١٩٦، ٢١٩٧، ٢١٩٨، ٢١٩٩، ٢٢٠٠، ٢٢٠١، ٢٢٠٢، ٢٢٠٣، ٢٢٠٤، ٢٢٠٥، ٢٢٠٦، ٢٢٠٧، ٢٢٠٨، ٢٢٠٩، ٢٢١٠، ٢٢١١، ٢٢١٢، ٢٢١٣، ٢٢١٤، ٢٢١٥، ٢٢١٦، ٢٢١٧، ٢٢١٨، ٢٢١٩، ٢٢٢٠، ٢٢٢١، ٢٢٢٢، ٢٢٢٣، ٢٢٢٤، ٢٢٢٥، ٢٢٢٦، ٢٢٢٧، ٢٢٢٨، ٢٢٢٩، ٢٢٣٠، ٢٢٣١، ٢٢٣٢، ٢٢٣٣، ٢٢٣٤، ٢٢٣٥، ٢٢٣٦، ٢٢٣٧، ٢٢٣٨، ٢٢٣٩، ٢٢٤٠، ٢٢٤١، ٢٢٤٢، ٢٢٤٣، ٢٢٤٤، ٢٢٤٥، ٢٢٤٦، ٢٢٤٧، ٢٢٤٨، ٢٢٤٩، ٢٢٥٠، ٢٢٥١، ٢٢٥٢، ٢٢٥٣، ٢٢٥٤، ٢٢٥٥، ٢٢٥٦، ٢٢٥٧، ٢٢٥٨، ٢٢٥٩، ٢٢٦٠، ٢٢٦١، ٢٢٦٢، ٢٢٦٣، ٢٢٦٤، ٢٢٦٥، ٢٢٦٦، ٢٢٦٧، ٢٢٦٨، ٢٢٦٩، ٢٢٧٠، ٢٢٧١، ٢٢٧٢، ٢٢٧٣، ٢٢٧٤، ٢٢٧٥، ٢٢٧٦، ٢٢٧٧، ٢٢٧٨، ٢٢٧٩، ٢٢٨٠، ٢٢٨١، ٢٢٨٢، ٢٢٨٣، ٢٢٨٤، ٢٢٨٥، ٢٢٨٦، ٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٢٨٩، ٢٢٩٠، ٢٢٩١، ٢٢٩٢، ٢٢٩٣، ٢٢٩٤، ٢٢٩٥، ٢٢٩٦، ٢٢٩٧، ٢٢٩٨، ٢٢٩٩، ٢٣٠٠، ٢٣٠١، ٢٣٠٢، ٢٣٠٣، ٢٣٠٤، ٢٣٠٥، ٢٣٠٦، ٢٣٠٧، ٢٣٠٨، ٢٣٠٩، ٢٣١٠، ٢٣١١، ٢٣١٢، ٢٣١٣، ٢٣١٤، ٢٣١٥، ٢٣١٦، ٢٣١٧، ٢٣١٨، ٢٣١٩، ٢٣٢٠، ٢٣٢١، ٢٣٢٢، ٢٣٢٣، ٢٣٢٤، ٢٣٢٥، ٢٣٢٦، ٢٣٢٧، ٢٣٢٨، ٢٣٢٩، ٢٣٣٠، ٢٣٣١، ٢٣٣٢، ٢٣٣٣، ٢٣٣٤، ٢٣٣٥، ٢٣٣٦، ٢٣٣٧، ٢٣٣٨، ٢٣٣٩، ٢٣٤٠، ٢٣٤١، ٢٣٤٢، ٢٣٤٣، ٢٣٤٤، ٢٣٤٥، ٢٣٤٦، ٢٣٤٧، ٢٣٤٨، ٢٣٤٩، ٢٣٥٠، ٢٣٥١، ٢٣٥٢، ٢٣٥٣، ٢٣٥٤، ٢٣٥٥، ٢٣٥٦، ٢٣٥٧، ٢٣٥٨، ٢٣٥٩، ٢٣٦٠، ٢٣٦١، ٢٣٦٢، ٢٣٦٣، ٢٣٦٤، ٢٣٦٥، ٢٣٦٦، ٢٣٦٧، ٢٣٦٨، ٢٣٦٩، ٢٣٧٠، ٢٣٧١، ٢٣٧٢، ٢٣٧٣، ٢٣٧٤، ٢٣٧٥، ٢٣٧٦، ٢٣٧٧، ٢٣٧٨، ٢٣٧٩، ٢٣٨٠، ٢٣٨١، ٢٣٨٢، ٢٣٨٣، ٢٣٨٤، ٢٣٨٥، ٢٣٨٦، ٢٣٨٧، ٢٣٨٨، ٢٣٨٩، ٢٣٩٠، ٢٣٩١، ٢٣٩٢، ٢٣٩٣، ٢٣٩٤، ٢٣٩٥، ٢٣٩٦، ٢٣٩٧، ٢٣٩٨، ٢٣٩٩، ٢٤٠٠، ٢٤٠١، ٢٤٠٢، ٢٤٠٣، ٢٤٠٤، ٢٤٠٥، ٢٤٠٦، ٢٤٠٧، ٢٤٠٨، ٢٤٠٩، ٢٤١٠، ٢٤١١، ٢٤١٢، ٢٤١٣، ٢٤١٤، ٢٤١٥، ٢٤١٦، ٢٤١٧، ٢٤١٨، ٢٤١٩، ٢٤٢٠، ٢٤٢١، ٢٤٢٢، ٢٤٢٣، ٢٤٢٤، ٢٤٢٥، ٢٤٢٦، ٢٤٢٧، ٢٤٢٨، ٢٤٢٩، ٢٤٣٠، ٢٤٣١، ٢٤٣٢، ٢٤٣٣، ٢٤٣٤، ٢٤٣٥، ٢٤٣٦، ٢٤٣٧، ٢٤٣٨، ٢٤٣٩، ٢٤٤٠، ٢٤٤١، ٢٤٤٢، ٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٢٤٤٥، ٢٤٤٦، ٢٤٤٧، ٢٤٤٨، ٢٤٤٩، ٢٤٥٠، ٢٤٥١، ٢٤٥٢، ٢٤٥٣، ٢٤٥٤، ٢٤٥٥، ٢٤٥٦، ٢٤٥٧، ٢٤٥٨، ٢٤٥٩، ٢٤٦٠، ٢٤٦١، ٢٤٦٢، ٢٤٦٣، ٢٤٦٤، ٢٤٦٥، ٢٤٦٦، ٢٤٦٧، ٢٤٦٨، ٢٤٦٩، ٢٤٧٠، ٢٤٧١، ٢٤٧٢، ٢٤٧٣، ٢٤٧٤، ٢٤٧٥، ٢٤٧٦، ٢٤٧٧، ٢٤٧٨، ٢٤٧٩، ٢٤٨٠، ٢٤٨١، ٢٤٨٢، ٢٤٨٣، ٢٤٨٤، ٢٤٨٥،

والأعلام والتقليد ولقبه بأمر المسلمين؛ ففرح بذلك وشرب به فقهاء المغرب^(٣١).

ملاح الحياة الثقافية عهد المرابطين:

ربما لم يكن أحد يتصور في ذلك الزمان أن القبائل الهائمة في صحاري المغرب ستكون جزءاً من الحضارة الإسلامية وتسطر أروع البطولات في تاريخ الإسلام المجيد في ميادين الدعوة والجهاد والسياسة، لكن الدعوة التي قام بها ابن ياسين قلبت حياتهم وحولتهم من حياة الجاهلية إلى الحياة بالإيمان، وقد ظهر على إثر ذلك جيل من الفقهاء الصنهاجيين ممن عرفوا بالورع والتقوى وإنكار الذات، من أشهرهم لمتاد بن نفيير اللمتوني الذي أصبح مضرب المثل بالفتوى في بلاد الصحراء، وميمون بن ياسين اللمتوني الصنهاجي الذي قدم من الصحراء وسكن المرية ورحل إلى مكة، وحدث بالأندلس وسمع عنه الناس بإشبيلية وغيرها.

مكانة العلماء في دولة المرابطين:

لما بسط المرابطون سيطرتهم على المغرب كله والأندلس استقدموا طائفة من علماء الأندلس إلى مراكش، واتخذوهم كتاباً ووزراء، وقد صرف الأمير علي بن يوسف بن تاشفين همته إلى استدعاء أعيان الكتاب من جزيرة الأندلس حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك، كان أمراء المرابطين يوقرون حملة العلم ورسالتهم في الحياة، فكانوا يستقدمون خيرة العلماء والفقهاء لتأديب أبنائهم وتعليم أهل المغرب، يصف ابن خلدون ذلك فيقول: (نقل عنهم اتخاذ المعلمين لأحكام دين الله لصبيانهم، والاستفتاء في فروض أعيانهم، واقتفاء الأئمة للصلوات في بواديهم، وتدارس القرآن بين أحيائهم، وتحكيم حملة الفقه في نوازلهم وقضاياهم)^(٣٢).

وأشار بعض المؤرخين إلى ازدهار العلوم على عهد

ولما تم لابن تاشفين بسط نفوذه على أنحاء المغرب كافة جاءت منه مناشدة من فقهاء الأندلس وأهلها المستضعفين، طلبوا منه التوجه إليها لإنقاذها من خطر الصليبيين؛ فقد بدأت مدن المسلمين تسقط في أيديهم واحدة تلو أخرى في غفلة من حكامها المتنازعين فيما بينهم، ولم يكن أحدهم يجد حرجاً في الاستعانة بالصليبيين من أجل قتال جاره والاستيلاء على ملكه مقابل تنازلات يقدمها لهم^(٢٨).

ما كان من ابن تاشفين إلا أن لبى نداء المسلمين المستضعفين، فدخل الأندلس بجيوشه وكانت موقعة الزلاقة عام ٤٧٩هـ-١٠٨٦م من أكبر المعارك التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً كبيراً على الإسبان، وهُزم ملكهم ألفونسو السادس هزيمة منكرة، فقضت هذه المعركة على آمال الإسبان الصليبيين في احتلال الأندلس بعد أن استولوا على طليطلة^(٢٩)، ثم رجع يوسف إلى المغرب ولم يُبد أي رغبة في الاستيلاء على الأندلس، وإنما كانت غايته نصرة المسلمين وتلبية دعوة الفقهاء، لكن ملوك الطوائف عادوا إلى سابق عهدهم من التنازع، فلم يصبر أهل الأندلس ولا فقهاؤها على هذا الحال، فراسلوا أمير المسلمين ابن تاشفين مرة

أخرى يطلبون منه القدوم وتسلم زمام الأمور، وكانت قد صدرت فتوى من أرض الشام من الإمام أبي حامد الغزالي وأبي بكر الطرطوشي تحت ابن تاشفين على إنقاذ الأندلس من هؤلاء الحكام وتبيح له قتالهم، وما كان يُقدم على ذلك تورعاً عن دمائهم.

توجه ابن تاشفين إلى الأندلس فدخلها وأخضع جميع مدنها لحكمه، وتمت الوحدة بين المغرب والأندلس تحت قيادة واحدة^(٣٠)، وأرسل إلى الخليفة العباسي المستظهر يطلب منه توليته وأن يُقلده ما بيده من البلاد ليكون أميراً شرعياً على ما تحت يده، فبعث إليه الخلع

(٢٨) ابن خلدون: العبر، (٢٤٨/٦).

(٢٩) عبد المنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ت: إحسان عباس، دار ناصر للثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، (٢٩١/١).

(٣٠) ابن خلدون: العبر، (٢٤٩/٦).

(٣١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، تحقيق حمدي الدمرداش، دار نزار الباز، ط ١، ١٤٢٥هـ، ص (٣٠٣).

(٣٢) ابن خلدون: العبر، (١٣٧/٦).

قضى أبو بكر حياته كلها يدعو ويجاهد حتى توفاه الله عام ٤٦٢هـ-١٠٦٩م وهو في جهاده، واجتمعت بعد ذلك الكلمة لابن عمه يوسف بن تاشفين الذي أكمل المسير على نهج ابن ياسين في حكم البلاد والعباد.

يوسف بن تاشفين:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، أمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بن وارتقين، كانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجة وآلت إليها الرئاسة منذ أن أقرها الإمام ابن ياسين فيها بعد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، وهكذا نما يوسف عزيزاً كريماً في قومه، وهو أول من وحد بلاد الغرب الإسلامي تحت دولة واحدة من حدود تونس إلى غانا جنوباً والأندلس شمالاً، وقد برزت شخصية يوسف القيادية للمرابطين في معركة الواحات عام ٤٤٨هـ-١٠٥٦م التي كان فيها قائداً لمقدمة جيش المرابطين المهاجم، ولما فتح مدينة سجلماسة عينه الأمير أبو بكر واليا عليها، فظهرت مهاراته الإدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفتح ماسة، وحين عاد أبو بكر من الصحراء جمع أعيان الدولة وشيوخها وأشهدهم على أنه تخلى ليوسف عن الإمارة^(٢٧).



رسم متخيل ليوسف بن تاشفين

بسته آلاف من رجال قبيلته تأييداً لدعوته إلا أنه لم يمكث طويلاً بعد دخوله في دعوة الشيخ ابن ياسين لأنه توفى، وتولى شؤون الإمارة بعده أخوه أبو بكر الذي اختاره ابن ياسين بعد ذلك ليكون أمير المسلمين والقائد السياسي للدولة المنشودة.

سار أبو بكر مع ابن ياسين في طريق الجهاد، فتم لهم فتح سجلماسة وملك السوس بأسره، ثم امتلك بلاد المصامدة وفتح بلاد أغمات وتادلة وتامسنا عام ٤٤٩هـ-١٠٥٧م، وكان معهما يوسف بن تاشفين الذي كان تحت قيادة أبي بكر، ثم خاضوا معاً معارك شديدة ضد قبيلة برغواطة - وكانت من بقايا العبيديين في المغرب - حتى انتصروا عليهم، لكن في إحدى هذه المواجهات استشهد الشيخ عبد الله بن ياسين، وكان قد جمع الشيوخ والأعيان قبيل وفاته عام ٤٥١هـ-١٠٥٩م فقال لهم: (إني ميت عنكم؛ فانظروا من ترضونه لأمركم، فاجتمع الرأي على أبي بكر)^(٢٨) فاجتمعت لأبي بكر الزعامتان السياسية والدينية معاً، لكن ابن خلدون يعارض هذه الرواية ويرى أن أبا بكر نال الزعامة السياسية فقط، أما الدينية فانتقلت إلى سليمان بن عدو^(٢٩).

أراد أبو بكر أن يبني مدينة على أحد السهول يتخذها عاصمة لدولته، فأنشأ مراكش التي غدت مع الأيام في نظر المؤرخين بغداد المغرب^(٣٠)، ولما شرع يبنها جاءه خبر من جنوب السنغال عن خلاف وقع بين لمتونة ومسوفة، فخاف على دماء المسلمين، فولى الأمر لابن عمه يوسف بن تاشفين، وغادر إلى الصحراء وتم له ذلك^(٣١) إلا أنه فوجئ هناك بأن قبائل كثيرة تعيش على الوثنية ولا تعلم شيئاً عن الإسلام، فتذكر شيخه ابن ياسين وحرصه على إيصال الدعوة إلى الناس قبل الحكم عليهم أو مقاتلتهم، فقرر العيش في الصحراء وترك شؤون الدولة لابن تاشفين، وهكذا حقق تغييراً عظيماً في حياة أهل الصحراء وعم الإسلام فيها؛ فاتسعت رقعة الدولة المرابطية بالدعوة وعم الإسلام رقعة واسعة من إفريقية اليوم^(٣٢).

(٢٢) السلاوي: الاستقصا، (٢١٨/٢-٢١٩).

(٢٣) ابن خلدون: العبر، (٢٤٤/٦).

(٢٤) ابن فضل الله العمري: مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، المجمع الثقافي، أبوظبي، ١٤٢٣هـ، (٧٢١/٥).

(٢٥) ابن خلدون: العبر، (٢٤٤/٦).

(٢٦) وهي التي تقع عليها اليوم غينيا بيساو جنوب السنغال، وسيراليون، وساحل العاج، ومالي، وبوركينا فاسو، والنيجر، وغانا، و داهومي، وتوجو، ونيجيريا، والكاميرون، وأفريقيا الوسطى، والغانون، وهذه المساحة تقوم عليها اليوم نحو ١٥ دولة أي ما يعادل ثلث مساحة القارة الإفريقية.

(٢٧) ابن أبي الزرع: روض القرطاس، دار المنصورة، الرباط، ص (٨٦).

منهج العلوم:

- وكان فقيهاً حافظاً للفقه زاهداً في الدنيا - فاستدعاه بعض أمراء صنهاجة للقراءة عليه والأخذ عنه، فدخل عليه أبو الحسن وهو على سريره فجلس أبو الحسن تحته، فقال له أبو الحسن: أهكذا كنت تفعل مع من كنت تتعلم منه؟ أجاب الأمير: نعم، فقال له أبو الحسن: انزل إلى مكاني وأكون أنا مكانك - وهكذا ينبغي أن يكون المتعلم مع المعلم - فأجابه الأمير إلى ذلك، ونزل عن سريره وجلس عليه أبو الحسن.

وكان الأمير إبراهيم بن يوسف يرسل في طلب الفقيه أبي علي الصدي في لسمع منه الحديث ويتفجع بعمله وفضله، إضافة إلى تشجيعه الكتاب والشعراء^(٣٧) كابن خاقان^(٣٨) الذي شجعه الأمير إبراهيم للإقدام على تأليف كتاب قلائد العقيان، وابن خفاجة^(٣٩) الذي شجعه على قرط الشعر بعد انصرافه عنه، وابن زهر^(٤٠) الذي ألف له كتاب الاقتصاد في إصلاح الأجساد.

وبما أن الدولة المرابطية قامت على أسس إسلامية فقد عمل أمراؤها على تشجيع العلوم الشرعية بكل وسيلة، فقبروا الفقهاء من مجالسهم وأغدقوا عليهم الأموال، وأخذوا بمشورتهم في كل الأمور الصغيرة والكبيرة، وامتزجت دراسة الفقه بعلم الأصول، وعُني المغاربة بعلم القراءات والتفسير والإقبال على دراسة الحديث وروايته، وتعددت الرحلات لسماعه والأخذ عن رجاله في علو الإسناد والضبط والإتقان، واشتهر كثير من الفقهاء في هذا العصر، منهم القاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ)، والقاضي أبو موسى عيسى بن الملجوم قاضي فاس (ت ٥٤٣هـ / ١١٤٨م)، والقاضي عبد الملك المصمودي (ت ٤٧٩هـ)، واهتم الناس أيضًا بدراسة التصوف في هذا العصر، وكان تصوفهم زهدًا ورياضة لا تصوفًا فلسفيًا كما حدث في عهد الموحدين.

ونبع في علوم اللغة في عهد المرابطين عدد كبير من العلماء في النحو وعلوم اللغة الأخرى، منهم أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطلوسي (ت ٥٢١هـ)،

كانت ثقافة الشعب في ظل دولة المرابطين تعتمد على العلوم الوافدة من المشرق الإسلامي خاصة؛ إذ كان علماء المرابطين يقومون بالرحلة لطلب العلم إلى مصر والشام والحجاز والعراق، وكان المورد الآخر لثقافتهم العلمية ما يتلقونه عن أهل الأندلس من علوم ومعارف في شتى أنواع العلوم، كان الطالب يتسبب إلى المكتب فيتعلم القراءة والكتابة ويحفظ القرآن الكريم، ثم يترقى فيدرس تفسير القرآن والحديث النبوي وشعر المواعظ والأناشيد الدينية في الربط، وفي مرحلة أخرى تكون الدراسة في المساجد، ويشكل المذهب المالكي وكتبه محور الدراسات الفقهية بجانب العلوم الدينية الأخرى، وفي التفسير اعتمد العلماء على تفسير الطبري في ذلك الزمان واشتهر بين المغاربة، وفي الحديث اعتمد موطأ مالك وصحيح مسلم وشرح أبي الفضل عياض اليحصبي (ت ٥٤٤هـ - ١١٤٩م) صاحب كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى ومشارك الأنوار، أما في الفقه والأصول فكان يدرس المذهب المالكي وكتب أبي الوليد الباجي، وفي اللغة والنحو اعتمد على كتاب سيبويه والإيضاح لأبي علي الفارسي والمخصص والمحكم لابن سيده وغير ذلك.

انتشار العلم:

إن هذه الأجواء العلمية أدت إلى تكوين جيل من أبناء الملمين يتقن الثقافة العربية إتقاناً تاماً؛ وذلك لتوفر الأمن والاستقرار والتشجيع والدعم من قبل الدولة، وازدهار الحركة الثقافية في بلاد المغرب من خلال احتكاكها بالنبع الثقافي في بلاد الأندلس والقيروان والمشرق الإسلامي، فشهد القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجري - الحادي عشر ومطلع الثاني عشر الميلادي - نهضة شاملة في الحياة الثقافية عمت بلاد إفريقية، فتدفقت منها بحور الأدب وطلعت منها نجوم الكتب ورمّت أقاصي البلاد بمثل دُرَى الأطواد^(٣٦)؛ فأصبح طلب العلم سجية لكل أبناء الدولة وطبقاتها حتى كان بعض الأمراء ممن لم تسنح لهم فرصة طلب العلم يدعوا العلماء إلى قصره ليأخذ عنهم ويتعلم منهم، ومما يروى في ذلك أن الشيخ أبا الحسن علي بن حرزهم قدم إلى مراكش

(٣٧) الذهبي: تاريخ الإسلام، (٢١٨/١١).

(٣٨) أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان بن عبد الله القيسي الإشبيلي صاحب كتاب قلائد العقيان، وله أيضاً كتاب مطمح الأنفس ومسرح الثائس في ملحق أهل الأندلس، وقد اختلف على عام وفاته، والراجح أنه ٥٢٩هـ. ابن خلكان: وفيات الأعيان، (٢٤-٢٣/٤).

(٣٩) أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الله خفاجة من أعلام الشعر الأندلسي. أحمد الهاشمي: جواهر الأدب، مؤسسة المعارف، بيروت، (٢٠٠/٢).

(٤٠) عبد الملك بن زهر الإيادي من أهل إشبيلية، طبيب مسلم عالم كبير له مؤلفات شهيرة في الطب. ابن الأثير: التكملة لكتاب الصلاة، ت: عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، ١٤١٥هـ، (٨١/٣).

(٣٦) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ت: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب تونس، ١٩٧٩م، (٥٩٧/٨).

أركان المذهب المالكي، اشتهر فيها الفقيه بكار بن برون بن الغرديس، وقصده الطلاب من كل حذب وصوب، وغدت مدرسة تلمسان داراً وموئلاً للعلماء والمحدثين من حملة الرأي على المذهب المالكي، وتألفت مدرسة سبتة التي أنجبت العالم الكبير القاضي عياض اليعصبى ٥٤٤هـ-١١٤٩م، وعمت المدارس أيضاً طنجة وأغامت التي انتشر فيها جلة من الفقهاء والعلماء.

أما مدرسة مراكش فرغم حداثة إلا أنها تفوقت تفوقاً واضحاً لكونها عاصمة الدولة ومقر السلطان، فوفد إليها العلماء من كل صوب لينعموا بالعيش الرغيد قريباً من مقر الأمراء، وأما جوهرة الصحراء فهي مدينة تمبكتو الواقعة في دولة مالي اليوم، كانت من أهم المراكز الثقافية والفكرية والتجارية غرب إفريقيا، أنشئت عام ٤٩٠هـ-١٠٩٦م، فُهرع إليها العلماء من المغرب وبلاد السودان كافة ومن مصر والمشرق، فوجدوا فيها كل وسائل التشجيع والرعاية، وفي القرن السادس الهجري تألفت مدينة جنبي بعد أن أسلم أهلها، وكانت مركزاً للتجار البربر والعلماء العرب والدعاة، فقصدها العلماء والفقهاء من كل صوب حتى اجتمع فيها أربعة آلاف ممن يعملون بالعلم في زمن واحد.

خزانات الكتب:

وترتب على اهتمام المرابطين بالحياة العلمية انتشار الخزانات العلمية، فاشتهرت خزانة الأمير علي بن يوسف بن تاشفين في مراكش وطبقت سمعتها الآفاق، كما اشتهرت خزانة ابن الصقر في مراكش، أنشأها أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن بن محمد الأنصاري (ت ٥٦٩هـ-١١٩٩م)، وكانت خزانة كبيرة مملوءة بالذخائر، وصفها ابن فرحون بقوله: (اقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه الرائق، وكان معه عند توجهه إلى مراكش خمسة أحمال كتب، وجمع منها بمراكش شيئاً عظيماً)^(٣٥)، ناهيك عن انتشار عشرات الخزانات الخاصة في المغرب والأندلس لكبار العلماء أمثال ابن العربي وابن باجة وابن زهر وغيرهم.

(٣٥) ابن فرحون: الديباج المذهب، ص (٤٩).

علي بن يوسف بن تاشفين، فذكر أن دولتهم نفقت فيها العلوم والآداب، وكثر النبهاء وخصوصاً الكتاب، كما شجع أمراء المرابطين الفلاسفة والأطباء وباقي حملة العلوم، واقتفى آثارهم في ذلك الأمراء والنبلاء والقادة حتى غدت مجالسهم مقصداً للشعراء والأدباء^(٣٣)، فظهر في تلك الفترة جيل من حملة علوم الشريعة ممن عرف بالتقوى والصلاح والعلم الغزير أمثال المنصور بن محمد بن الحاج بن داود بن عمر الصنهاجي اللمتوني، برع في معرفة الأخبار والسنن والآثار، وصحب العلماء وسمع منهم، ونافس في الدواوين والأصول العتيقة، وهو فخر صنهاجة ليس فيهم مثله؛ وأمثال الأمير أبي بكر بن

تافلويت الصنهاجي الذي برع في العلم وتبحر فيه، والأمير عمر بن ذمام بن المعتز الصنهاجي الذي بلغ به العلم أن سُمي الفقيه القائد، ومنهم أيضاً زاوي بن مناد بن عطية الله بن المنصور الصنهاجي المعروف بابن تقسوط، وعبد الكريم بن عبد الرحيم بن معزوز أبو موسى الصنهاجي المعروف بالغفجومي، وأحمد بن محمد بن موسى بن عطاء الله الصنهاجي، وخلوف بن خلف الله الصنهاجي، وموسى بن حماد الصنهاجي، وغيرهم.

المدارس في عهد المرابطين:

انتشرت المدارس في إفريقية على عهد المرابطين، منها ما كان قائماً ومنها ما استحدث، فقصدها الناس من كل صوب، ومن أهم هذه المدارس مدرسة فاس التي كانت في ذلك الزمان أكثر مدارس المغرب تفوقاً، وزادت شهرتها بعد اضطراب أمر القيروان وقرطبة ونزوح الكثير من العلماء والفضلاء إليها، فأصبحت دار علم وفقه وحديث، بل شبهها القلقشندي بالإسكندرية في المحافظة على علوم الشريعة وتغيير المنكر والقيام بالناموس^(٣٤)، واشتهرت كذلك مدرسة سجلماسة، وقد كانت ركناً من

(٣٣) علي الصلابي: فقه التمكن، ص (١٨٦).

(٣٤) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ٢٠٠٥م، (١٥١/٥).

التي مُنُوا بها من السلاجقة في معركة ملاذكرد عام ٤٦٣هـ/ ١٠٧٣م حتى حلت بهم الصفعة الأخرى من المرابطين في معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ/ ١٠٨٩م، وكانت سبباً في إطالة أمد الحضارة الإسلامية في الأندلس وعودة الوحدة السياسية بين العُدوتين المغربية والأندلسية.

لقيام الدولة المرابطية أثرٌ جلي في بروز معالم الهوية المغربية الإسلامية في إقليم المغرب وموريتانيا والسودان ودول شمال إفريقيا وغربها ووسطها.

تربية الأجيال على القرآن والسنة وأخلاق الإسلام جعل منهم دعاةً حقيقيين يحملون للناس الدين والقيم الإنسانية والمبادئ السامية بعيداً عن التعصب المذهبي والانتماء القبلي.

مثل الشيخ عبد الله بن ياسين -رحمه الله- دور الداعية القدوة الذي يسبق فعله قوله، فكان يجاهد ويدعو للجهاد.

لم تتوقف جهود علماء المغرب وأمرائه عند قيام دولة المرابطين في المغرب بل سعوا إلى تحقيق وحدة المسلمين في المشرق والمغرب، وفي هذا السياق جاء إعلان ابن تاشفين تبعيته للخليفة العباسي في بغداد.

العلماء هم أكثر فئات المجتمع تأثيراً على الناس والحكام، وليس للمسافات أي اعتبار في ذلك، فما حرص يوسف بن تاشفين على دخول الأندلس وحرب الأمراء المتناحرين فيها إلا فتوى أبي حامد الغزالي من دمشق، وكانت خطبة أبي بكر بن العربي سبباً في توحيد المغرب مع المشرق تحت راية أمير واحد.

وفي الختام إن تاريخ الدول الإسلامية مليء بالعبر والعظات والدروس النافعة التي تحتاجها الأمة اليوم لقيام دولتها الكبرى التي تسعى إلى لم شمل المسلمين ورد عادية الأعداء عنهم، وإن التفتيش في تجاربنا التاريخية مع فهم الحاضر والدراية به والاهتمام بما اشتغل به أسلافنا من العلم وتزكية النفس وتربية الأجيال أسس متينة لإعادة بناء الأمة الإسلامية والانطلاق بها في ركب الحضارة الإنسانية... ﴿وَقُلْ اْعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٠٥].

بين مدرسة أبي عمران الفاسي في القيروان -الذي كان له دورٌ كبير في إسقاط مذهب التشيع في إفريقية في القرنين الرابع والخامس للهجرة- ومدرسة عبد الله بن ياسين التي كانت نواة الدولة المرابطية، فهذه المدارس الثلاث تمثل في مجموعها حلقة الوصل بين جهود السابقين عليهم واللاحقين لهم، جاءت هذه المدارس لتؤكد وحدة الحضارة الإسلامية وأنها حضارة تقوم على العلم والأخلاق الإنسانية الفاضلة المستمدة من الوحي الإلهي والتعاليم السماوية التي جاء بها الإسلام.

وقد خلصت في هذا البحث إلى جملة من النتائج:

العلماء هم خط الدفاع الأول عن الأمة وحرس حدودها وحماة رسالتها، فإذا سقطت انهارت الأمة؛ فما في التاريخ أمة قامت على جهل.

علماء المغرب كانوا أكثر طبقات المجتمع نشاطاً وفاعليّة؛ فأثمرت جهودهم تغييراً كبيراً في المغرب وإفريقية ثقافياً وفكرياً واجتماعياً وسياسياً.

ضرورة التنسيق بين العلماء بغية توحيد الجهود وتوزيع المهام، فمنهم من يحارب البدع أو ينشر الفقه، وآخرون يصلحون المجتمع.

كانت مدرسة أكلو تُعدُّ جيل الدعاة، بينما كانت مدرسة ابن ياسين تقوم بمهمة ميدانية بحثية تتمثل في دعوة القبائل ومحاربة المفسدين في المغرب وأعماق الصحراء الإفريقية الكبرى.

أحدثت مؤسسات التعليم والدعوة المغربية تحولا كبيرا في حياة الشعوب الإفريقية؛ فتحولوا بفضلها من الوثنية وعبادة البشر والشجر والحجر إلى عبادة الإله الواحد، ونقلتهم الدعوة من الجاهلية والوحشية إلى حياة الحضارة والتمدن.

ضرب أمراء المرابطين المثل الأعلى في الزهد بالسلطة والتنزه عن أموال الناس، فكانوا قدوة للحاكم الصالح -قديماً وحديثاً- الذي بصلاحه يوفق إلى جمع الشعوب تحت رايته مهما كانت متناحرة متفرقة.

أدى ظهور دولة المرابطين إلى إحداث نوع من توازن القوة في حوض البحر المتوسط.

لم ينس ملوك الغرب الصليبي ألم الصفعة القاتلة

جملةً الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه^(٤١)، ومن أبرز من برعوا في هذا الفن الأعمى التَّطِيلِيّ، ومن مشهور موشحاته:

دمعٌ سَفُوحٌ، وضلوعٌ حَرار: ماءٌ ونازٌ

ما اجتماعاً إلا لأمر كُبارٌ

بئس لعمرى ما أَراد العذول عمر قصير وعناء طويلٌ
يا زفراتٍ نطقت عن غليل ويا دموعاً قد أصابت مسيل...^(٤٢)

وهناك فن آخر انتشر في ذلك الزمن هو فن الزجل، تحدث عنه ابن خلدون فقال: (إنه لما شاع فن التوشيح في أهل الأندلس وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضريّة من غير أن يلتزموا فيها إعراباً، واستحدثوا فنا سموه بالزجل، والتزموا النظم فيه على منحاهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة^(٤٣)، وأول من أبدع في هذه الطريقة الزجلية على عهد المرابطين أبو بكر بن قزمان القرطبي حتى عُدّ إمام الزجالين في الأندلس، ومما قاله^(٤٤):

قالوا عني بأي عاشق فيك إش تقول يصدقوا
يا حبيبي لقيت كثير في الناس بالحكم ينطق
هذا شي والنبى يا نور عيني ما تحدثت بيه
ولّا والله خطر على بالي لا ولا خضت فيه
إنما في الطيريق أنا أمشي كل من ألتقيه
يدنو ميني وسرعة ليسألني عندما نلتقو
ويقول لي فلان -بحق الله- من صحيح تعشّقو

خاتمة ونتائج:

هذه صورة مصغرة لواحدة من المدارس التي لعبت دوراً حضارياً في تاريخ الأمة الإسلامية، فكانت أشبه بالشجرة التي كلما تفرع منها غصن تفرع عنه أغصان أخرى، كانت مدرسة أكلو وشيخها وجاج حلقة الوصل

وأبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي (ت ٥٤٢هـ)، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري (ت ٥٥٥هـ)، أما في علوم التاريخ والجغرافية فقد ظهر في عصر المرابطين عدد كبير من أعلام الرواية والكتابة التاريخية، منهم أبو زكريا بن يحيى بن يوسف الأنصاري المعروف بابن الصيرفي، ومالك بن وهيب (ت ٥٣٥هـ)، وأبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن بشكوال (ت ٥٧٨هـ)، وفي العلوم الجغرافية برزت مجموعة من العلماء في عصر المرابطين، منهم أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الإدريسي (ت ٥٦٠هـ) صاحب كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، وعبد الله بن إبراهيم بن الحجاري (كان حياً سنة ٥٣٠هـ) صاحب كتاب المسهب في غرائب المغرب.

وتقدمت العلوم الطبية والصيدلانية في عهدهم، فمن أشهر الأطباء الذين برزوا في عهد المرابطين أبو العلاء زهر بن أبي مروان عبد الملك بن محمد بن مروان (ت ٥٢٥هـ)، كان يعتمد الطرق المخبرية وجس النبض في تشخيص الأمراض، وأبو عامر محمد بن أحمد بن عامر البلوي (ت ٥٥٩هـ) صاحب كتاب الشفا في الطب، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد السعيدى (ت ٥٣٣هـ)، وغيرهم كثير؛ فأحدث المرابطون منصباً يعرف باسم رئيس الصناعة الطبية، وهذا من أرقى ما وجد في ذلك العصر من الاهتمام بعلم الطب والصيدلة وحاملتهما.

ظهور الموشحات والزجل:

في ظل الرخاء والاستقرار الذي أشاعه المرابطون في الأندلس والمغرب زاد الاهتمام بالشعر والأدب حتى استحدثت بعض الفنون في هذا الميدان منها فن الموشحات الشهير، قال ابن خلدون في نشأته: (وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر في قعرهم وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فناً يسمونه بالموشح، ينظمونه أسماطاً وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتاً واحداً، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشتمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، ويسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية، واستطرفه الناس

(٤١) ابن خلدون: المقدمة، ص (٤٣٦).

(٤٢) المرجع السابق، ص (٤١).

(٤٣) ابن خلدون: العبر، (٨٢٥/١).

(٤٤) ابن حجة الحموي: بلوغ الأمل في فن الزجل، ت: رضا محسن القرشي، وزارة الثقافة والإرشاد، دمشق، ١٩٧٤م، ص (١٣).

بمعصية فلا سمع عليه ولا طاعة»^(٦).

إن الطاعة إحدى أهم الأخلاقيات السامية التي دعا إليها الإسلام وجعلها من أوجب الواجبات، وعلى الأمة أن تلتزم بها؛ ففيها صلاحهم واستقرارهم واستقرار حكمهم، ولا يستتب أمر لدولة أو بناءً لمؤسسة أو تشكيلٌ لحزب أو تيار بدونها، فلا يمكن للإنسان العاقل أن يتخيل قيام دولة قوية متينة تتحقق في ظلها مبادئ العدالة والمساواة والعيش الكريم ولا طاعة لحاكمها من أبناء الشعب عن حب ورضا أو لا حرية كافية لأفرادها، حتّى لا تقوم تلك الدولة ولن تستمر أو تستقر، فطاعة الحاكم وحرية المحكوم شرط لقيام تلك الدولة القوية بسماتها التي ذكرناها، ولرب سائل يسأل: كيف نرى دولاً لا تلتزم بشرع الله ودينه وتمارس العنف والإرهاب والظلم والجور والإذلال والإهانة والفساد والإفساد والمحسوبية والقمع وتكميم الأفواه ولم تنزل قائمة صامدة؟

والجواب أن دولة بهذه المواصفات هي دولة باطل، وقد وصف الله سبحانه الباطل فقال: ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ولكن لا يظهر أهل الباطل في مكان إلا لضعف واختلاف أهل الحق وتفرقهم وابتعادهم عن طاعة الله تعالى وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وولي الأمر الصالح المصلح، وإنهم لو أطاعوا الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم وأولي الأمر منهم لكانت لهم السيادة والريادة، فعلو الباطل وظهوره في مكانٍ ما إن هو إلا نتيجة ضعف أهل الحق وتفرقهم وقصورهم عن حمل الأمانة الواقعة على أعتاقهم، ثم إن كان للباطل جولة فللحق جولات ويعود

ويتركون ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾، وفي ذلك الربط عصمة للمجتمع الإيماني من الحكام المتسلطين الذين يحاولون أن يستذلوا الناس بقول الله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ ويدعوا أن طاعتهم واجبة، يقول الواحد منهم: ألسنت ولي أمر؟ فيرد العلماء: نعم أنت ولي أمر ولكنك معطوف على المطاع ولم يتكرر لك أمر الطاعة، فدلّ ذلك على أن طاعتك واجبة إن كانت من باطن الطاعتين، فإن لم تكن من باطن الطاعتين فلا طاعة



«إن مبدأ حرية النقد للحاكم والمسؤول يعد أساساً لبناء دولة قوية، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم قول كلمة الحق أفضل أنواع الجهاد»

لك، لأن القاعدة هي لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق^(٤). يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «(من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني)»^(٥)، وتكون الطاعة في المعروف، قال صلى الله عليه وسلم: «(السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبّ وكره ما لم يؤمر بمعصية، فإن أمر

من الأمراء والحكام والعلماء والرؤساء والزعماء الذي يرجع إليهم الناس في الحاجات والمصالح العامة، فإذا اتفقوا على أمر أو حكم وجب أن يطاعوا فيه لكن بشرط أن يكونوا أمناء على ما وُلّوا من أمور الأمة، وألا يخالفوا أوامر الشرع الحنيف، وأن يكونوا مختارين في بحثهم في الأمر واتفاقهم عليه، وأن يكون ما يتفقون عليه من باب المصالح العامة، وهو ما لأولي الأمر سلطة فيه ووقوف عليه؛ وعلى هذا فإن كل من جاء بعد النبي صلى الله عليه وسلم وولّي الخلافة والحكم وجبت طاعته فيما لا معصية فيه، وهذا الربط بين طاعة الله ورسوله وطاعة وليّ الأمر يدل على ترابط الطاعة واستمرارها؛ لما لها من أثر في تثبيت كيان الدولة والحكم، ولما في تركها من بلاء على المسلمين زيادةً على كونها معصيةً لله تستحق العقوبة العاجلة والآجلة.

وقد جعل ربّنا سبحانه الرجوع إلى شرعه عند التنازع وطاعة الله ورسوله وأولي الأمر من الإيمان، قال سبحانه عقب الأمر بذلك: ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾، لكن الله عزّ وجلّ لم يجعل لولي الأمر طاعة مستقلة بل جعلها مقيدة بما يرضي الله ورسوله، قال الشنقيطي في قوله تعالى ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾: (كرر الفعل بالنسبة لله وللرسول ولم يكرره بالنسبة لأولي الأمر؛ لأن طاعتهم لا تكون استقلالاً بل تبعاً لطاعة الله وطاعة رسوله كما في الحديث: «(لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق)»^(٣).

(وحتى ننجح في حياتنا فلا بد أن نأخذ الإسلام كله، وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قوله تعالى: ﴿وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾

(٤) الشعراوي: تفسير الشعراوي «الخواطر»، (٣٨٧٦/٧) و (٢٣٦٠/٤).

(٥) البخاري: صحيح البخاري، رقم ٧١٣٧، دار طوق النجاة ١٤٣٢هـ، (٦١/٩). صحيح مسلم، رقم ١٨٣٥، دار إحياء التراث العربي-بيروت، (١٤٦٦/٣)، متفق عليه.

(٦) محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي، ت: إبراهيم عطوة عوض، مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي مصر، ط ١٩٧٥م، (٢٠٩/٤).

(٣) أعضاء البيان للشنقيطي، (٢٠٣/٨).

أثر الحرية والطاعة على قوّة الدولة واستدامتها

د. عبد السلام البيطار
دكتوراه في التفسير وعلوم القرآن



إن الطاعة لولي الأمر هي من طاعة الله ورسوله، ولها أعظم الأثر في قوة الدولة واستدامتها، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] يقول الرازي: (إنه تعالى لما أمر الرعاة والولاة بالعدل في الرعية أمر الرعية بطاعة الولاة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ﴾؛ ولهذا قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: حقّ على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدي الأمانة، فإذا فعل ذلك فحقّ على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا^(١)) إن الله تعالى قد (بين لنا أصل الحكومة الإسلامية في آية الأمانات والعدل والطاعة، وبين لنا بعض الأحكام الحربية والسياسية، مبينا لنا الطريق الذي نسير عليه في حفظ ملتنا وحكومتنا المبنية على تلك الأصول المحكمة الحكيمة)^(٢) من عدل وأمانة وطاعة.

إذا إنه أمر من الله تعالى بوجوب طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم طاعة مطلقة، وأمر بطاعة أولي الأمر، وهم جماعة أهل الحل والعقد المسلمين

مجتمع المدينة يرتقى باطرادٍ سريع يومًا بعد يوم نتيجةً عدة أخلاقيات سامية قامت عليها الدولة الإسلامية الناشئة، من أبرزها الطاعة والحرية والعدل والشورى، وموضوع بحثنا هذا الطاعة والحرية بصفتها ركنين أساسيين لذلك المجتمع المسلم ودولته المتصاعدة؛ فقد كانت الطاعة بمنزلة الرأس لأركان الدولة الإسلامية الناشئة؛ إذ قامت بضبط حركة الدولة، وكفلت التنفيذ الدقيق الكامل لأوامر القيادة العليا، وأما الحرية فقد مكنت أصحاب الهمم والمبادرات وأصحاب الرؤى والمقترحات من عرض ما لديهم والإسهام في الابتكار والتطوير وخدمة المجتمع المسلم.

الطاعة

بطاعة الله جل جلاله وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم استطاع المسلمون تجاوز المحن وتخطي الصعاب والصعود إلى القمة وبناء أعظم دولة مؤمنة فتحت البلاد وأقامت العدالة بين العباد، كان مبدأ الطاعة عند المسلمين ثمرة تلك القيم والأخلاق الفاضلة التي غرسها النبي صلى الله عليه وسلم على مدى سنوات في نفوس أصحابه، فأثبتت شجرة طيبة أصلها ثابت راسخ وفرعها في السماء.

إن أي عمل جماعي مؤسسي كتشكيل حزب أو بناء تيار وطني أو إقامة دولة قوية لن يكتب له النجاح إلا بقيامه على قِسمٍ ومُثلٍ عليا تتجسّد في روح العمل وصميمه؛ ليظهر أثرها في منجزاته ومخرجاته، فالدولة عند بنائها ونشأتها بحاجة إلى ثلاثة عناصر: الإقليم والشعب والسلطة، فالسلطة وظيفتها تطبيق النظام الذي يحدد طريقة التعامل بين أفراد المجتمع ويضبط علاقاتهم، وإن تطبيق السلطة أو الحكومة قانون العدالة والتزامها بالقيم الأخلاقية التي جاء بها القرآن الكريم هو ما يكفل دوامها وقوتها واستمرارها؛ فرسول الله صلى الله عليه وسلم عندما أسس الدولة أسسها على القيم التي دعا إليها القرآن الكريم، ووضّع قواعدها في مكة المكرمة، وأنشأها وبنّاها في المدينة المنورة عندما التزم المسلمون طاعة الله وتحرّروا من العبودية لغيره.

كانت المدينة المنورة المظلة والحاضنة للعمل السياسي وبناء الدولة، ولما تمّ بناء المسجد كان نقطة للانطلاق ومركزًا وتجمعًا تُعقد فيه الحوارات والمشاورات، وتطبق فيه العدالة بين الناس، وترسخ فيه القيم والمبادئ، وتوحد فيه الجهود، ويبنى الاقتصاد من خلال تشريع متكامل وتوجيه مستمر دائم، وقد كان

(١) الرازي: مفاتيح الغيب للتفسير الكبير، (١٠/١١٢).
(٢) رضا: تفسير القرآن الحكيم، تفسير المنار، (٥/٢٠٣).

فكانت النتيجة بعد أن تحرروا من كل تأثير وخوف أن دخلوا في دين الله عن قناعة ورضا وتسليم.

إن المنطلق للحرية كما بينا هو حرية الكلمة التي من خلالها نعبّر ونوضح ونحاور ونقرر، وحرية نقد السلطة التي من خلالها نوجه ونقترح ونشارك ونتابع ونحاسب ونبني؛ إذ هما حجر الأساس لجميع حريات الفرد، (والإسلام أعلن حرية الأفراد في أروع مظاهرها، فأعلن حرية التفكير وحرية الاعتقاد وحرية القول وحرية العلم وحرية التملك، فهي حريات تؤدي إلى نمو الإخاء والاحترام بين الأفراد والهيئات، وتجمع الكلمة على الحق، وتجعل الجماعة في حالة تعاون دائم، وتقضي على النعرات الشخصية والطائفية)^(١٦)، فكانت تلك الحريات مجتمعة النواة الصلبة لبناء دولة القانون والقيم، فنجد الإسلام قد حرر العقول من الأوهام والخرافات والتقاليد داعيًا إلى نبذ كل ما لا يقبله العقل، فالقرآن الكريم يعتمد في إثبات وجود الله على إقناع الناس بالأسلام وعلى استشارة تفكيرهم وإيقاظ عقولهم تارة أخرى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٧٠] إذا هي دعوة إلى التفكير والتأمل والتدبر والاستفادة من الماضي للعبارة والعظة وإطلاق الحرية للفكر والتطوير ومواكبة ما يمكن من كل جديد، فإن الله تعالى قد أنزل القرآن الكريم وفيه كل ما هو جديد مفيد صالح لكل زمان ومكان، فلا يمكن أن تبنى دولة حديثة تقوم وتزدهر وهي تعتمد على قوانين قديمة وطرائق

حييًّا مسلوب القوة والإرادة والعزيمة إضافةً إلى الذل والهوان والخوف والاضطراب والتشتت والضياع وما إلى ذلك من الأمراض التي تصاحب الكبت من عزلة وفراغ ينتج عنهما فساد وتدمير وإحباط، (وقد كان يُستدل على عراقية الأمة في الاستعباد أو الحرية باستنتاج لغتها: هل هي قليلة ألفاظ التعظيم كالعربية مثلاً أم هي غنية في عبارات



« الإسلام حرر العقول من الأوهام والخرافات والتقاليد داعيًا إلى نبذ كل ما لا يقبله العقل، فالقرآن الكريم يعتمد في إثبات وجود الله على إقناع الناس بالإسلام وعلى استشارة تفكيرهم »

الخضوع كالفارسية، وكتلك اللغة التي ليس فيها بين المتخاطبين أنا وأنت بل سيدي وعبدكم؟^(١٤) وقد أصل رسول الله صلى الله عليه وسلم لذلك الأمر عند فتح مكة، قال مخاطبًا قريشًا: ((يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟ قَالُوا: خَيْرًا، أَخْ كَرِيمٌ وَابْنُ أَخْ كَرِيمٍ، قَالَ: أَذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطَّلَقَاءُ))^(١٥)، فأعطاهم حريتهم الكاملة في الفكر والحركة، تلك الحرية التي بنى دولة الإسلام عليها،

(١٤) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: الكواكبي، المطبعة العصرية، حلب، ص (٥٣).
(١٥) رواد البيهقي في السنن الكبرى، رقم: ١٨٢٧٦، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣.

من قيم الحرية ما أكد عليه ربي بن عامر رسول المسلمين في مجلس يزدجرد بقوله: (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام)^(١٦)، فهذا هو العمل والهدف الأسمى لمفهوم الخلافة والحكم، بل إنه لمن أولويات الحاكم أن يحرر الإنسان من عبودية غير الله ويطلق له العنان ليقوم بواجبه في عمارة الأرض والإنسان ونشر الدعوة والدين، يقول سيد قطب^(١٧): (ومن جعل للعرب وجودًا وقوة وقيادة غير التحرر من عبودية غير الله، وظلت لهم قيادتهم ما استقاموا على الطريقة، حتى إذا انحرفوا عنها وذكروا عنصريتهم وعصبيتهم وتركوا راية الله ليرفعوا راية العصبية نبذتهم الأرض وداستهم الأمم، وما العرب بغير الإسلام؟ وما الفكرة التي قدموها للبشرية أو يملكون تقديمها إذا هم تخلوا عن هذه الفكرة؟ إن كل أمة قادت البشرية في فترة ما كانت تمثل فكرة، والأمم التي لم تكن تمثل فكرة كالنتار الذين اجتاحتها الشرق والبرابرة الذين اجتاحتها الدولة الرومانية في الغرب لم يستطيعوا الحياة طويلا، والفكرة الوحيدة التي تقدم بها العرب للبشرية كانت هي العقيدة الإسلامية، وهي التي رفعتهم إلى مكان القيادة، فإذا تخلوا عنها لم تعد لهم في الأرض وظيفة ولم يعد لهم في التاريخ دور).

بغير الحرية لا يمكن للإنسان أن ينتج أو أن يبذل أو أن يتطور ويطور ما حوله وينهض بالأمة ويرقى، بل يظل أسيرًا

(١٦) ابن كثير: البداية والنهاية، (٦٢٢/٩).

(١٧) سيد قطب: في ظلال القرآن، (٣٩٨/٦).

(١٦) الإسلام وأوضاعنا السياسية: عبد القادر عودة، ص (٢٦٦).

أقوى مما كان، وما الباطل إلا جندي من جنود الحق لأن الباطل حين يعتو ويعربد في الناس يتساءل الناس متى يأتي الحق لينقذنا، وحين يستشري الباطل يذوق الناس مرارته ويكتوون بناره، فيعودون إلى الحق وإلى الصواب، ويطلبون فيه المخرج حين تعضهم الأحداث^(٧)، وحكم الباطل لا يدوم ولا يستقر بل يتلاشى ويضمحل، ويبقى في اضطراب وانقلاب حتى يتهاوى أمام الحق وبلجه.

في بيعة العقبة الثانية أكد النبي صلى الله عليه وسلم مبدأ الطاعة شرطاً أساساً لقبوله القدوم إلى المدينة واستقراره فيها، سأله الأنصار: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، عَلَى مَا نُبَايِعُكَ؟) فقال لهم: ((نُبَايِعُونِي عَلَى السَّمْعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالْكَسَلِ، وَعَلَى النَّفَقَةِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ، وَعَلَى الْأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَعَلَى أَنْ تَقُولُوا فِي اللَّهِ لَا تَأْخُذْكُمْ لَوْمَةٌ لَأَئِمٍّ، وَعَلَى أَنْ تَنْصُرُونِي إِذَا قَدِمْتُ عَلَيْكُمْ وَتَمْنَعُونِي مِمَّا تَمْنَعُونَ عَنْهُ أَنْفُسَكُمْ وَأَزْوَاجَكُمْ وَأَبْنَاءَكُمْ، وَلَكُمْ الْجَنَّةُ))^(٨).

إن الطاعة حق من حقوق الحاكم وولي الأمر على الشعب حتى يستطيع إدارة أركان الدولة وتقويتها وهزيمة الأعداء، وقد ذكر لنا القرآن الكريم ما أصاب المسلمين يوم أحد عندما خالف بعضهم أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بتركهم مواقعهم على الجبل ونزولهم إلى ساحة المعركة، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ

(فالشريعة الإسلامية جعلت حرية القول حقاً لكل إنسان، بل جعلت القول واجباً على المسلم في كل ما يمس الأخلاق والمصالح العامة والنظام العام، وإذا كان لكل إنسان أن يقول ما يعتقد أنه الحق ويدافع بلسانه وقلمه عما يعتقد، فإن حرية القول ليست مطلقة وإنما هي مقيدة بأن لا يكون ما يُكتب أو يقال خارجاً على نصوص الشريعة وروحها)^(٩).

إن مبدأ حرية النقد للحاكم والمسؤول يعد أساساً لبناء دولة قوية، وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم قول كلمة الحق أفضل أنواع الجهاد في سبيل الله، جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: أي الجهاد أفضل؟ قال صلى الله عليه وسلم: ((كلمة حق عند إمام جائر))^(١٠)، فجعل نقد الحاكم الجائر والاهتمام بشؤون الأمة والسلطة وتقويمها من الدين بل أعظم أنواع الجهاد، وعندما دعا الإسلام إلى الحرية وحث عليها وقاتل لأجلها فهو إنما يريد من الإنسان أن يعود إلى أصل خلقته وفطرته التي فطره الله عليها حراً لا يعبد إلا الله، فلا عبودية ولا خضوع وانقياد إلا لله، (ولسنا نعني بالحرية هنا اتباع الشهوات وانطلاق الغرائز السفلى، فهذه بهيمية لا حرية، ولا نعني بها بلبله الأفكار وإثارة الفتن، فهذه فوضى لا حرية، إنما نعني بحرية المواطن أو الإنسان خلاصه من كل سيطرة تتحكم في تفكيره أو وجدانه أو حركته، سواء كانت سيطرة حاكم مستبد أم كاهن متسلط أم إقطاعي ورأسمالي متجبر)^(١١)، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمَرْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفَرْ﴾ [الكهف: ٢٩].

عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿[آل عمران: ١٥٢] هذا حال من يحددون عن طاعة الله ورسوله وطاعة ولي الأمر الذي يحكم بتوجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية، يذُب فيهم الجُبْن والنزاع ولا ينتهي حتى يوقعهم في الهزيمة.

الحرية

كما أن الطاعة حق للحاكم فالحرية حق للرعية، وعليه فإن القيمة الملازمة للطاعة هي الحرية، وهي جوهر حقوق الإنسان بل لا يكون الإنسان إنساناً كاملاً إلا بها، والحرية تعني أن يكون الإنسان متمتعاً بكامل إرادته في الاختيار بين وجوه متعددة بحسب قناعاته وأفكاره وأخلاقه، جاء في القرآن الكريم ما يؤكد قيمة الحرية وأهميتها في بناء الإنسان والبيان، فضيق الإسلام على العبودية والرق وشجع على الحرية والعتق؛ لتبدأ مرحلة بناء الدولة بالتأكيد على ضرورة أن يتصدر مشهد الإصلاح والبناء أمة من الناس تأخذ على عاتقها القيام بهذه المهمة، قال تعالى: ﴿وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، ففي هذه الآيات توجيه وخطاب من الله تعالى للمسلمين بضرورة وجود قوم يحملون همّ الأمة وإدارتها من الدعوة إلى بناء الدولة، وذلك بالكلمة الحرة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بكلمة الحق، ولا يتم ذلك إلا إذا تمتع الإنسان بحرية الكلام التي وهب الله إياها ليستخدمها تارة في الدعوة وتارة في النقد والتوجيه.

ولا يمكن أن ينتشر فكر أو تصلح دولة حرة أفرادها مسلوقة مصادرة، ولا بد من وجود أناس يحملون شرف الكلمة الحرة سلاحاً يقاتلون به كل طاغية ظالم ويدعون بها كل إنسان غافل نائم،

(٩) عبد القادر عوده: الإسلام وأوضاعنا السياسية، ص (٢٦٩).

(١٠) الحديث صحيح ورد في مسند أحمد، مؤسسة الرسالة،

(١٢٤/٣١)، رقم (١٨٨٢٨).

(١١) القرضاوي: الحل الإسلامي فريضة وضرورة، ص (٧٧).

(٧) الشعراوي: تفسير الشعراوي «الخواطر»، (٣٨٧/٧).

(٨) أخرجه أحمد عن جابر بن عبد الله، رقم ١٤٤٥٦، والحاكم عن جابر أيضاً وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال ابن كثير: هذا إسناد جيد على شرط مسلم.



أ.د. حسن الخطاف
أستاذ علم الكلام بجامعة آرتقلو ماردين

أيام تركستان والرّاية الحمراء نارٌ لم تخمد

الوحوش التي فتكت بشعبنا السوري أمام بصر العالم وسمعه، ويمثلها نظام بشار وطائفته وأنصاره، ومن ورائه العقيدة الصّفوية الإيرانية واللينينية الروسية المدعومة صينيا.

روايةٌ أدبية تُشعرك بالقضية التي كانت تُحرك الدكتور الكيلاني، قضية الأمة الممزقة والشعب المكلوم والطُهر الذي ولغت فيه الكلاب، فالأدب لا ينفصل عن الواقع لأنّ الأديب يحمل قضايا أمته في فكره وقلبه، فهي مداد قلمه ومبعث إلهامه، وشتان بين قضية أمةٍ يحملها الأديب -ساعياً إلى تحرّرها وإيقاظها بعد طول نوم، يربط حاضرها بماضيها، مُشفقاً عليها متألماً لما آلت إليه- وبين رسالة يحملها الأديب مضمونها يعجّ بالإسفاف والسقوط، فيعبث بقيم الأمة ويمزق ثوابتها، وما روايات نجيب محفوظ وإحسان عبد القدوس عنا ببعيد؛ ففي قضايانا العادلة المرتبطة بتحرير الإنسان من طُغاة العصر وظلمهم ينبغي أن لا نهمل الأدب بفروعه كلها، فقد كان النبي -عليه الصلاة والسلام- يتخذ من شعر حسان بن ثابت رضي الله عنه سيفاً لهجاء الكافرين الظالمين.

ينقل لنا الأديب الكيلاني على لسان «منصور» المجاهد التركستاني -بطل الرواية- قائلاً: (هؤلاء الشياطين ارتكبوا من الموبقات ما لا يُصدّق، لقد أخذ بعض رجالنا أسرى أثناء إحدى المعارك، ربطوهم على عجالات الدبابات وكانوا يتبارون

مدخل: الصّلة بين الأدب وتحرير الشعوب

هذا العنوان «أيام تركستان والرّاية الحمراء: نارٌ لم تخمد» استوحيته من رواية الأديب الدكتور نجيب الكيلاني^(١) -رحمه الله- المُسمّاة «ليالي تركستان»، وعندنا أن الرّاية الحمراء الصينية رمز لدماء الأبرياء، خاصّة المسلمين الذين سالت دماؤهم علي أيدي الصينيين بدافع العقيدة الماركسية اللينينية التي تحتل تركستان اليوم.

أحداث الرواية حول الصراع بين الشعب التركستاني المسلم والصين الشيوعية الحمراء بين ١٩٣٠-١٩٥٠م، قرأت رواية «ليالي تركستان» منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا طالب في المرحلة الثانوية، وكم كنت مستغرباً من وحشية الذئاب التي استطاع الدكتور الكيلاني -بما حباه الله من قلم مُعبّر- الكشف عن أنيابها الآثمة وهي تنهش في جسد الضحية البريئة التي جُلّ مطالبها العيش بأمنٍ وأمان! وقد زال الاستغراب كلّهُ بعد أن رأينا قطعان

(١) نجيب الكيلاني: هو نجيب بن عبد اللطيف بن إبراهيم الكيلاني، ولد في مصر عام ١٩٣١م في بيت ريفي، التحق بكلية الطب في جامعة القاهرة عام ١٩٥١م، ثمّ اعتقله عام ١٩٥٤م لانتمائه إلى جماعة الإخوان المسلمين ومشاركتهم في الحياة السياسية، ثم أفرج عنه ١٩٥٩م، تخرج في كلية الطب عام ١٩٦٠م، أسس رابطة الأدب الإسلامي فيها، وتوفي فيها عام ١٩٩٥م بعد إصابته بالمرض، يُعدّ نجيب الكيلاني -رحمه الله- رائد الرواية الإسلامية في العصر الحديث وعميد الأدب الإسلامي الملتزم بقضايا الأمة، له أكثر من سبعين كتاباً في النقد والشعر والقصة القصيرة والرواية، يدعو في أعماله إلى التسامح والخير والقيم الإسلامية والإنسانية الكبرى، من أبرز أعماله: «نور الله»، «عمر يظهر في القدس»، «عذراء جاكترنا»، «ليالي تركستان»، «عمالقة الشمال»، والثلاثة الأخيرة تُظهر تفاعله مع قضايا الأمة الإسلامية. محمد سيف الرحمن: مجلة القسم العربي، جامعة بنجاب، عدد ٢٤، ٢٠١٧، ص (٢٨٦-٢٨٩).

غير عليها الزمان، بل كيف تلبي تغيرات العالم وتطور الإنسان وإبداعه، فكان لا بد لحرية الفكر أن تطلق، وإذا انطلق الفكر وتحلر وازدهر استطاع الإنسان البناء والتقدم والرقى.

وإذا ما تتبعنا ما تعاني منه الكثير من الجماعات الإسلامية في زماننا هذا - سواء من كانوا ينتمون إلى تيارات أو مجموعات أو أحزاب أو روابط ونواد - نجد معظم مشكلاتهم تنبع من تشبّثهم بالقديم وتقديسهم له وعدم القدرة على التفكير خارجه خوفاً من المغامرة في التغيير أو لعدم الرغبة في التحلر، وأياً كان السبب فقد كان له دور سلبي أدى لإخفاقهم وتراجعهم أمام التطور الكبير السريع والتغيير والتقلب، وأدى إلى ضعف مخرجاتهم وتأثيرهم وصراعهم المستمر مع الأطراف والمكونات الأخرى، هذا رغم وجود مرونة وليونة في القرآن الكريم والسنة النبوية وما تناولته السياسة الشرعية من مفاهيم، تضع بين أيديهم حلولاً لما يواجهونه من عقبات، لكن الأمر بحاجة إلى إطلاق لحرية الفكر والرأي وتقبل الرأي الآخر واستيعاب جميع الأطراف في ذلك.

ومن أبرز الآيات التي تضمنت ودلت في معناها على أهمية الحرية قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ (٤) وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٥) لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ (٦)﴾ [الكافرون] وقوله تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] ففي الآيات توجيه واضح نحو حرية الاعتقاد، وهي أول حقوق الإنسان، فالذي يسلب إنساناً حرية الاعتقاد إنما يسلبه إنسانيته،

والصلاح، كما أنها تحفظ له المشاركة بأعباء السلطة ووظائفها الكثيرة؛ لأن السلطة حق مشترك بين رعايا الدولة وليست حكراً على أحد أو وقفاً على فئة دون أخرى، واختيار الإنسان للسلطة قد يتم بنفسه أو من ينوب عنه من أهل الحل والعقد، وهم أهل الشورى الذين ينوبون عن الأمة كلها في كثير من الأمور، فيوجهون الحاكم إلى التصرفات ذات الصفة العامة أو الدولية كإعلان الحرب أو الهدنة أو إبرام معاهدة أو تجميد علاقات أو وضع ميزانية أو تخصيص نفقات لجهة معينة أو غير ذلك من التصرفات العامة التي لا يقطع فيها برأي الواحد^(١٧).

هذه الحرية - التي دعا إليها الإسلام وجعل لها ضوابط وقواعد تهم أشكالها وأنواعها كلها - قيمةٌ عليا، فيها العزة والقوة والتمكين، لا يعاديها إلا الظلمة والجبارون، يقول الكواكبي: (وإنَّ أخوف ما يخافه المستبدون الغربيون والشرقيون أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية أفضل من الحياة)^(١٨)، وأنهم بالحرية يحققون أمانهم ويعيشون بكرامة ويننون دولة الحق والعدل والمساواة.

خاتمة:

بقيمتي الطاعة والحرية - الأولى بوصفها حقاً للحاكم والثانية حقاً للمحكوم - بنى أسس دولة عادلة مستدامة، وهذا لا يعني أن الدول تقوم بهاتين القيمتين فقط بل هناك قيم أخرى لا بد من وجودها معهما، منها العدل والشورى، وقد غني هذا البحث بمبدأي الطاعة والحرية لما لهما من مركزية في جانب الحاكم والمحكوم، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

والإسلام الذي ينادي بأن لا إكراه في الدين هو الذي يبين لأصحابه أنهم ممنوعون من إكراه الناس على هذا الدين؛ فالدولة التي تقوم على مبدأ حرية الاعتقاد وما دونها هي الأولى والأقدر على إدارة أمور الناس وإشراكهم في بناء الدولة وعمارتها؛ لما في ذلك من أثر إيجابي على قوة الدولة وثباتها.

ومن أصناف الحرية التي سبق إليها الإسلام ونظمها حرية التملك، فيحق لرعايا الدولة الإسلامية على اختلاف مللهم ونحلهم أن يملكوا ما شاؤوا من العقارات والأراضي والمنافع على اختلاف أشكالها وأنواعها، فينتفع أحدهم منها بقدر حاجته في غير سرف ولا تقتير، على أن يؤدي ما يوجبه الإسلام في المال من حقوق، وحرية التملك هذه يجهلها كثيرون ممن يتكلمون في الإسلام بغير علم، إن حرية التملك تُسهم في تقوية الدولة فلا تكون شبيهة بمزرعة مالكةا واحد، بل ملكيات متعددة وشرارات مختلفة ومتنوعة واستثمارات من شأنها تقوية الدولة، وإن الدولة حينما تحجر على الإنسان وتمنعه من استخدام حريته في التملك وتقاتله وتصادر أمواله وممتلكاته تكون قد أسهمت في ظهور أسباب اضطرابها ودمارها.

ومن الحريات التي أقرها الإسلام الحرية السياسية لكونها مطلباً مهماً وحاجة ملحة ما زالت في ازدياد مستمر بتوسع العالم وتقدم العلم وكثرة خلافاته وإشكالاته، وتلك الحرية لو أطلقت لشكلت عاملاً مهماً في تجاوز الكثير من الصعوبات والإشكالات ولردمت كثيراً من الفجوات، (فالحرية تلك تكون في حق الإنسان باختيار سلطة الحكم وانتخابها ومراقبة أداؤها ومحاسبتها ونقدها وعزلها إذا انحرفت عن منهج الله وشرعه، وحولت ظهرها عن جادة الحق

(١٧) الشهود، مفهوم الحرية بين الإسلام والجمهورية، ط ٢٠١١ ص

(٤٨).

(١٨) الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ص (٥٤).

قد اتّفقوا على تقسيم تركستان قسمين: تركستان الغربية لتكون خاضعة للروس، وتركستان الشرقية لتخضع للصين، وصار بينهما تحالف فيما بعد ضد التركستانيين، وتم هذا الاتفاق عام ١٨٨١م^(١).

يُطلق الآن على منطقة تركستان الغربية اسم آسيا الوسطى، وهو الاسم الذي أطلقه الروس ونشروه في العالم منذ عام ١٩٢٥م، وحُظرت التسمية القديمة؛ فأخذت الخرائط الدولية بهذه التسمية الجديدة وصار الاسم مُثبتاً عليها، ويشمل اسم آسيا الوسطى تركستان الشرقية، وتُعرف تركستان في المصادر العربية القديمة باسم «بلاد التُّرك» حيث كان الترك ينتشرون في تلك المنطقة على شكل قبائل، وجميع بلاد الترك تقع خلف نهر جيحون، واسمه حالياً أموداريا Amudaria^(٢)، وأما نهر سيحون المعروف الآن بنهر سرادريا sirdari فيصب في بحر «آرال» في جمهورية كازاخستان^(٣).

رابعاً: العلماء من تركستان

منحت بلاد تركستان -خاصّة القسم الغربي منها- الأمة الإسلامية عشرات العلماء العظام الذين لا ينسى فضلهم على أمة الإسلام عبر تاريخ الأمة الطويل في شتى أنواع العلوم والمعرفة، منهم الشيخان الإمام البخاري من بخارى (ت: ٢٥٦هـ) ومسلم بن الحجاج النيسابوري (ت: ٢٦١هـ)، وأبو منصور الماتريدي من محلّة ماتريد في سمرقند (ت: ٣٣٣هـ)، والفقيه أبو الليث السمرقندي الحنفي (ت: ٣٥٧هـ)، وأبو داود السجستاني (ت: ٢٧٥هـ)، والترمذي من ترمذ على نهر جيحون (ت: ٢٧٩هـ)، والنسائي (ت: ٣٠٣هـ) من مدينة «نسا» بفتح النون والسين المهملة من بلاد خراسان، وأبو بكر القفال الشاشي الطشقندي (ت: ٣٣٥هـ)، والكاساني السمرقندي (ت: ٥٨٧هـ)، وشمس الدين السرخسي الحنفي صاحب المبسوط (ت: ٥٩٢هـ)، وشيخ الإسلام المرغيناني الفرغاني (ت: ٥٩٣هـ)، والزمخشري الخوارزمي صاحب الكشف (ت: ٥٣٨هـ)، والفَرَبَرِيّ راوي صحيح البخاري (ت: ٣٢٠هـ)، والشيخ عبد القاهر الجرجاني (ت: ٤٧١هـ) صاحب البلاغة، والسكّاكي الخوارزمي (ت: ٦٢٦هـ) صاحب مفتاح العلوم، والسيد الشريف الجرجاني صاحب التعريفات (ت: ٨١٦هـ)، وغيرهم كثير^(٤).

سكانها أتراكًا، وبعد الاستيلاء على خراسان بدؤوا يتقدمون نحو الشرق، واستولوا على مدينتي بلخ وهرات، ووصلوا إلى نهر جيحون، وفي عهد معاوية رضي الله عنه صارت خراسان بأكملها قاعدة للانطلاق نحو تركستان الشرقية، ولما عُيّن الحجاج بن يوسف الثقفي والياً على خراسان ولّى قتيبة بن مسلم الباهلي على الجهاد في تلك الناحية، ففتح سمرقند وأقام فيها مسجداً^(٥)، ثم قام بتجميع الجيوش منطلقاً نحو الشرق مجاهداً في سبيل الله حتى فتح مدينة كاشغر في تركستان الشرقية سنة ٩٦هـ، وهو تاريخ دخول الإسلام إليها على يد قتيبة بن مسلم الباهلي^(٦).

وكان لأخلاق التجار ومعاملتهم الطيبة الأثر البارز في انتشار الإسلام في تلك البقاع، ولولا ذلك لما استطاعوا الوصول إلى ما وصلوا إليه^(٧)، وعندما رأّت قبائل الأتراك الدين الإسلامي الذي كان حريصاً على العدالة والمساواة بعيداً عن نهب الثروات والطمع في البلدان، دخلوا في دين أفواجاً وصار الإسلام ينتشر بين القبائل المجاورة؛ فتقلصت الديانات السائدة آنذاك^(٨)، وقد كان لهؤلاء الأتراك دور كبير في مسيرة الدولة العباسية، فصار الكثير منهم وزراء وقادة.

ولما دبّ الضعف في الدولة العباسية أدرك الأتراك ضرورة القيام بدولة تجمع المسلمين في وسط وشرق آسيا بغية توحيدهم وحمايتهم من أعدائهم، فقامت الدولة الغزنوية في جنوب بلاد الأفغان والهند، وكان للسلطان محمود بن سبكتكين الغزنوي (٣٥٧-٤٢١هـ) أعظم قادة الدولة الغزنوية الدور الأكبر في فتوح الهند، ثم جاءت الدولة السلجوقية، فاتّحد الجميع تحت مظلتها^(٩)، وقامت بعدها أكثر من دولة محلّية؛ فانقسمت المنطقة إلى دويلات تناحرت فيما بينها، وهو ما سهل مجيء روسيا القيصرية التي كانت تنتظر هذه الفرصة خاصة في القرن السادس عشر الميلادي، فترك الروس خلفهم مجازر «تشيب لها» الولدان وضحايا تسير بذكرها الركبان^(١٠)، وبعد حرب كُرّ وفرّ بدأت تسقط المدن الكبرى من تركستان الغربية بيد الروس مثل طشقند وبخارى وخوارزم.

في هذه الأوضاع اتّجه الصينيون إلى تركستان الشرقية، وبدأ احتلال بعض أقاليمها بتاريخ ١٧٥٧م، وكان الروس والصينيون

(١٤) حقائق عن التركستان ص (٤)، <http://www.uyghurweb.net/Ar/MISLAMIIY.pdf>.

(١٥) تاريخ الطبري، دار التراث - بيروت، ط ٢، ١٣٨٧هـ، (٥٠٠/٦). تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (١٣).

(١٦) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (١٦-١٥).

(١٧) أعضاء على تاريخ توران: السيد عبد المؤمن السيد كريم، ص (٨٥).

(١٨) تركستان قلب آسيا، مصدر سابق، ص (٤٣٠، ٦٢٢-٣٨).

(١٩) المرجع السابق، ص (١٠٣).

(٢٠) حقائق عن التركستان الشرقية، ص (١٢، ١٤٢)، <http://www.uyghurweb.net/Ar/MISLAMIIY.pdf>.

(٢١) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٨ - ٣٩ - ٤٢ - ٤٦).

(٢٢) تركستان الشرقية تحت الحكم الشيوعي الصيني: عز الدين أحمد الورداني فرج، جامعة الزقازيق، معهد الدراسات والبحوث الأسيوية، ص (١٠).

(٢٣) أعضاء على تاريخ توران: السيد عبد المؤمن السيد كريم، ص (٢٦).

وما وراء النهر ومرغيانة وأريانة وخرقانيا وباقتريا وأشروسنة^(٥)، وتُعرف باسم «توران»^(٦)، وتركستان مرادفة لكلمة ما وراء النهر، فهما تدلان على معنى واحد^(٧).

ثانيًا: طبيعة تركستان الخلابة

اشتهرت تركستان منذ القديم بجمال منظرها وكثرة البحيرات والأنهار فيها، وبالجبال المكسوة بالخضرة والأزهار وتعدد مساجدها وقلاعها^(٨)، يقول ياقوت الحموي واصفًا تركستان: (ما وراء النهر يراد به ما وراء نهر جيحون بخراسان، فما كان في شرقيّه يُقال له بلاد الهياطلة - وفي الإسلام سموه «ما وراء النهر» - وما كان في غربيّه فهو خراسان وولاية خوارزم، وما وراء النهر من أنزه الأقاليم وأخصبها وأكثرها خيرًا، وأهلها يرجعون إلى رغبة في الخير والسخاء... فأما الخصب فيها فهو يزيد على الوصف، ويتعاضد عن أن يكون في جميع بلاد الإسلام وغيرها مثله، وليس في الدنيا إقليم أو ناحية إلا ويقحط أهلها مِرارًا قبل أن يقحط ما وراء النهر)^(٩).

ويرى ياقوت الحموي أن بلاد تركستان «اسم جامع لجميع بلاد الترك»^(١٠)، وبلاد الترك كبيرة واسعة وأوسعها «بلاد التغرغز»^(١١)، وهم الإيغور النسبة الأكبر من السكان، وقد سُمّي العربُ السكان الأتراك في تلك المناطق قبل هجرة الإيغوريين إليها باسم التَغَرغز، وبقي هذا الاسم يُطلق عليهم لاحقًا^(١٢)، ولما أسلم الإيغور - وهم النسبة الأكبر هناك - أسلم أبناء المنطقة، وأخذوا ينشرون الدين الإسلامي^(١٣).

ثالثًا: دخول الإسلام إلى تركستان، واحتلال الروس والصين لها

بعد موقعة نهاوند استولى المسلمون على إيران، وهرب يزدجرد آخر ملوك الدولة الفارسية إلى تركستان، التجأ إلى الأتراك وأقام في مدينة مرو، وفي عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه تم فتح خراسان، وهي من بلاد تركستان الغربية، وكان أكثر

بتصويب الرصاص إلى آذانهم وعيونهم^(١٤)، وعندما جاء قائدٌ صيني جديد ليقتضي على الثورة التركستانية، أراد أن يُثبت أنه جدير بمنصبه - وكان شرسًا عصبيًا انتزعت الرحمة من قلبه - فاتخذ خطة قمع قاسية خبيثة، وكان أبشع ما فيها أنه أصدر أمرًا بالقبض على الطبقة المثقفة في تركستان خاصة الكتاب والشعراء والعلماء حتى أولئك الذين لم يحملوا السلاح من قبل، وأقام مذبحه رهية ترددت أنبأؤها الفظيعة في كل أنحاء البلاد^(١٥).

هذا الصنيع هو جزء مما فعله بشار وطائفة وأعوانه بالشعب السوري، ألم يكن الشعراء والأدباء والعلماء والمثقفون هم المطلوبين أولًا للنظام السوري إذا شئ منهم رائحة الثورة، وهذه الوحشية التي يصورها الدكتور الكيلاني ذرةً من الإجرام الذي سيم به معارضو النظام في سورية؛ لذا يقتضي الأمر تحريك الأدب بشعره وقصصه ومسرحياته ورواياته لمناصرة الثورة السورية، نعم بعض الأدب السوري لم يكن بعيدًا عن الثورة السورية، فالشاعر السوري أنس دغيم سخر قلمه نصرةً للثورة السورية، والأديب عبد الله مكسور ابن حمدة في روايته «أيام في بابا عمرو» ورواية «عائد إلى حلب» تترجم لك واقع الثورة السورية، ناهيك عن أغاني الثورة السورية ورَجَلها الذي كان يُلهب حماس الثائرين.

ومما تشابه فيه الصُور إلى حد التماثل بين الشيوعية الصينية والنظام الطائفي النصيري معاقبة المخالفين من خلال تسليط علوهم على أعراض المعارضين واغتصاب نسايتهم، يُصوّر الدكتور الكيلاني تلك الفتاة المسماة «خاتون» ابنة العائلة المتميزة الرفيعة من مدينة كاشغر: كيف قام الضابط الصيني «صن لي» باستباحة عرضها وإجلاسها كُرْها على فخذه وهي عارية مكتوفة اليدين على مرأى من جنوده العلوج السُّكاري، وكيف كانت دموعها تهطل كالமطر وهي تدعو الله، فيردُّ الضابط ساخرًا: أين الله! الموجود أنا وليس الله^(١٦).

تلك فعلة شنيعة وسياسة قذرة سنهنا الأسد الأب في سورية في أحداث حماة عام ١٩٨٢ م، وسار عليها ابنه من بعده.

أولًا: معنى تركستان وموقعها الجغرافي

كلمة تركستان فارسية مركبة من مقطعين: «تُرْك» أي شعب الترك، و«ستان» أي أرض أو محل، فمعناها أرض الترك، وكانت هذه البلاد عند العرب مؤلفة من أقاليم عدة، منها «خوارزم وصغد

(٥) تركستان قلب آسيا: عبد العزيز جنكيز خان، طبع ونشر الجمعية الخيرية التركستانية، ص (١٤).

(٦) أضواء على تاريخ توران: السيد عبد المؤمن السيد كريم، تقديم أحمد محمد جمال، ص (٨).

(٧) حقائق عن التركستان الشرقية: محمد أمين إسلامي التركستاني وآخر، ١٩٦٤، ص (٢) <http://www.uighurweb.net/Ar/MISLAMIY.pdf>

(٨) تركستان قلب آسيا: مصدر سابق، ص (١٤).

(٩) معجم البلدان: ياقوت الحموي، دار صادر، بيروت، ط ٢، ١٩٩٥ م، (٤٥/٥).

(١٠) المرجع السابق (٢٣/٢).

(١١) المرجع نفسه (٢٣/٢).

(١٢) تركستان قلب آسيا: عبد العزيز جنكيز خان، ص (٣٢). تركستان الشرقية تحت الحكم الشيوعي

الصيني في الفترة ١٩٤٩-٢٠٠٢ م، رسالة دكتوراه، جامعة القزوين، ص (٩).

(١٣) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٧٣، ص (١٩).

(٢) ليالي تركستان، ص (١٧٩-١٨٠)، الصحوه للنشر والتوزيع، سورية، ط ٢٠١٣ م.

(٣) المرجع السابق، ص (١٦٣).

(٤) ليالي تركستان، ص (٦١-٦٢).

السائدة ومذهب أبي حنيفة هو السائد هناك^(١٠)، وأكثر من ٧٥٪ من سكانها يدينون بالإسلام، وهم السكان الأصليون، والبقية يعتقدون معتقدات بلدانهم التي جاؤوا منها بسبب الحروب والتنافس على المنطقة وأبرزها البوذية^(١١).

٧ - المدن الرئيسة القديمة وتحريف الصينيين لأسمائها:

١. أومجي: هي العاصمة، وتسمى تيهوا، تقع في الجنوب.
٢. كاشغر: وتسمى شولي، تقع على رافد لنهر تاريم، فتحها قتيبة بن مسلم الباهلي سنة ٩٦ هـ^(١٢)، وكانت في زمانها من أبرز المناطق، وتسمى اليوم شوفو.
٣. يارقند: وتسمى شوتسي، وخوتان وتسمى «هوتي إن».
٤. أقصو: وتسمى وين سو، فيلحظ التغير في أسماء المدن لتقطع الصلة بين القديم والحاضر^(١٣).

٨ - احتلال الصين لتركستان و «تصيينها»

استولت الصين على تركستان الشرقية أول مرة عام ١٧٦٠ م، قتلت الصين وقتها نحو مليون مسلم، ثم بدأت بنقل أعداد كبيرة من الصين إلى تركستان فيما يعرف سياسياً باسم «تصيين تركستان الشرقية» محاولة إلغاء الكيان التركستاني والقضاء على الإيغور؛ فقامت تركستان بعدة ثورات استمرت سنوات طوَّالاً أتعبت الصينيين وقتلت منهم كثيراً، لكنها لم تغلح لقوة القبضة الصينية وتآمر العالم معها، وقد استشهد من التركستانيين عشرات الألوف على يد الغزاة، ولقوة هذه الثورات حصلت تركستان الشرقية على الاستقلال الذاتي عام ١٩٤٦ م، ولكنها بعد مضي ثلاث سنوات مُنيت بهجمة عنيفة من القوات الصينية الشيوعية واحتلتها في ١٢/١٠/١٩٤٩ م^(١٤)، ومنذ الاحتلال الصيني لتركستان أول مرة حتى الثورة الصينية عام ١٩١١ م أقامت الصين لهم مذابح جماعية، وشردت الأهالي وسبّت النساء والذرياري^(١٥). ألغيت اسم تركستان جذرياً، وأطلقوا عليها إقليم «شينجيانغ»، وهي كلمة صينية مركبة من SHIN ومعناها جديد، ومن جانغ JANG ومعناها إقليم أو قطر أو أرض، ومعنى الكلمتين الإقليم الجديد أو المستوطنة الجديدة «NEW TERRITORY»^(١٦)، ومضت الصين بعد الاحتلال الكامل لها بتصيعدها في إخفاء

والفاكهة، وفي الصيف ينتشر الرعاة على سفوح الجبال حيث تذوب الثلوج وتنمو النباتات، وأبرز أنواع المواشي الأغنام والماعز والبقر^(١٧).

٥ - الثروات المعدنية:

في تركستان كميات كبيرة من الفحم الحجري (١٩, ٢) تريليون طن بما يوازي ٤٠-٥٠ مليارات طن، احتياطي الصين كلها، والبترول يقدر بما بين (٥, ٦, ٢, ٨) مليار طن، توازي ثلث إجمالي الاحتياطي الصيني منه، وفيها الرصاص والتوتياء والصودا والملح والرصاص والحديد والنحاس وغيرها من المعادن الاستراتيجية كاليورانيوم والذهب^(١٨)، وبحسب معطيات عام ١٩٨٨ م ثمة ٧٠٠ كيلو متر مربع من المناطق التي يحتمل وجود البترول فيها أي ما يقارب ٨٠٠ مليون طن من الزيت الخفيف والثقيل، و٣٠ مليار متر مكعب من الغاز الطبيعي؛ لهذا فإن الخبراء الدوليين يعدون تركستان الشرقية عصب اقتصاد الصين ومصدر صناعيتها الثقيلة، وهي قبل هذا عصب الإنتاج الذري الصيني الذي يعتمد أساساً على ما تنتجه تركستان الشرقية من اليورانيوم ذي النقاوة العالية^(١٩).

٦ - السكان واللغة والديانة:

تركستان ليست جنساً واحداً، ويعود ذلك إلى أسباب عدة منها موقعها التجاري حيث كانت محطةً لأنظار الغزاة، وأبرز سكانها الإيغور الذين يشكلون النسبة الأكبر من عدد السكان، وهناك القازاق والصينيون والقرغيز والأوزبك والمغول والهوي، والهوي يرجعون إلى أجدادهم من العرب الفاتحين^(٢٠)، وقد قامت للإيغور دولة، استطاعوا السيطرة على تركستان الشرقية كاملة ومنغوليا وبعض ولايات الصين، وكانوا في أوج قوتهم في تاريخ ٧٤٠ م-٨٤٠ م، وخسروا فيما بعد؛ فاضطروا لترك منغوليا، وانحصرت دولتهم في تركستان الشرقية^(٢١).

انتشرت اللغة العربية بعد الفتح الإسلامي حتى صارت اللغة الرسمية والوحيدة، ثم جاءت بعدها الفارسية بعد أن ضعفت الخلافة الإسلامية، ثم سادت اللغة التركية، والكتب الدينية أكثرها بالعربية ثم الفارسية^(٢٢)، ولكن تبقى اللغة التركية هي

(١٠) تركستان قلب آسيا، ص (١٤).

(١١) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٥).

(١٢) الكامل في التاريخ: ابن الأثير، ت: عمر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت - لبنان، ط ١، ١٤١٧ هـ-١٩٩٧ م، (٦٧/٢).

(١٣) انظر في المدن السابقة: تركستان الصينية الشرقية، ص (٣٦).

(١٤) حقائق عن التركستان الشرقية، ص (٩)، <http://www.uyghurweb.net/Ar/MISLAMIY.pdf>.

(١٥) تركستان الصينية الشرقية، ص (٤٧).

(١٦) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة، مصدر سابق، ص (١١).

(٢٤) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٠). موقع تبيان: نضع الوعي، منشور في ٣٠ ديسمبر ٢٠١٥ <https://tipyan.com/east-turkistan>

(٢٥) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣١).

(٢٦) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، (دراسة نقدية لأطروحات وسياسات صينية)، (ندوة تركستان الشرقية الحرة-إسطنبول ٢٠/١٢/٢٠١٠): أكرم حجازي، ص (١٠).

(٢٧) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٣).

(٢٨) تركستان قلب آسيا، ص (٣٢).

(٢٩) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٥).

خامساً: انقسام تركستان إلى قسمين

انقسمت تركستان بسبب الاحتلال إلى قسمين: تركستان الغربية و تركستان الشرقية، وتشكل تركستان الغربية من ست جمهوريات هي: كازاخستان، قرغيزستان، أوزبكستان، تركمانستان، طاجيكستان، أذربيجان، واستقلت جميعها عن الاتحاد السوفيتي عقب تفككه عام ١٩٩١م، وتبلغ مساحة تركستان الغربية قريبا من (٤١٠٦٠٠٠) كم^٢، أربعة ملايين ومائة وستة آلاف كم^٢.

سادساً: تركستان الشرقية

تركستان الشرقية هي المُحتلة اليوم من الصين، وهي موضوع حديثنا.

١ - الموقع الجغرافي:

يحددها من الشمال الغربي ثلاث جمهوريات إسلامية هي: كازاخستان وقيرغيزستان وطاجيكستان، ومن الجنوب: أفغانستان وباكستان، ومن الشرق الصين، ومن الشمال منغوليا، ولها من الشمال الغربي حدود مع روسيا، وهي بذلك تتمتع بموقع استراتيجي للتجارة العالمية؛ فهي سلطة وصل بين منغوليا والصين والتبت والهند، وقد كانت منذ القديم صلة وصل بين الشرق والغرب من حيث وقوعها على طريق الحرير^(٢٤).

٢ - المساحة:

لم أجد رقما دقيقا لمساحة تركستان الشرقية، هناك من ذكر أن المساحة هي (١٠٧١٠،٧٤٥ كم^٢)^(٢٥)، مليون وسبع مئة وعشرة آلاف وسبع مئة وخمسة وأربعون كم^٢، وهناك من يرى أنها (١٠٦٦٠،٠٠٠ كم^٢) مليون وستمائة وستون ألفا^(٢٦)، ومن يرى



(٢٤) تركستان قلب آسيا، ص (١٣).

(٢٥) تبيان <https://tipyan.com/east-turkistan> - ٣٠ - ديسمبر، ٢٠١٥، ومدونات الجزيرة، الاثنين ٢٩ مايو ٢٠١٧ بقلم محمد سرحان.

(٢٦) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٣٢).

(٢٧) موقع تبيان: مصنع الوعي، منشور في ٣٠ ديسمبر ٢٠١٥ - <https://tipyan.com/east-turkistan>

أيام تركستان والرأية الحمراء

أن المساحة هي (١٠٨٢٤،٤١٨ كم^٢) مليون وثمان مئة وأربعة وعشرون ألفا وأربع مئة وثمانية عشر^(٢٨)، وثمة من قال: إن مساحتها (١٠٥٠١،٠١٣ كم^٢)^(٢٩)، وإذا أخذنا بالرقم الأقل فإن مساحة تركستان أكبر من مساحة سورية بثماني مرات وبحجم تركية مرتين^(٣٠).

٣ - التقسيمات الجغرافية:

تتألف تركستان الشرقية من سلسلة من الجبال «جبال ألتي» التي تفصلها عن منغوليا من جهة الشمال، وجبال «تيان شان» في الجنوب، وجبال التين تاغ التي تفصل التبت عن تركستان، ويصل ارتفاعها إلى ٦٠٠٠م، وفيها حوض مائي كبير وأحواض كثيرة داخلية صغيرة، وفيها نهران هما إيلي وتاريم الذي يبلغ طوله ١٥٠٠ كم ويتشكل من ذوبان الثلوج من الجبال الغربية، وهذا ما يجعل جبالها خضراء، وفيها صحراء واسعة تصل مساحتها إلى ٦٤٧،٢٢٠ كم^٢^(٣١)، وأما نهرا سيحون وجيحون ففي تركستان الغربية^(٣٢).



جانب من طبيعة تركستان

٤ - الحياة الاقتصادية:

في تركستان الزراعة البعلية، وهي قليلة بسبب قلة هطول الأمطار نتيجة التبخر المحلي^(٣٣)، وأبرز المزروعات الحبوب وخاصة القمح، وأما زراعة الرّي فهي كثيرة منتشرة حول الأنهار، وتبلغ مساحة الأراضي الزراعية أكثر من ١٥٠ مئة وخمسين ألف كم^٢، وأبرز المزروعات القمح والذرة والرز والشعير والقطن والتبغ

(٢٨) حقائق عن التركستان الشرقية، ص (٦)، <http://www.uyghurweb.net/Ar/>، MISLAMIIY.pdf.

(٢٩) تركستان قلب آسيا، مصدر سابق، ص (١٣).

(٣٠) تبلغ مساحة تركيا ٧٨٣،٥٦٢ كم^٢.

(٣١) تركستان قلب آسيا، مصدر سابق، ص (١٥).

(٣٢) المرجع السابق، ص (١٥).

(٣٣) تركستان الصينية الشرقية: محمود شاكر، ص (٢٤-٢٨).

في تحقيق مطول لها عن البلاد عام (٢٠٠٨م) أنه بمساعدة الحكومة صار أتباع قومية «الهان» هم المسيطرين على غالبية المصانع والشركات، ولا يقبلون عمالة بها من غيرهم؛ فاضطر الإيغوريون لامتهان أعمال متدنية مثل الخدمة في المنازل^(٥٨). قامت شبكة BBC بتحقيق في معتقلات الصين التي بنتها للإيغوريين، واستهلت تحقيقها بالقول: (في ١٢ تموز ٢٠١٥ التقطت الأقمار الصناعية صورة بقعة من الرمل للصحراء والمدن الواقعة في أقصى غرب الصين، ليس عليها بناء إنما يبدو وكأنه يتم التحضير لمشروع ما، لم يخطر لأحد حينها أن تلك الصورة ستصبح لاحقاً نقطة البداية لتحقيق خاص بوحدة من أكثر مشكلات انتهاك حقوق الإنسان المعاصر، ولكن بعد أقل من ثلاث سنوات في ٢٢ نيسان ٢٠١٨ أظهرت صورة فضائية جديدة لتلك البقعة الصحراوية نفسها شيئاً جديداً، فقد بُني عليها معسكر ضخم مشدّد الحراسة مسوّر بجدار خارجي طوله ٢ كم، ويتضمن ١٦ برجاً للحراسة).

وأضاف التقرير: «ظهرت منذ العام الماضي، تقارير تفيد بأن الصين تدير نظام معسكرات لاعتقال للمسلمين في إقليم شينجيانغ، واكتشفت صورة أحد هذه المعسكرات في البقعة المذكورة من قبل باحثين كانوا يبحثون عن دليل على برنامج الخرائط العالمي الإلكتروني «غوغل إرث» حول الوجود الفعلي لمثل تلك المعسكرات، ويعد نحو ساعة بالسيارة عن مدينة «أورومكي» عاصمة الإقليم.

حاول القائمون على التقرير التواصل مع الناس لمعرفة ما الذي يجري داخل هذه المعسكرات لكنهم فشلوا لأن الناس يخافون من الحديث، وظهر لهم بعد جهد طويل من خلال التقاط صور للمعسكر أنها مراكز لإعادة التربية والتأهيل؛ لكي يصبحوا مواطنين صالحين في نظر الصينيين.

وختم صحافيو BBC تقريرهم بالقول: (تضيف تقاريرنا هذه دليلاً على أن برنامج إعادة التعليم الجماعي هذا ما هو إلا برنامج اعتقال ومصادرة لحرية آلاف المسلمين من دون محاكمة أو تهمة أو أي إجراء قانوني من أي نوع)، وأضافوا أن (الصين تعلن أن خطتها هذه ناجحة للحد من الإرهاب والتطرف والحفاظ على الأمن والاستقرار، لكن التاريخ يحمل العديد من السوابق المثيرة للقلق حول ما يمكن أن ينتهي به مثل هذا المشروع)^(٥٩).

على نقض الإسلام ومعتقداته وترديد شعارات الحزب الشيوعي؛ فلا وجود لشيء يسمى الله أو الدين.

كما مرّ الإيغور بتهديدات الإبادة الجماعية، صرحت بها السلطة الصينية لصحيفة غلوبال تايمز إذ قالت: (يمكننا اللجوء إلى كل الإجراءات التي تحقق استقرار الصين إلى الحد الذي يبدو فيه القتل الجماعي أمراً غير مُستبعد)^(٥٦)، وطُبقت سياسة تحديد النسل في تلك المناطق، وهي سياسة معمول بها في الصين لكنّ التركيز الأكبر كان على تركستان^(٥٣) للتقليل من السكان الأصليين، وذلك بحيث يصبح التركستانيون أقلية تذوب في الأعراق الأخرى^(٥٤).

وأول مرة تنجح منظمة دولية (Human Rights Watch) بالتعاون مع منظمة هيومن رايتس الصينية في التحقق من حزمة القوانين الرسمية السرية والعلمية والممارسات الصينية ضد الإيغوريين في تركستان الشرقية، وتوثقها في تقرير رسمي بعنوان: «ضربات مدمرة: القمع الديني للإيغور في شينجيانغ»، صدر في ١٢ نيسان ٢٠٠٥ على امتداد ١١٤ صفحة، ويشير التقرير إلى أن الوثائق التي تم الحصول عليها والمقابلات التي أجرتها المنظمة في الصين تكشف عن نظام متعدد الأطر لمراقبة وضبط وقمع النشاط الديني للإيغور، وتنقل عن وانغ لقوان أمين عام الحزب في شينجيانغ قوله: (إن المهمة الكبيرة التي تواجهها السلطات في شينجيانغ هي إدارة الدين وتوجيهه ليكون خاضعاً للمهمة المركزية في البناء الاقتصادي وتوحيد الوطن وحماية الوحدة الوطنية)^(٥٥)، ومن ذلك القوانين التي تمنع الصغار من المشاركة في أي نشاط ديني، وبحسب إحدى الوثائق الرسمية: (لا يجوز للأهل والأوصياء الشرعيين السماح للصغار بالمشاركة في النشاطات الدينية)^(٥٦).

وبحسب جين فران أويس مدير مركز الدراسات الفرنسية عن الصين المعاصرة في هونج كونج فإن السكان الإيغور محصورون في المناطق الريفية، وفي الحرف الزراعية التي لا تضيف لهم أية مكاسب مادية أو معنوية توازي ما تقدمه المصانع والشركات البتروكيماوية لغيرهم من السكان^(٥٧)، وثمة إشارات إلى أن مستويات الدخل تفيد بأن الفارق بين سكان المدن والقرى وصل إلى ثلاثة أضعاف، ومن جهتها ذكرت كريستيان ساينس مونيتور

(٥٢) تقرير قناة الجزيرة بعنوان: هكذا تحاول الصين إنهاء الهوية الإسلامية للإيغور.

(٥٣) تركستان الشرقية تحت الحكم الشيوعي الصيني، مصدر سابق، ص (٤).

(٥٤) المرجع السابق، ص (٣).

(٥٥) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ص (١٦)، نقلاً عن كتاب «الصين: القمع الديني للمسلمين الإيغور»، ملخص تقرير منظمة هيومن رايتس ووتش Watch Human Rights، ١٢/٤/٢٠٠٥، نيويورك، موقع المنظمة: <http://www.hrw.org/de/news/١٢-٠٤/٢٠٠٥>.

(٥٦) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ص (١٧).

(٥٧) أفكار البنداري: تركستان الشرقية منجم ثروات للصين، مرجع سابق.

(٥٨) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ص (١٧).

(٥٩) اتحاد إيغور التعليمية <http://uymaariip.com/arabi?p=١٧٠٠> المصدر: بي بي سي ٢٥ / أكتوبر ٢٠١٨ م.

الإرهابية التي يرتكبها ناشطون من تركستان الشرقية في إقليم شينجيانغ الصيني تمثل مخاطر ليس على أمن واستقرار الصين وحدها وإنما على المنطقة كلها، وبناء عليه أعلن أن الصين «سوف تنضم إلى المجتمع الدولي في محاربة الإرهاب بما في ذلك في تركستان الشرقية»^(٤٧).

وتعمل الصين الآن على إقامة سجون كبيرة تضع فيها السجناء الإيغوريين، وكشفت بعضه هيئة الإذاعة البريطانية BBC من خلال تقرير مطول يُسلط الضوء على معسكرات الاعتقال التي خصصتها الصين لأقلية الإيغور المسلمة، وذلك تحت غطاء برنامج يقول النظام الشيوعي في بكين: إنه للتعليم الوطني، يهدف لإعادة تأهيل شعب الإيغور وزرع الانتماء القومي فيه، أو بعبارة أخرى: إلى سلبهم عن دينهم وإبعاد الأجيال الصاعدة عن الكتب الدينية والشعائر الإسلامية، واتخذت إجراءات قاسية لتطبيق ذلك، فلا يُسمح للمسلم بامتلاك واتساب، ويُعدّ الامتناع عن التدخين وشرب الخمر بدافع ديني جريمة، وقد اعتقلت أكثر من مليون من أقلية «الإيغور» لأجل غير مسمى.



مركز اعتقال جماعي للمسلمين الإيغور

عام ٢٠١٦م أسندت وزارة الإقليم إلى تشين تشوانغو مهندس معسكرات الاعتقال في الصين المسؤول البارز في الحزب الشيوعي، فأرسل هيئات الحزب الشيوعي إلى قرى الإيغور، ونشر نقاط التفتيش على نطاق واسع، وأغلق المساجد، وجمع عينات من الحمض النووي وبصمة العين القزحية للسكان الإيغور، ووضع كاميرات فيديو للمراقبة، وحلّل محتويات أجهزةهم الرقمية، وأقام معسكرات إعادة التثقيف التي يقبع فيها نحو مليون مسلم من أقلية الإيغورية، وتصفها الحكومة الصينية بالمستشفيات، وتعد المعتقلين فيها مرضى يجب تطهير أدمغتهم من الجرثومة الدينية وإعادة توطينهم وتثقيفهم سياسياً، فيجبرون في هذه المستشفيات

(٥١) المرجع السابق، ص (٢٧).

ملاحق تركستان الإسلامية؛ فأعلنت الكثير من القرارات التعسفية، منها أن الإسلام خروج عن القانون، وإلغاء الملكية الفردية، وهدم المساجد أو اتخاذها أندية لهم، وجعل اللغة الصينية هي اللغة الرسمية، ومنعهم من السفر؛ فصار أكثر الموظفين وقادة الجيش من الصينيين، وأما أغلب المسلمين فهم في مهنتهم التقليدية في الزراعة والرعي^(٤٨).

هُجر السكان الأصليون واستقدم السكان الصينيون إلى المنطقة بذريعة تنميتها وازدهارها، وقد صرّح «هو ياو بانغ» -أمين عام الحزب الشيوعي السابق وأعلى سلطة سياسية في الصين- لمجلة «نيوزويك الأمريكية ١٦/٦/١٩٨٦م» قائلاً: «تركستان الشرقية تعتبر مثل الصحراء الكبرى وحوض الأمازون، ذات إمكانات عظيمة على الازدهار، وتركستان الشرقية التي يسكنها ستة ملايين من الإيغور، و٣,٥ آلاف صيني، وبلغ إجمالي سكانها ١٤ مليون نسمة، تستطيع بسهولة استيعاب ٢٠٠ مليون صيني»^(٤٩)، وإذا ما تحقّق ذلك فمؤداه ذوبان الأقلية المسلمة في الصينيين.

٩ - ازدياد ظلم الصين لمسلمي تركستان بعد أحداث ١١/ أيلول/ ٢٠٠١م:

فيما مضى كانت عمليات الإبادة الصينية تقع خلف الأسوار بما فيها حملة حظر الإسلام، وتجري وقائعها بصمتٍ مريع دون أن يسمع أنين الضحايا أحد، ولا سبب إلا الرغبة في محو عقيدة شعب مسلم تمهيداً لإبادته والتخلص منه ومن تاريخه وحضارته^(٥٠)، لكن بعد أحداث أيلول اشتدت الحملة الصينية على المسلمين في تركستان، وأضافت الحكومة إلى تعبير «الانفصال والانفصاليين» تعبيراً آخر هو «التطرف والمتطرفون»، الذي يشمل العلماء وطلبة العلم الشرعي والمشايع والأئمة والخطباء والدعاة كافة^(٥١).

وشرعت الصين بعملية استثمار أمني على المستوى الدولي والمحلي، فأعلنت بعد بضعة أيام من وقوع الأحداث عن انضمامها للحملة الأمريكية فيما يسمى «مكافحة الإرهاب العالمي»، واعتبرت بأثر رجعي سلسلة من الأحداث والاحتجاجات الشعبية التي وقعت في تركستان خلال تسعينات القرن العشرين أعمالاً إرهابية، وفي هذا السياق سارع المتحدث باسم وزارة الخارجية سون يوشي إلى القول بأن: «الأنشطة

(٤٧) موقع تبيان: صنع الوعي، منشور في ٣٠ ديسمبر ٢٠١٥ - <https://tipyan.com/east-turkistan>

(٤٨) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ندوة تركستان الشرقية الحرة - إسطنبول (٢٠١٠/٢١/٢٠): أكرم حجازي، ص (٩).

(٤٩) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ص (٥).

(٥٠) المرجع السابق، ص (١٣-١٤).

أَرْضُ الشَّامِ

وصفتُ، وهل لأَرْضِ الشَّامِ وَصْفُ
كتبْتُ فلم يَجِدْ بالشَّعرِ قلبي
رجالٌ عاهدوا الرحمنَ صدقًا
ولم يُرعبْهُمْ الطغيانُ يومًا
وباتُوا داحرينَ الخوفِ حتى
يَدٌ قبضتْ أصابعها زنادًا
إذا ما غارتِ الأعداءُ يومًا
فلا يهتزُّ خافقُهُمْ بحتفٍ
ثباتٌ من لدنِ ربِّ قوِيٍّ
فهم جَسَدٌ بوجهِ الظلمِ صُلْبٌ
تري الجنديَّ بينهم كَألفٍ
فيا ربَّاهُ أكرمهم بنصرٍ
فأرضُ الشَّامِ للأحرارِ كَهَيْفُ
ولم تُسَعِفْهُ أوزانٌ وحرُفُ
فلم يَهِنُوا وما في القلبِ خوفُ
ولا هدمٌ وبرميلٌ وقصْفُ
كأنَّ القصفَ أعراسٌ ودُفُ
وعينٌ في المعارك لا تَرِفُ
فلا يبدو على الأحرارِ ضَعْفُ
وهل يُخشى مع الإيمانِ حتْفُ
فلم يُرهبْهُمْ جيشٌ وزحفُ
❖ وهم في ساحةِ التحريرِ صفٌ
يفرُّ من الأعادي منه ألفُ
وفي طياته عزٌّ ولُطفُ

منتصر عبد الغفور اليونس

ويلاحظ أن تركيا من أوائل الدول الإسلامية التي طالبت بإنهاء احتلال الصين لتركستان، وهذا ليس جديداً، قال السيد رجب طيب أردوغان رئيس تركيا في تصريحات لمحطة (NTV) نقلتها «رويترز ٢٠٠٩/٧/١٠» تعليقاً على ما يجري في تركستان: «الأحداث التي تشهدها الصين لا تعدو كونها أعمال إبادة جماعية» مضيفاً: «لا فائدة من وصفها بوصف آخر»^(٦٤).

الخاتمة:

ما يحصل في تركستان الشرقية من جرائم تُرتكب بحق أهلها المسلمين يذكرنا بوضع العالم الإسلامي المُتفرّق الممزق بين دويلات متناحرة ضعيفة تركز لأعدائها، وهذه الحال هي الحالة الطبيعية عندما يتخلى المسلمون عن الاعتصام بحبل الله تعالى، وصدق الله العظيم القائل: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فالتمزق الحاصل بالأمة لم نجد له مثيلاً من قبل، وليس الأمر قاصراً على تركستان الجريحة المنسية، فقضية فلسطين هي الأخرى تُباع من بعض قادة المسلمين والعرب؛ لذا يقتضي الأمر التحرك حكومات وشعوباً للوقوف مع المظلومين في كل العالم، خاصة الظلم الذي يقع على المسلمين لما لهم علينا من حق أخوة الدين ونصرة المظلومين، وكان من الممكن أن يكون للعالم الإسلامي صوت يطالب الصين بإنصاف تركستان، ويضغط عليها اقتصادياً بهذا الاتجاه لا سيما أن تجارة الصين تتوجه إلى البلدان العربية والإسلامية بمليارات الدولارات سنوياً.

وإدعاء الصين بأن تركستان شأن داخلي لا يختلف في شيء عن ادعاء الروس بأن «الشيشان» شأن داخلي، وكلاهما ادعاء ظالم مُجحف.

فإن تخلّت الحكومات عن واجبها فإن الواجب يبقى مناطاً بالشعوب والأفراد، كل على حسب استطاعته، وأقل ذلك التعريف بقضية تركستان أمام الرأي العام ونشر معاناتهم، خاصة نحن السوريين -الذي لقينا من ظلم المجرم «بشار» وأنصاره من الصفويين والروس وبدعم من الصين ما تعجز عن حمله الجبال- علينا أن نُسخّر في سبيل ذلك كل ما نملك من قدرات يسيرة، ولا ننس دور الأدب بكل أشكاله من شعر وقصة ومسرحية ورواية، ولا نحقر شيئاً من ذلك، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه، نسأل الله فرجاً قريباً لكل مظلوم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(٦٤) تركستان الشرقية بعد الحرب الباردة ١١ سبتمبر، ص (٢٥).



صورة للأقمار الصناعية عن المعسكرات التي تقيمها الصين^(٦٥)

١٠ - موقف العالم من وحشية الصين:

لم يكتف العالم بما فيه الكفاية بقضية تركستان، كان من المعول عليه أن يقع اهتمام المسلمين على مستوى الحكومات والشعوب بهذه القضية، والناظر إلى الإعلام الإسلامي والعربي لا يجد اهتماماً يذكر بها، بل الذي حصل أنه تحت مُسمى الإرهاب تعاونت بعض الدول الإسلامية مع الصين ضد شعب تركستان وقضيتها، وبهذا الخصوص قام الأمن المصري بترحيل عدد من طلاب تركستان من ذوي الأصول «الإغورية» الذين يدرسون العلوم الإسلامية في جامعة الأزهر، وطالبت منظمة «هيومن رايتس ووتش» الحقوقية السلطات المصرية بعدم ترحيل الطلاب التركستانيين الإغور المسلمين بعد أن ألقت القبض على عدد منهم^(٦٦)، ووجه الطلاب الإغوريون في الأزهر استغاثة للعالم الإسلامي من أجل التدخل والإفراج عن معتقليهم لدى الأمن المصري^(٦٧)، ولا قيمة لما أنكرته السلطات الأمنية من أنها لم تفعل هذا؛ فالإعلام كشف هذا، وانتقل الطلاب التركستانيون إلى تركيا، فالتقينا بمن يدرّس منهم في كليات العلوم الإسلامية في بعض الجامعات التركية.

فتحت تركيا أبوابها لهؤلاء الطلاب لتكميل دراساتهم، وتعهد وزير الداخلية التركي بأن بلاده ستمنح الإقامة المؤقتة لأتراك تركستان الشرقية القاطنين في تركيا، وأوضح الوزير أن منح الإقامة الدائمة والإنسانية لأتراك تركستان الشرقية سيأتي في المرحلة المقبلة، وذلك بعد إجراء التحقيقات الأمنية اللازمة بحقوقهم، جدير بالذكر أن تركيا تستضيف أكثر من ٣, ٥ ثلاثة ملايين وخمسة مئة ألف لاجئ سوري، وتستقبل أكبر عدد من اللاجئين في العالم حسب المفوضية العليا لشؤون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة^(٦٨).

(٦٥) اتحاد إغور التعليمية <http://uymaariip.com/arabi/?p=1700> - المصدر: بي بي سي ٢٥ أكتوبر / ٢٠١٨م.

(٦٦) الخليج نت. ٢٠١٧-٠٧-٠٦ <http://alkhaleejonline.net>

(٦٧) جريدة القدس العربي، طلاب الإغور في مصر يستغيثون بالعالم الإسلامي لإنقاذ معتقليهم، ١٦ يوليو / ٢٠١٧م.

(٦٨) تركيا بوست منشور في ١٦/٦/٢٠١٨ <https://turkey-post.net/p-256832>

سداها ولحمتها طائفية أقلية عنصرية تحمل الحقد والكراهية لكل السوريين، وأخلى الجيش من كل هيئة وطنية أو قومية حقيقة، وأبدع بالإجرام في السياسيين رغم هُزالِ العمل السياسي في سورية منذ الوحدة السورية المصرية عام ١٩٥٨م، ووَأد الدولة الديمقراطية الوليدة التي نتجت عن أحزاب وطنية ودستور وطني بالانتخاب وبرلمان منتخب ديمقراطيا في عام ١٩٥٠م.

لقد اعتمدت الدولة البوليسية السورية بعد عام ١٩٧٠ على حزمة قوانين وقرارات وبلاغات تحصن العاملين في المجال الأمني والمخابراتي، وتمنحهم صلاحيات واسعة تحميهم من المساءلة على أفعالهم وتمنحهم المزايا والاستثناءات وحق الإفلات من العقاب، كما تسمح هذه القوانين بتسلط المخابرات على الجيش ومؤسسات الدولة والمنشآت الاقتصادية ومشاركتها والسطو على أصول الأملاك العامة والخاصة وتيسير المحسوبية والفساد وصرف النفوذ من أجل تمرير العقود الحكومية والانتفاع منها، باختصار لقد ابتلعت السلطة الأمنية المطلقة الدولة ومؤسساتها والمجتمع ومكوناته، وأعدت تكوينهم لصالح سلطة شكلية عمقها دولة طائفية بوليسية فاسدة.

مارس الأسد عمليات القمع الوحشية في مواجهة الشعب في كل مفاصل الدولة بلا سبب سوى ترهيب الآخر أو الشك به، وقد واجه المحتجون على انقلابه أصنافاً من المهالك كالاعتقال والتصفية والاغتيال وتدمير عوائلهم داخل سورية وخارجها، كما دبر الأسد جرائم قتل معارضيهِ من سوريين وغير سوريين حيث خطط ونفذ عمليات داخل وخارج سورية لتصفية منظمات تناوئه وتعرف حقيقته.

وعندما تدخل في لبنان برعاية عربية ودولية تحول إلى احتلال وطرف ومسيطر عبر أجهزته الأمنية، وقد عانى اللبنانيون الويلات من حملات النظام ضدهم، ولم يهدأ له بال حتى طوع قسماً منهم زبانية وعملاء له ينكلون بإخوانهم الآخرين ويغدرون بهم، ولم يكتف بذلك حتى فعل الأفاعيل بالمقاومة الفلسطينية، فقتل وغدر وتآمر على قادتها وتحالف مع إسرائيل لإخراج منظمة التحرير الفلسطينية من لبنان، وشرذم المنظمات الفلسطينية وقسمها كي تسهل له السيطرة على قرارها ومصادرة قرار فلسطين

بعقلية المؤامرة والإقصاء التي يتصف بها معظم الطغاة بدأت سياسة الاعتقال لكل مخالف أو مشكوك بأمر مخالفته لفكرهم وولاءاتهم الطائفية الضيقة، واستعانوا بواجهات محلية مقبولة نوعاً ما مثل زياد الحريري وأمين الحافظ ونور الدين الأناسي، ولم تلبث هذه الواجهات مدة حتى دفعت ثمن ثقتها باللجنة الطائفية، إذ تم الانقلاب عليها وزجها في المعتقلات أو نفيها بشكل تعسفي بدون الحاجة إلى قضاء أو محاكم وإنما استناداً إلى إعلان حالة الطوارئ فقط صباح ٨/ آذار/ ١٩٦٣ حتى ٢١/ نيسان/ ٢٠١١م، وقد استمرت حالة الطوارئ في سورية ثمانية وأربعين عاماً، وهي أطول مدة في التاريخ المعاصر لإعلان حالة الطوارئ في أي دولة، فهي إنما تكون عادة أشهراً فقط، وتمدد أحيانا سنوات في حالات الحروب والكوارث وأعمال الشغب.

”

«مارس الأسد عمليات القمع الوحشية في مواجهة الشعب في كل مفاصل الدولة بلا سبب سوى ترهيب الآخر أو الشك به»

قام عسكر الانقلاب البعثي وقادته بتعطيل القوانين والأنظمة النافذة عبر مراسيم تشريعية تمت خارج البرلمان بقرارات وأوامر عسكرية وبلاغات عامة مخالفة للقانون عموماً، نعم عمل كثير من العسكريين المخلصين لمواجهة عملية تسلط البعث على مفاصل الدولة والحياة الاجتماعية، لكن الانقلابيين شنوا حملة إقصاء واعتقالات لمعارضيههم على مراحل ليتفردوا بالسلطة وتخلو لهم الأجواء، وأضافوا إلى ما سبق التدخل في

شؤون القضاء، فأقصيت الخبرات والهيئات الفاعلة، وبدأت دولة المحسوبيات والفساد، وانهارت تحت وطأتها المنظومة الأخلاقية والمعرفية التي يتمتع بها السوريون وبها يعرفون.

ثم حدثت عدة تحركات داخل البعث والدولة لتصفية الأجنحة البعثية والناصرية فيما بينها كمحاولة انقلاب علوان وانقلاب ٢٣/ شباط/ ١٩٦٦م وانقلاب حافظ الأسد، وهو الذي فاق الجميع خبثاً ومكرًا وحقدًا على الشعب ومثقفيه وقواه السياسية والعسكرية، وبانقلاب الأسد على السلطة وباقي مكونات البعث بدأت مرحلة مظلمة في حياة السوريين عنوانها الولاء المطلق للدكتاتور أو الاعتقال والتغيب والموت.

بدأ حافظ الأسد برفاقه وزملائه وقادته، اعتقالهم وغيبهم حتى الموت، وتوغل ببناء دولة بوليسية مخابراتية عميقة



المهندس مروان العش
أمين سر اللجنة السورية
للمعتقلين والمعتقلات SCD

الديكتاتور والاعتقال

كانون الأول/ ١٩٦٢م إثر انقلاب عسكري قاده حزب البعث العربي الاشتراكي في ٨/ آذار/ ١٩٦٣م، فأعلنت الأحكام العرفية بالأمر العسكري رقم (٢) (١)، ورُفِعَت حالة الطوارئ في ٢/ نيسان/ ٢٠١١ ليستبدل بها قانون لا يقل سوءاً عنها هو قانون الإرهاب.

إثر انقلاب حزب البعث وصل إلى السلطة في سورية نمط جديد من الحكام العسكريين المتمثلين في اللجنة العسكرية البعثية الطائفية (صلاح جديد - محمد عمران - حافظ الأسد - أحمد المير - عبد الكريم الجندي - حمد عبيد) وواجهة سنية تتمثل بالعميد زياد الحريري قائد انقلاب ٨/ آذار/ ١٩٦٣م، وتظاهرت هذه اللجنة العسكرية بمجموعة من المبادئ والوعود البراقة التي وجدت صدًى كبيراً في نفوس بعض طبقات الشعب الفقيرة التي ظنت خيراً بهؤلاء الانقلابيين، وعلى أسوأ تقدير هم كغيرهم ممن سبقهم من عسكريين حكموا مدة ثم انقلب عليهم غيرهم.

في غفلة من الشعب بدأ الانقلابيون البعثيون بوضع اليد على الجيش والدولة والقوانين بغية تطويع الشعب السوري وقولبتة، فيكون خاماً قابلاً للعجن والتصنيع بيد أغرار بالسياسة والعمل العام، والعمل فيهما لا يشبه ما تربوا عليه من روح العصابة والتنظيم الفاشي الشبيه بالحركة النازية.

تمارس الأنظمة الديكتاتورية بمختلف أشكالها ومظاهرها سياسات وقوالب نمطية معروفة حفل بها التاريخ القديم والحديث، ويعتقد الديكتاتور أن اعتقال الرعايا المعارضين وغير المعارضين حق مقدس له يؤيده القانون والمجتمع للحفاظ على الشعب ممن يريدون له السوء والخراب من وجهة نظره.

إن الأنظمة السياسية للأحزاب القومية والشيوعية ومدعي الوطنية في القرن العشرين حملت أنماطاً من المنطلقات النظرية التي تسوّغ الظلم والقهر والاعتقال بلبوس فكري ممنهج سوّق له منظروها بشرعية الانقلابات والحركات التي تنقل الدول من نظام إلى آخر، ويعتقد مناصرو هذه الأحزاب أن لهم الحق في استخدام اليد الحديدية في معاملة الشعب بالإرهاب والاعتقال، أو التمييز بين الفئتين المعروفتين في قاعدتهم الشهيرة (من ليس معنا فهو ضدنا) من أجل إقصاء ممنهج لكل أشكال المعارضة السياسية والفكرية، وهذا ما مارسه حزب البعث القومي الطائفي عبر ٥٦ عاماً من الاستيلاء على السلطة في سورية، إذ حولها إلى دولة الرعب ومملكة الصمت والاعتقال والتعذيب والتغيب والانتقام من كل الأفراد والمجموعات المعارضة له أو ما يرتبط بهم.

أُعلنت حالة الطوارئ في سورية صباح ٨/ آذار/ ١٩٦٣م استناداً إلى المرسوم التشريعي رقم (٥١) الصادر في ٢٢/

(١) موقع الجزيرة: وثائق وأحداث، نص قانون الطوارئ السوري (١٩٦٢م).

حافظ إلا قاعدة تقول: (إن هذا الشعب لا ينفع معه إلا العنف والاعتقال)، وواجه المجتمع السوري وأحراره في تلك الفترة خطرَ خطط النظام لاختراق وتفخيخ أية محاولة مجتمعية للنهوض نحو مستقبل أفضل خارج منظومة النظام الأسدي الفكرية والشعبوية.

قام عشرات الناشطين السياسيين في سورية بمحاولة استرداد العمل السياسي وأدواته في حركة إعلان دمشق للتغيير الديمقراطي عام ٢٠٠٧م؛ فنتج عن ذلك حملة اعتقالات لقادة الإعلان ووجوهه، حاملة رسالة

تقول للشعب السوري بوضوح: لن نسمح للمجتمع بالتححرر والعمل السياسي إلا ضمن رؤية النظام ومنظومته وأدواته بأحزاب شكلية مهلهلة وشخصيات منهكة لا مستقبل لها، ولن نسمح بأية منافسة لحزب البعث؛ فهو قائد الدولة والمجتمع بالمادة الثامنة من الدستور الأسدي ١٩٧٣م^(٤).

تخمرت فكرة المواجهة لدى شرائح سياسية وفكرية ومجتمعية كثيرة بوصفها نتيجة طبيعية لمسارات الأمور في سورية بين ٢٠٠٧ - ٢٠١١ من حجب ومعاينة كل من يعمل بنفس سياسي وطني، ومنع أي شكل من أشكال التعاون والاجتماع الوطني والسياسي والمجتمعي، وإقصاء الموظفين النزيهين وأصحاب الكفاءة والخبرة، واستيلاء أقزام النظام على مفاصل الاقتصاد السوري بخطوات ليبرالية وقفزات نوعية من استغناء للمجتمع واستيلاء على ثرواته وممتلكاته لأفراد ومافيات مخلوف وشركائهم بصفتهم وكلاء حصريين في المملكة الأسدية؛ لذلك ارتفع معدل الفقر وترسخ الفساد وزادت المحسوبيات، وبات التزلف لوجوه السلطة سبيلا وحيدا للعيش والإنتاج في هذا الجو المشحون.

وصل الربيع العربي إلى تونس ومصر وليبيا، وكان الممر الحتمي لذلك الربيع في سورية والمشرق العربي، وظن

الأسدي أو شخص الأسد رغم وجود سورين كثر يحملون التاريخ الوطني والتأهيل العلمي والقانوني والسياسي، لقد صحر النظام المجتمع وجفقه من العمل السياسي المشروع المنظم الفعلي لا النظري، ولم يقاوم هذا الجفاف المفتعل إلا ثلة قليلة من الناس ثبتت؛ فنكل بها النظام.

وقد عمل الأسد للسيطرة على رجال الدين، فسيس هذا القطاع إلا قليلاً، واخترقه عبر أقزام وأدوات عرفت بالخنوع حيناً وبالإرهاب حيناً آخر، هذا رغم تملل كثيرين وخروج بعضهم عن محاولات السلطة قولبة الشعائر الدينية وشكل الدعوة وتسخيرهما لخدمتها؛ نتيجة لذلك نبت شعور بالغبن والقهر والظلم ولّد مستقبلاً بيئاً حاضنة ترفض ممارسات النظام.



«تقوقع المجتمع خلال نصف الثمانينات وبعده، وأصابه رهاب الاعتقال والتعذيب والقتل مما سمع وأشيع عن ممارسات الأجهزة الأمنية المنفلتة من كل عقل»

هلك حافظ الأسد في ١٠ / حزيران / ٢٠٠٠م وترك جملاوية^(٣) سورية مشوهة، أورث دولة داخل دولة، وظن بعضهم أن الخلاص جاء عبر عملية توريث ربما تكون أقل سوءاً وأخف وطأة من عهد سفاح حماة وأخيه وحاشيته، لقد كانت طيبة السوريين وتفاؤلهم يوهمانهم بأن الحال مع التغيير أفضل، ولكن سرعان ما خاب ظنهم وتراجعت أحلام التخلص من الاستبداد والفساد في أول مفصل لمحاولة الانتقال بالمجتمع السوري من عبودية نظام حافظ الأسد إلى وعود التطوير والتحديث والعصرنة التي أوهم بها بشار شعبنا.

تبدلت وجوه قادة المؤسسات الأمنية شكلاً فقط وبقي نهج وطريق الديكتاتورية والعنف والاعتقال ومصادرة المجتمع وشلل الحياة عنواناً واضح المعالم، وهكذا خمدت حركة المتدييات ببدء اعتقالات ربيع دمشق سنة ٢٠٠٠ / ٢٠٠١ وبمواجهة الحركة الفكرية والسياسية الناشئة بنصائح أمنية من جنرالات مجزرة حماه الذين لم يتعلموا في مدرسة

(٤) دستور سورية ١٩٧٣ المادة ٨: حزب البعث قائد الدولة والمجتمع. https://cours-examens.Etude_superieure/Droit/CONST/Autres/syrie./٢_٢٠١٣_org/images/Anpdf

(٣) الجملاوية أو الجملاكية وتلفظ أحياناً جمركية: مصطلح مستحدث يمزج بين كلمتي الجمهورية والملكية، يستخدم عادة بطريقة ساخرة لوصف أنظمة تدعي أنها جمهورية لكنها تشبه المملكة سياسياً خاصة في قضية توريث الحكم. ويكيبيديا.

واسمها لتتم له المتاجرة بقضيتها بشكل رسمي.

إن مأساة اعتقال السوريين قد بدأت مبكراً عبر عسكر الانقلابات، فكان كل انقلابي جديد يقتل أو يشرّد قائده السابق وجماعته، وتطور أمر الاعتقال والتعذيب إلى القتل والإخفاء القسري أيام الوحدة وسلطة العقيد عبد الحميد السراج رئيس جهاز مخابرات الوحدة السورية المصرية، وخلف تلك الحقبة حكم البعثيين الذين جعلوا من الاعتقال وسيلة أساسية لإحكام قبضتهم على الاعتقال، وقد تغوّكّت هذه السياسة المقيمة بحكم حافظ الأسد من أول أيامه حتى بلغت أقصى ما يتصوره بشر.

تغول العمل الأمني والمخابراتي في سورية الأسد لإرهاب الشعب وتخويله من مواجهة الحاكم بأمر نفسه بصفته قائداً للدولة والمجتمع، تجلّى ذلك في مواجهات الاحتجاج على الدستور في حماة ١٩٧٣م وفي أحداث المواجهات بين الإخوان المسلمين والنظام بدءاً من عام ١٩٧٦ وما تلاها، ووصلت حملات الاعتقال الممنهج والحملات العسكرية المنظمة إلى دمشق وريفها وحلب وحماة وحمص ودير الزور ومعظم المدن والبلدات السورية الأخرى، وقامت قوات الأسد بشن مواجهة مفتوحة ضد كل أشكال التنظيم الإسلامي أو النشاط الإسلامي التقليدي تحت شعار مكافحة عصابة الإخوان المسلمين، وفي هذا السياق تمت مجزرة سجن تدمر الصحراوي بتاريخ ٢٧/ حزيران/ ١٩٨٠م.

وزيادة على مجزرة تدمر بمعتقلي الإخوان المسلمين استهدف الأسد الشباب السوري المثقف، فزج آلاف الشباب في السجون والمعتقلات بتهمة الانتماء إلى الإخوان المسلمين أو الطليعة المقاتلة سواء كانوا على علاقة بذلك أم لم يكونوا، وعقد لهم محاكمات ميدانية زائفة حكم فيها على الآلاف منهم بالموت شتقاً، وقد نُقِذ نحو ١٧ ألف حكم إعدام فعلياً بأعضاء الجماعة أو مناصريهم أو حاضتهم أو عامّة لا علاقة لهم من قريب أو بعيد بجماعة الإخوان أو أحداث الثمانينيات.

صرّح العماد مصطفى طلاس في حديث لمجلة دير شبيغل الألمانية في شباط / ٢٠٠٥م العدد ٨ أنه كان يوقع في أوائل الثمانينيات على ١٥٠ حكماً بالإعدام أسبوعياً على المعارضين السياسيين الإسلاميين، واعترف لها بأن يده وقّعت على أحكام إعدام بلغت الألوف، وهؤلاء كلهم لم

يتم التعامل مدنيّاً مع حالاتهم، ولم يبلغ ذوهم بوفاتهم^(٢). وتجلت أعنف ممارسات النظام القمعي الأسدي في أحداث مدينة حماة ٢/ شباط / ١٩٨٢م، فقد اقتحمت قوات سرايا الدفاع المدينة تدعمها المدرعات والمدفيعات والطائرات والقوات الخاصة وقوات الأجهزة الأمنية المتنوعة وأعضاء حزب البعث من محيط محافظة حماة، وتم تدمير المدينة بمواجهات دامية استمرت أسبوعاً كاملاً، ثم تفرّغت سرايا الدفاع لشن حملات تصفية بقيادة العميد رفعت الأسد تستهدف القضاء على عائلات كثيرة من سكان مدينة حماة السنّة حصراً أو ملاحقة من لا يزال حياً من أفرادها، فقتلت الشيوخ والنساء والأطفال، واغتصبت الفتيات، وسرقت المجوهرات والممتلكات في مواجهة طائفية مدروسة مخططة مقدّماً، ونتج عن الحملة الأسدية على حماة أن خسرت المدينة نحو أربعين ألفاً من سكانها ما بين قتل ومفقود ناهيك عن آلاف المعتقلين وتهجير عشرات الآلاف غيرهم داخل سورية وخارجها.

لقد منحت أحداث حماة النظام الأسدي القدرة على تسويق العنف المفرط، وأجبرت المجزرة وما تلاها من سياسات قمعية المجتمع على الخضوع حتى ثلاثين سنة قادمة، إذ استخدمت أحداث الإخوان المسلمين ذريعة لتصفية كل القوى المجتمعية والسياسية والفكرية بدعوى «لا حياة في هذا الوطن إلا للتقدم والاشتراكية» المقولة الشهيرة لحافظ الأسد التي أنتجت مجتمعاً خالياً من التقدم والعصرية وبريئاً من الاشتراكية التي كان ينادي بها، بل أعدّوا لها عبر سياسات رأسمالية وليبرالية مشوهة بنت دولة عميقة داخل الدولة السورية الشكلية.

توقع المجتمع خلال نصف الثمانينات وبعده، وأصابه رهاب الاعتقال والتعذيب والقتل مما سمع وأشيع عن ممارسات الأجهزة الأمنية المنفلتة من كل عقاب، المحمية بنصوص وقوانين تمنع مراقبتها ومحاسبتها، وخمدت إثر ذلك كل التنظيمات والأحزاب والقوى السياسية على قتلها وفقرها الفكري والتنظيمي، ومُنِيَتْ هيئاتها بالاعتقال الطويل، واخترق تنظيماتها أقزائم السلطة والمخابرات.

وقد واجهت بعض المجموعات الفكرية والسياسية سطوة الأسد بالحيلة أحياناً وبالالتفاف والمواجهة أحياناً أخرى، ولم تظهر شخصية سياسية سورية تواجه النظام

(٢) تصريح طلاس: رابط صحيفة دير شبيغل الألمانية: <http://www.spiegel.de/international/html.٢٤٣٢٤٢-course-in-mideast-dictatorships-a-١٠١-spiegel/syria-a>

الذي نُكِب بحاكم ديكتاتور عفا عليه الزمن، ولم يتعظ بهتلر وموسوليني وبول بوت وتشاوشيسكو، والأيام دُول.

وقد قامت منظمات وهيئات ولجان سورية وأفراد أيضًا بتوثيق حالات الاعتقال والاختفاء القسري والخطف والقتل في المعتقلات وأثناء الحرب العدوانية، وتعاونت هذه الجهات مع مؤسسات دولية ودول لتثبيت هذه الوقائع والشهادات والوثائق، وتم إنشاء عدة برامج متخصصة توفر قاعدة بيانات للمعتقلين والشهداء، وكان أول جهد في هذا الإطار مركز توثيق الانتهاكات VDC^(٧) الذي أشرفت عليه المحامية رزان زيتونة، ثم تابع العمل بعد اختطافها مجموعة مميزة ما زالت إلى اليوم تقوم بالعمل والتوثيق، وكذلك مركز أورانامو^(٨) URNAMMU.ORG، والشبكة السورية لحقوق الإنسان SNHR^(٩)، وثمة مؤسسات عديدة تعمل على توثيق حالات الاعتقال والقتل والخطف، وتتيح معلوماتها وتوثيقاتها للأمم المتحدة والمنظمات الدولية واللجان الحقوقية والجهات الفاعلة لكشف حجم الكارثة موثقة مؤكدة من أرض الواقع بشهادات ثقات.

كل هذه الجهود تخدم قضية الاعتقال الذي بلغ أرقاماً هائلة لم تشهدها أعتى الديكتاتوريات بعد الحرب العالمية الثانية، وهذا ما سينعكس على المجتمع والإنسان والمستقبل، ولا يخفى ما لحملات دعم المعتقلين من أثر في إحراج النظام دولياً ومحلياً وإجباره على الإفراج عن المعتقلين من الرجال والنساء والأطفال، وقد كان آخرها حملة حركة الضمير العالمية التي انطلقت في دول مختلفة في الشرق والغرب تطالب بإطلاق سراح النساء السوريات المعتقلات، وأقامت تجمعات كبيرة في يوم المرأة العالمي ٨/ آذار/ ٢٠١٩م تندد بجرائم الأسد ونظامه بالمعتقلات السوريات.

إن واجبنا اليوم تنظيم جهودنا وتكاتف جميع المؤسسات السورية لتنتج جسماً سوريا حقيقياً قادراً على قيادة شعبنا وإنقاذ المعتقلين وبناء الدولة السورية المنشودة دولة العدالة والحريات.

والإكراه، واستخدام الضرب العنيف بالأدوات المعدنية والأكبال والبواري البلاستيكية، والشبح والتعليق والتغطيس بالمياه والحرق والإيذاء بالنار، والحرق بالكهرباء وتكسير الأطراف، وابتدع النظام نشر الأمراض السارية والمعدية والسل والطاعون والقوباء والإسهال بين السجناء، كل ذلك بدون علاج أو دواء أو طعام لمقاومتها إمعاناً في قتل المعتقلين وتعذيبهم بأقصى الممارسات التي لم يسبق لها مثيل في التاريخ، كل هذا بسبب وحيد هو طلب الحرية والكرامة والعدالة وإقامة دولة العدالة والمواطنة.

إن نظام الأسد الأب والابن هو من أنهى الاستقلال السوري الذي حصلنا عليه عام ١٩٤٦، فمنذ الاستقلال حتى انقلاب الأسد الدامي مر على الشعب السوري كثيرون من قادة السياسة والرأي والعسكريين الشرفاء والوطنيين، لكن الابتلاء العظيم جاءت به كذبة ثورة البعث التي وضعت سورية بعد خمسين عاماً من تسلطها الطائفي في أحط درجة في تصنيف دول العالم، إذ غدت أسوأ دولة للحياة في هذا العالم وأكبر مصدر للأجئين في القرن الحادي والعشرين على يد حاكم مهووس بالسلطة، قتل شعباً وشرّده ليقى على كرسيه متحدياً كل الأعراف الدولية والقيم الإنسانية.

بهذه المقتلة السورية والجريمة الموصوفة على الشعب السوري، المتمثلة بالاعتقال والتعذيب والإخفاء والقتل وإصدار شهادات وفاة لا تمت إلى الحقيقة بصلة وإخفاء جثامين الشهداء القتلى؛ تبرز قضية مهمة جداً، ألا وهي توثيق هذه الجرائم وتتبع وملاحقة جميع المتورطين فيها من قادة الأجهزة الأمنية السورية ومختلف المستويات السياسية المساندة لهم، وتحميلهم مسؤولية قتل وتعذيب مئات الآلاف من المعتقلين بأساليب شنيعة بهيمية، كما أنه لا بد من ملاحقة المتضررين والقتلى وعائلاتهم للمجرمين دولياً لوضع حد لسياسة الإفلات من العقاب، ويكون ذلك بالمتابعة الحثيثة للأطراف الدولية الموقعة على المعاهدات الدولية المختصة بالشرطة الدولية وملاحقة المشتبهين وجلبهم إلى محاكم دولية لتنفيذ الأحكام عليهم.

إنّ لمتضرري الاعتقال وجرائم الحرب لأماً كبيراً بالقوانين التي أتاحت الولاية العالمية للقضاء في بعض الدول مثل ألمانيا وفرنسا والنمسا والسويد، وما الدعاوى التي أقيمت أمام سلطات القانون في تلك الدول من مواطنين سوريين شهود على التعذيب والقتل والإخفاء والخطف إلا خطوة نحو تحقيق العدالة، وما قانون سيزر الذي أقر منذ فترة قريبة إلا وسيلة للوصول إلى القتل الحقيقيين للشعب السوري

(٧) موقع شبكة مركز توثيق الانتهاكات <http://vdc-sy.net/en>

(٨) موقع مؤسسة أورانامو <http://www.urnammu.org>

(٩) موقع الشبكة السورية لحقوق الإنسان <http://snhr.org/arabic>

ناشطين وبعض شباب جامعة دمشق بدؤوا بالتظاهر أمام الأموي، وبعدها بساعات خرجت مظاهرة أخرى في الحريقة فقبلها النظام بالاعتقالات أيضاً، وفي اليوم التالي خرجت مظاهرة خلف وزارة الداخلية للمطالبة بالمعتقلين السياسيين المحكومين سابقاً، وإلغاء حالة الطوارئ والمطالبة بقانون للأحزاب، والتنديد بشن النظام حملة اعتقال طالت ثلاثة وثلاثين ناشطاً وناشطة يومها.

تصاعدت المظاهرات في ١٨ آذار يوم «جمعة الكرامة» بدرعا، ووقعت اعتقالات بالجملة ومداهمات، وسقط أول الشهداء، وسعى النظام لإرهاب الناس بالقتل حينما سقط أول شهداء الثورة محمود الجوابرة وحسام عياش رحمهما الله، وتصاعدت الثورة وعمليات الاعتقال حتى ناهز العدد أربع مئة ألف عملية اعتقال في وسط الثورة بتقديرات منظمات حقوقية، وتضاعف العدد إلى نحو ٨٠٠ ألف معتقل نهاية ٢٠١٨ من خلال سياسة الباب الدوار، لا يزال حوالي ٢٠٠ ألف شخص منهم في سجون الأسد^(٥).

إن أساليب الأسد قد فاقمت روح الثورة وضرورة المواجهة مع نظام لا يعترف بأدنى حقوق البشر في الحياة أثناء الاعتقال وخارجه، ولا يرفع المواثيق ولا الاتفاقيات والبروتوكولات التي وقع عليها سابقاً كمعاهدة مناهضة التعذيب وميثاق حقوق الإنسان الذي وقّعت عليه الجمهورية العربية السورية منذ ١٩٤٩م وغيره.

مع الأيام ظهرت همجية النظام وحقده وعنفه المنفلت من كل معيار دولي أو إنساني في بيئة الاعتقال وظروفه، إذ مارس التعذيب بكل فنونه الإجرامية التي ورثها عن الضابط النازي «ألويس برونر»، وكان قد أقام في سورية متخفياً منذ ١٩٦٠م وتعاقد حافظ الأسد معه لإقامة أجهزة أمنية مثيلة للأجهزة النازية الهتلرية^(٦)، وانفرد النظام في الإبداع باختراع آلات التعذيب أثناء التحقيق لانتزاع الاعترافات الكاذبة بالضغط

النظام أن رياح التغيير والثورة يمكن مواجهتها بما تعود عليه من احتيال والتفاف على الناس وامتصاص لغضبهم بطرق مختلفة، ففي ١٥ آذار/ ٢٠١١ تحرك المجتمع السوري مثل كل شعب حر مطالباً بحقوقه بالحرية والكرامة والعدالة، وكان الحامل الوطني عظيمًا كبيرًا برافعة شعبية وطنية مدنية، وسبقت ذلك إرهابات أولية كمظاهرة الحريقة في ١٧ شباط/ ٢٠١١م ومظاهرة صغيرة أمام الأموي بتاريخ ١٥ آذار/ ٢٠١١م ومظاهرة في اليوم نفسه في الحريقة، ووقفة النشطاء أمام السفارة الليبية وغيرها، وفي يوم الجمعة ١٨ آذار/ ٢٠١١ تفجرت ثورة الحرية والكرامة بدرعا وبانياس والرستن وغيرها، فانطلقت وعبرت عن نفسها بأساليب

وأدوات حضارية مثل المظاهرات المطالبة بالحرية والعدالة، ومظاهر الاحتفالات الشعبية اليومية ضد النظام وأساليبه، وتطورت سياسة المواجهة التي اعتمدها النظام بدلاً من أن يسمع صوت الشعب والشارع الغاضب من ممارساته وأقزامه وأدواته، فازدادت المواجهات وبدأت الاعتقالات العنيفة عقب كل صلاة جمعة وعقب كل مظاهرة سلمية أو بعد تشييع أوائل شهداء الثورة لقد تجلت الوطنية السورية وتكاتف أبناء الوطن بالمصاب، وزاد عزمهم على الاستمرار ومواجهة الظلم والفساد لفرض شروط الشعب ومطالبه بالحرية والكرامة، لكن نظام القمع والإجرام

المتأصل بمؤسساته الأمنية والعقلية العقيمة التي تربت على الأوامر والتنفيذ الأعمى عمل على المواجهة بين شباب الثورة وحاضتهم وبين النظام وأقزامه وشبيحته منذ أشهر الثورة الأولى حتى الشهر العاشر من سنة ٢٠١١م، ولم تظهر أي مقاومة مسلحة لمواجهة ظلم الأسد حتى الشهر العاشر من السنة الأولى للثورة، هذا رغم آلاف عمليات الاغتيال والتصفية والاستفزاز والمجازر الجماعية الممنهجة بنفس طائفي ضد شباب الثورة فرادى وجماعات وضد محافظات ومدن وبلدات وقرى السوريين الثائرين، وكانت بداية شرارة المواجهة حينما قرر النظام العسكري الأسدي إعادة الشعب إلى حياة الذل بكل أدوات العنف والقتل.

إن بداية حملات الاعتقال في الثورة السورية كانت أمام الجامع الأموي يوم ١٥ آذار/ ٢٠١١م حين اعتقل النظام



«إن أساليب الأسد قد فاقمت روح الثورة وضرورة المواجهة مع نظام لا يعترف بأدنى حقوق البشر في الحياة أثناء الاعتقال وخارجه»

(٥) انظر العربية بعنوان «كم معتقلا في سجون الأسد» - <https://www.alarabiya.net/ar/arab-and-world/syria/2012/02/20/>

(٦) انظر موقع BBC خبيراً بعنوان «مجرم الحرب النازي ألويس برونر فارق الحياة في سورية» http://www.bbc.com/arabic/worldnews/2014/01/140120_140120_nazi_criminal_dies_syria

د- العاطفة الجارفة:

كل سلوك يصدر عن الجماهرة يصطبغ بشحنة انفعالية قوية^(٢)، وكلنا يذكر كيف كانت الحماسة تأخذ المتظاهرين ويشد غضبهم عندما يواجههم المؤيدون أو عناصر الأمن، علمًا أن حدة الانفعال التي تسيطر على الجماعة تكاد تشل قواها الإدراكية؛ فيتحرك الجمهور على ضخامته كشخص واحد، ويتحرك كل فرد كما تتحرك الجماعة، يصرخ عندما يصرخون، ويقذف بالحجارة كما يقذفون في حالة عجز تامة عن استخدام قواه الفكرية أو العقلية حتى ولو كان طبيبًا أو أستاذًا جامعيًا، فتعاطفه مع الجماعة يجعله يقلد أو يحاكي سلوكها ولا يخرج عنها.

العوامل القادرة على التأثير في الجماعة

١ - الشعارات: صور وكلمات وعبارات

إن قوة الكلمات مرتبطة بالصورة التي تثيرها، لكن الكلمات التي يصعب تحديد معانيها بدقة هي التي تمتلك أحيانًا قدرة أكبر على التأثير والفعل^(٣)، فإذا ما أحسن القائد استخدام هذه الكلمات في الزمان والمكان المناسبين فستكون كالسحر، تحرك الجماهير بقوة أشبه ما تكون بقوة السيل الهادر أو الإعصار الشديد.

وما أكثر الكلمات السحرية التي تولد ردة فعل كبيرة لدى الجماهير المعارضة أو المؤيدة دون أن يعرفوا معناها بدقة! ومن أشهرها (الحرية، المساواة، الديمقراطية، الإرهابيون، المخربون، الحثالة المارقون، الكافرون، المرتدون، الخونة)، فالغموض في معاني هذه الكلمات هو الذي يهبها القوة الفاعلة في نفوس مستمعيها رغم تنوع توجهاتهم لأن كلاً منهم يفهمها على النحو الذي يريد، فتجد الجميع يتهلل وجهه لها ويحني الرؤوس لأجلها حتى تمتلئ بمشاعر القوة والإصرار، فهذه الكلمات الغامضة كالزناد، إن ضغطت عليه أثار في نفوس الجموع والجماهير المحتشدة صور المعاني التي يرغبون في تحقيقها، لكن بعض المفاهيم تبلى وتتغير معانيها بمرور الزمن، وهذا ما لم يفهمه أقزام النظام السوري؛ فأعادت شعارات المتظاهرين إلى أذهانهم أحداث الثمانينيات إذ إنهم فهموها على غير

وكيف تؤثر هذه الخصائص على سلوكياتهم؟

إن خصائص الجماهير النائرة كثيرة عديدة لو أراد الإنسان إحصاءها، وسنكتفي هنا بذكر أهمها، فمن هذه الخصائص الأساسية:

أ- العدوى:

صيحتهم عارمة، عاطفتهم حادة مشتركة، يهتفون لشيء واحد، أمّا أساس تلك الظاهرة فهو الرغبة العامة في التنفيس عن توتر اجتماعي حاد، وانتشار هذه الظاهرة كالعدوى عبر المكان والزمان^(١)، ومن الخصائص المهمة أيضًا:

ب- تشابه الاستجابات:

إن المتجمهرين في مظاهرة ما يسلكون سلوكًا متشابهًا، فهم يصيحون معًا هاتفين بسقوط الحاكم الطاغية بشار، ويرددون عبارات قصيرة قوية عاطفية حماسية مثل: عاشت سورية ويسقط بشار الأسد، سورية حرة حرة بشار يطلع برًا، لكن قد يبدو بعض الاختلاف أحيانًا في سلوك الجماعة حينما يقوم بعضهم بقذف الحجارة على مباني الدولة ويكتفي آخرون بالتهديد بيديه عبر إشارات نزقة أو بالهتاف بغضب، فهذا لا يعد اختلافًا حقيقيًا؛ إذ كل فرد منهم بسلوكياته المختلفة يعبر عن الغضب والثورة، فتبقى استجاباتهم متشابهة رغم اختلافها الظاهري.

ج- وحدة الدافع والمثير:

من الخصائص المهمة أيضًا في سلوك الجماهير أو الحشود وحدة الدافع والمثير، فتشابه الاستجابات يصدر عن دافع واحد مشترك يجعلهم يهدفون إلى غرض واحد، وقد يكون الهدف غامضًا - وإن كان معروفًا إجمالًا - حتى يظهر في صفوفهم من يرأس هذا التجمهر وينظم الصفوف ويحدد المطالب، وغالبًا ما يتصف هذا الدافع بالشدة، ويتضح هذا من خلال ظهور شخصيات ملهمة في كل تجمع من تجمعات الشعب في ساحات المدن أو القرى، تنظم الاحتجاجات أو تطلق شعارات حماسية يرددها الجمهور من خلفهم بحماسة بالغة كما حدث في مظاهرات حماة يوم كان حاديها يردد: يسقط حكم البعثية، يلاً ارحل يا بشار.

(٢) فؤاد البهي السيد: مرجع سابق، ص (٧٣).

(٣) غوستاف لوبون: سيكولوجية الجماهير، ص (١١٦).

(١) فؤاد البهي السيد: علم النفس الاجتماعي، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٩٩٩، ص (٧٢).



د. محمد سليمان فارس
مدرس علم الاجتماع في جامعة ماردين

سيكولوجية الجماعات والطاغية من واقع الثورة السورية

مقدمة

أمّا دراسة مثل هذه السلوكيات وتوجيهها فهو من اختصاص علم النفس الاجتماعي، صحيح أنه اختصاص حديث في منهجه ومفاهيمه إلا أن له أصولاً قديمة منذ عهد فلاسفة اليونان خاصة أرسطو وأفلاطون، ولا ننسى المؤرخ ابن خلدون المفكر المسلم الذي تناول بالبحث والدرس انحطاط الدولة الإسلامية في إسبانيا في القرن الرابع عشر الميلادي، وركز في دراسته التاريخية على الجانب النفسي والاقتصادي لمعرفة القوانين التي تحكم بتقدم الدولة وانحطاطها.

خصائص الجماهير الثائرة في سورية

في حياة كل أمة موجات من الغضب العارم تصل إلى حد الجنون بسبب خروجها عن المألوف، وهذا ما حصل في سورية ١٨ / آذار / ٢٠١١م عندما انفجرت ثورة مفاجئة كان شعلتها بضعة أطفال في مدينة درعا جنوب سورية يوم كتبوا على جدران المدارس (جاءك الدور يا دكتور) وهم غير واعين تمامًا لمعناها الحقيقي لكونهم أطفالاً، لكنها في الوقت نفسه كانت دلالة على وجودها في اللاشعور في العقل الباطن بتكرار سماعها أو سماع ما يشبهها عبر الفضائيات إبان اشتعال الثورات التي تطالب بالحريات والتخلص من حكم الاستبداد في تونس ومصر وليبيا، فما هي خصائص الجمهور الثائر،

علم النفس هو العلم الذي يهتم بدراسة سلوك الإنسان ودوافعه، وفي هذا البحث سنحاول فهم العلاقة بين سلوك الناس ودوافعهم للتغيير في سورية واستجابة النظام؛ فأى سلوك مجتمعي للجماعة تحكمه دوافع أو حاجات ملحة، وهذه الحاجات إن لم يتم إشباعها بالشكل الملائم فإن سلوك الجماعة يبقى في حالة من التوتر والاضطراب، وهذا يوجب استبدال سلوكها الذي تتبعه بآخر حتى يتم إشباع حاجاتها ويزول التوتر فتهدأ.

يا ترى كيف كانت استجابة النظام في سورية لهذا التحرك -السلوك الجماعي-: هل حاول فهم حاجات المجتمع وسعى لتحقيقها ليعم الأمن هذه البلاد -وهذه وظيفة الحاكم- أم كان له أسلوب يعبر عن حالة اضطراب غير منطقي؟ هذا ما نحاول فهمه وتشخيصه في هذه الدراسة.

من المعروف علمياً بين علماء النفس أن الإنسان ما إن يدخل في جماعة أو حشد أو جمهور حتى يتخلى عن صفاته الخاصة ومميزاته ويلبس لبوس الجماعة ويتخذ سمات أخرى ما كانت موجودة فيه سابقاً، وأنه أثناء وجوده ضمن الجماعة يستطيع أن يعبر عما في داخله بصراحة وجرأة ما كان يستطيع البوح بها لو كان بمفرده،

ضمير إنساني يَقط، لقد احتجزوهم وقلعوا أظافرهم ليكونوا عبرة لمن يتفوه بكلمة خارج إرادة السلطة؛ فكانت هذه الحادثة الوحشية في معاملة من يخالف النظام الحاكم نقطة البداية التي أثارت مشاعر الجماهير السورية، وأدت إلى توحيد «الأنا الجمعي» كما يصفه علماء النفس، فمشاعر أغلب المواطنين الثائرين كانت متعاطفة مع أهل درعا، تقول قضية التعاطف -وفقاً لنظرية العلاج العقلي العاطفي لمؤسسها ألبرت آليس- : (الأحداث لا تؤثر على سلوك الناس واستجاباتهم لأن الأحداث محايدة، بل هي تثير الأفكار حول الحدث، والأفكار هي التي تولد مشاعر، والمشاعر تدفع الناس للقيام بسلوك أو استجابة تتناسب مع الفكر)^(٦).

إن الأفكار التي كانت تدور حولها الجماهير الثائرة تقول: إن هذا نظاماً لا يرضى حرمة، ولا عهد له ولا ذمة، إن كان يعاقب صغاراً -على كلمات كتبها- بهذه الطريقة الإجرامية فأى بلاء سيصيب الناشطين والمفكرين الذين يطلبون حرية التعبير والنقد والعيش الإنساني الكريم؟ وقد سكت الذين من قبلنا على بغي النظام ودفعوا ثمن ذلك فهل سنسكت نحن أيضاً وندفع الثمن؟

إن مظاهرات بداية الثورة في حمص وبانياس وحماة ودير الزور وغيرها كانت استجابة طبيعية تعاطفاً مع أهل درعا كما أسلفنا، وفي مرحلة لاحقة ظهر من بين الجمهور من يؤمن إيماناً ملتهباً بتلك الأفكار التي جمعت الناس، فقادهم دون أن يشعروا، ولم يكن ذلك بتعيين من أحد ولا بفرض القائد نفسه بل هو نتيجة لطبيعة الجماهير في الالتفاف حول الشخص الذي يؤمن بكل جوارحه بالفكرة التي يعتنقها الجميع، فتلتهف حوله الجماهير وتسانده وتكون في عونه؛ فيقوى بهم ويتحدون به، (والكثرة تصغي دائماً للإنسان المزود بإرادة قوية، والأفراد المجتمعون في الجمهور يفقدون الإرادة فيتجهون نحو ذلك الشخص الذي يمتلكها)^(٧).

إن الجماهير تستجيب لقادة يحركون مشاعرهم ويشحنون انفعالاتهم ويقودونها لتحقيق أهدافها، ولو انتهجنا نهج العالم الفرنسي غوستاف لوبون في تحليله لأحداث الثورة الفرنسية لوجدناه يقسم القادة قسمين، ولو طبقنا تحليله للوقائع الفرنسية على الثورة السورية بموضوعية ودون

النهج الخطابي هو أكثر الوسائل إقناعاً لدى الأنظمة الديكتاتورية والجماعات المتطرفة، وكان تنظيم داعش أصدق مثال على ذلك، فقد كان أمراؤها يتحدثون عن الخلافة وفتح روما والصين ونيويورك وهم لا يملكون أي أرضية شعبية تحمل أوهامهم، ولا يستطيعون التقدم في بضع قرى هنا أو هناك.

٣- التجربة:

تجارب الأجيال السابقة ربّما لا تُجدي شيئاً عن الأجيال اللاحقة، وعندما يكابدُ جيلٌ ما وقائع عصره فإنه ينطلق من تجاربه الذاتية، وإن التجربة أعظم تأثيراً على حركة الشعوب والجماعات من الشعارات أو الأوهام الكاذبة؛ فتأثير الوهم مؤقت وتأثير التجربة أثبت وأطول أمداً، وهذا ما عاينه شعبنا السوري، فقد عاش الوهم زمناً لكن التجربة أيقظته وعلمته دروساً لن ينساها ما بقي، وإن الواقع السوري اليوم يعدُّ مجالاً خصباً للأبحاث والدراسات التاريخية؛ فقد شهد تجربة لا يمكن أن تتكرر كثيراً في التاريخ البشري.

إن الجماهير السورية بمعتقداتها ومشاعرهم هي التي صنعت تجربتنا الخاصة، كما أن الجماهير البشرية بما تملك من قوة الفكرة هي التي كانت تصنع التحولات الكبرى على مر التاريخ، يقول غوستاف لوبون: (المشاعر والمعتقدات تقود التاريخ)^(٥)، وقد أثبتت الثورة السورية -أعظم ثورة في هذا القرن- بطريق التجربة أنه لا يمكن بناء المجتمع من جديد وفقاً لتصوّرات العقل المجرد، فقد كانت تكلفة ذلك كبيرة، كما برهنت تجربتنا السورية أيضاً على أن الرضى بالحكام المارقين الذين لا تحكمهم العقيدة الصحيحة والمبادئ الأخلاقية السامية يكلف شعوبهم التي تصفق لهم الموت والدمار ولو بعد حين.

محركُ الجماهير

الشعوب هي التي تصنع الأحداث التاريخية العظيمة، وهي إنما تنتفض لهدف واحد يجمعها ودافع يحركها، ولا يكون لها في البداية أي قائد لكنه يظهر في مرحلة تالية، وهذا ما حصل لجماهيرنا المنتفضة على نظام بشار الأسد الذي استخدم عناصر أمنه في درعا في شهر آذار من عام ٢٠١١ طرق تعذيب وحشية للأطفال لا يقبلها

(٦) محمد الفارس: محاضرات في الإرشاد النفسي، جامعة ماردين، ص (٥٥).

(٧) سيكولوجية الجماهير، ص (١٢٨).

(٥) غوستاف لوبون: روح السياسة، ص (١٢).

الغاية من صناعة الرموز والأبطال إعطاء الأمل لبعض الناس الذين لا يمكنهم أن يعيشوا من دون أوهام، وما انتشار تماثيل الحاكم وأسلافه في بلد ما إلا نوع من إشاعة الوهم لتصويره بصورة الحقيقة التي لا تقبل الجدل ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهُتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٢]، وقد يأتي زمان تنقلب فيه الجماعة على هذه الأوهام لكن بعد أن تدفع ثمنًا باهظًا.

وتلعب الخطب ذات الكلمات العاطفية دورًا بالغًا في صناعة الأوهام وتضخيمها، فالعامل الكبير في تطور الشعوب ليس الحقيقة بل الخطأ^(٤)، فإذا كان النظام اليوم يشهد رواجًا بين بعض فئات المجتمع فإن ذلك لكونه يشكل الوهم الوحيد الذي نسجه لدى أتباعه، والمدافعون عنه غالبًا هم من الجهلة التي تسيطر عليهم قوة الخيال والعاطفة بدل العقل ولا ينفع معهم الحجاج المنطقي لإنقاذهم مما هم فيه؛ إذ لا شيء يؤثر فيهم أكثر من وهم أكبر مما هم فيه، فمن يستطيع إيهامهم أكثر يستطيع أن يقودهم وينصب نفسه سيدا عليهم، ومن يحاول إقناعهم بالعقل يصبح ضحية لهم.

إن صناعة الوهم والتلاعب بالكلمات واعتماد

وجهها، فاستعدوا لمواجهة أبناء شعبهم على أنهم أعداء وخونة، لقد شحنتهم هذه الكلمات بشحنة انفعالية أوصلت صورًا خاطئة لذاكرتهم جعلتهم يحتاطون بسياج من الخوف والعداء للآخر.

إن كلمة مثل الحرية تعني للجماهير المتفضة على الاستبداد والطغيان العسكري إتاحة الفرصة للتفكير الحر بصوت مسموع وانتقاد أخطاء الحاكم ورموز سلطته، أو القدرة على ممارسة الاعتقاد الذي يريدونه ويقتنعون به دون قيود أو شروط تفرضها الدولة أو من يحتمي بسلطتها.

وتعني كلمة الوطن لفريق السلطة الذي رضي بالعبودية للطاغية شخص الحاكم نفسه، فهو الوطن على الحقيقة، وتقديسه والتضحية في سبيل بقائه تضحية من أجل الوطن وإن وصل به الأمر إلى تدمير الشعب وبيع الوطن والتحالف مع الأجنبي من أجل الحفاظ على مكانته لأنه رمز الوطن؛ فهؤلاء عبيد السلطة ينقادون للحاكم كما كان ينقاد الفلاح للإقطاعي، يحسبه الوطن ولقمة العيش؛ وفي الوقت ذاته تجد كلمة الوطن تعني لفريق آخر من الشعب ميراث الأجداد وشرف الأمة

وموطن الذكريات الجميلة في عهد الطفولة والصبا، ومصدرًا للثقافة والمحبة، بينما يعني لفريق آخر السجن الكبير الذي كان يُحسب فيه كل شيء بدقة متناهية وفق إرادة السلطة، ولا يحق لأحدٍ يعيش فيه الخروج عن تلك الحدود المرسومة له؛ وعلى هذا فالتأثير على الجماعة أو الشعب يكون أولاً بإدراك المعنى المخزون في عقولهم لهذه الكلمة وما تثيره من صور، فالكلمات تعيش كالأفكار وإن تبدل معناها من زمن إلى آخر ومن جماعة إلى أخرى.

٢- الأوهام:



(٤) سيكولوجية الجماهير، ص (١٢٢).

السمات النفسية العامة للطاغية

إن الحديث عن سلوكيات الجماهير لا تتم الفائدة منه إلا بالاطلاع على ذهنية الطرف المقابل - وهو الطاغية المستبد -: كيف تكون سلوكياته وما هي دوافعه؟ ومن هنا كان الحديث عن الطاغية في مواجهة الشعب الباحث عن حقه في العيش العادل والكرام.

إن الطاغية لا يتصرف دائما بعشيرة رتيبة أو يوافق ويكذب فقط في كل ما يفعل كما يظن بعض الناس بل ينطلق في بعض تصرفاته من طغيان محض أو كذب واضح، وينطلق في أكثرها من أمراض نفسية مرتكزة في أصل طبعه توجه فكره وتحكم سلوكياته؛ لهذا تجده يدافع عن جبروته وسفكه للدماء وتدمير الأوطان بقناعة شبه مطلقة، وقد يقدم على الموت في سبيل هذه القناعات الشاذة، وإننا إذا فهمنا هذه الأمراض وعرفناها فسنكون أكثر قدرة على توقع سلوكياته والتصرف بحسب ذلك.

١ - البارانونيا:

من أهم سمات الطاغية ما يعرف عند علماء النفس باسم «البارانونيا»، ويقابلها بالعربية مرض العظمة الذي ترافقه كمية كبيرة من الشكوك والارتباب، وهو مرض نفسي عصبي يؤثر سلبا على المتصف به، فكل طاغية في هذا العالم يكون مصابا حتما بمرض العظمة؛ فهو يختزل كل شيء في شخصيته ويرى العالم من خلالها فقط، وهو المركز، وكل ما يدور حوله ينطلق من وجوده، وهذا هو ما كانت تعبر عنه دائرة الأسد المؤيدة له حينما تقول: سوريّة الأسد.

جنون العظمة هذا يكون جزءا من شخصيته «البارانونية» أو عَرَضًا من أعراضها، والبارانونيا هي أحد أشكال ما يُسمى باللغة العربية عقدة الاضطهاد والتآمر، ومن أعراضها الهذيان الثابت المنتظم، وإن كان المصاب يبدو بحسب الظاهر سليما من حيث القدرة العقلية والاستدلال غير أنه يبني استدلالاته على أوهام وحوادث غير واقعية، وتجدر الإشارة إلى أن أول من تكلم عن هذا المرض هو العالم الألماني ريشارد فون

بشكل عام يعيش الطغاة في عالمهم الخاص متوقعين في مجدهم الذاتي منفصلين تماما عن الواقع، فمثلا في تصريح لنيقولاي تشاوشيسكو -الطاغية الروماني الشهير- ردّا على سؤال لأحد الصحفيين عما إذا كانت المظاهرات التي عمت مدن رومانيا ستؤدي للتغيير، وهل يخشى أن تتطور الأمور للأسوأ؟ قال: لا يوجد شيء مما تقولونه، واستطرد بعنجهية مستهزئا: لن يحدث تغيير في رومانيا إلا إذا تحولت أشجار البلوط إلى تين، وبعد هذا التصريح بأربعة أيام فقط قبض على الطاغية هاربًا مع زوجته، وأعدما رميًا بالرصاص، وقريبًا من هذا ما كان يردده بشار الأسد وأركان حكمه، حتى إن وسائل إعلامه كانت تنفي وجود مظاهرات بمئات الآلاف في حماة، وتقول: الناس خرجوا ليحمدا والله على نعمة المطر، وتختلف درجة الإصابة بمرض جنون العظمة من طاغية إلى آخر، منهم من يكون على الحد الفاصل بين الحالة المرضية والحالة الطبيعية، وبعضهم تشتد إصابته، فدمار آلاف البيوت وقتل مئات الآلاف من المدنيين لم يمنع الطاغية الأسد من القول بأنهم ثلة إرهابيين قضينا عليهم.

الشخص البارانوني يكون بشكل عام طموحا، يُسَخَّر كل شيء في سبيل الوصول إلى غايته، ويعتقد أن الجميع يريد النيل منه عبر حياكة مؤامرات خفية ضده، ولديه شعور دائم بالتهديد من قبل الأعداء، فإن لم يكونوا موجودين في الواقع عمل على إيجادهم في مخيلته؛ لذلك يكون حذرا جدا غير متسامح أبدا، قلقا حساسا سريع الاتهام للآخرين بالكذب والتآمر عليه خصوصا من يخالفه الرأي.

٢ - الرأي والرأي القاتل:

طبائع المستبد لا يمكن أن تتسع لأي خلاف من أي نوع كان، فهو لا يستمع لغيره ويعتقد أنه دائما على حق وصواب، وأي اختلاف معه في الرأي هو جزء من المؤامرة عليه، فهو يرى مخالفته في الرأي نوعا من الخطر الذي يهدد سلطته ووجوده، وهو ما يستوجب التخلص من مصدره دون تردد، وغالبا ما يكون الطاغية

(١٣) أخذت عناوين صفات الطغاة من مقال للأستاذ الدكتور ناصر أحمد سنه بعنوان: سيكولوجية الطغاة والمستبدين، منشور على موقع دنيا الوطن الفلسطيني على الشابكة. وانظر أيضا «جنون العظمة وشهوة السلطة: التحليل النفسي للطغاة والمستبدين» للدكتور عزام محمد أمين على موقع قناة أورينت على الشابكة أيضا.

بن الخطاب رضي الله عنه وكانت أعدادهم أقل من ربع المشركين والكفار^(١٠)، إذا يكمن دور القادة في بث الإيمان سواء كان دينياً أم سياسياً، وهؤلاء كانوا أعداداً قليلة في الثورة، نذكر منهم من يُجمع أغلب السوريين على عدّه قائداً مثل عبد القادر الصالح، وأبي عبد الله الحموي قائد أحرار الشام، والعقيد أبي فرات الجادر رحمهم الله، يقول لوبون: (غالباً ما أنجزت أحداث التاريخ من قبل مجهولين لا يمتلكون إلا إيمانهم الخاص، حتى الأديان التي حكمت العالم لم تؤسس من قبل الفلاسفة أو الأدباء أو

المتشككين بالطبع)^(١١)، بل أسسها

أناس يعتقدون كل الاعتقاد

بفكرة تستحوذ على عقولهم

حتى إنهم ينسون غريزة

البقاء نهائياً لشدة

اعتقادهم بفكرتهم وإن

كانت الفكرة نفسها هي

التي يعتقدها الجمهور،

وهذا هو سبب تمسك

الجماهير بالقائد بقوة،

لكن أمثال هؤلاء القادة

نادرون جداً؛ لذلك سعى

النظام في سورية -ولا يزال-

بالتحالف مع الدول الداعمة

له إلى القضاء على القادة لعلمهم

أن الجماهير تعود إلى طبيعتها الفردية

والعشوائية في فترة غياب القائد المؤمن أو فقدانه.

وخلصت أحداث الثورة الفرنسية إلى قانون نفسي غريب يتعلق بهؤلاء القادة، مفاده أن (هؤلاء القادة يبدون ضعافاً بعد أن يعودوا إلى طبيعتهم، فهم عاجزون عن التصرف الناجح في الظروف الأكثر بساطة بعد أن كانوا قد عرفوا كيف يقودون الآخرين)^(١٢)، فالقادة الذين ظهروا وقت الضرورة حينما ينتهي الصراع وتعود الحياة إلى طبيعتها السلمية يعودون أفراداً في المجتمع كما كانوا قبل الصراع، فإنهم وإن كانوا ذوي بصيرة في القيادة أثناء الصراع فإنهم يفقدون ذلك في حياتهم

تحيز لوجدنا ثمة تشابهاً كبيراً في صفات الجماعات وفي أنواع القادة الذين ظهروا في صفوفهم؛ إذ إن سلوكيات الجماهير تظهر نتيجة قوانين نفسية اجتماعية شبه ثابتة، ولو قامت في مجتمعنا السوري دراسات علمية جادة تعمق في تحليل وقائع الثورة لاستطاعت أن تعطي نسباً دقيقة عن مدى تشابه السلوكيات الثورية بين ما حدث في فرنسا قديماً وما يحصل في سورية حديثاً، هذا رغم اختلاف الثورتين زمانياً وجغرافياً واجتماعياً، فإن الثورة الفرنسية بدأت عام ١٧٨٩م واستمرت حتى عام ١٧٩٩م^(٨).

إن القادة الذين التفت حولهم

جماهير الثائرين في سورية

صنفان :

الأول: خطباء ماهرون

حاولوا دغدغة مشاعر

الجماهير، فكان نفوذهم

مؤقتاً عابراً، سواء كانوا

مخلصين فيما يدعون

إليه أم لم يكونوا،

وعلى العموم فقد نسيهم

الجمهور وعافهم مع

الأيام.

الثاني: صنف القادة الحقيقيين

الكبار، فهم الذين تستمر سيرتهم

ويدوم ذكرهم حتى بعد استشهادهم

لأنهم ما استطاعوا تحريك روح الجماعة والتأثير

فيها إلا بعد أن سُجِّروا هم أنفسهم بما يؤمنون به.

إن القادة الحقيقيين في كل ميدان هم من ملكت الفكرة حياتهم كلها سواء كانت دينية أم سياسية أم اجتماعية، وهم القادرون دائماً على إثارة نفوس الناس بطاقة هائلة تملأ قلوبهم وتدعى الإيمان ويعبر عنها لوبون بقوله: هي (القوة التي تجعل الإنسان عبداً مطلقاً لحلمه)^(٩).

وكلنا يعرف مدى تأثير الإيمان وفاعليته على أرض الواقع، فإنه يزحزح الجبال، فإذا تزود الإنسان بالإيمان تضاعفت قوته عشرات المرات، وبذلك انتصر المسلمون على الفرس والروم في عهد الخليفة عمر



« الطاغية لا يتصرف دائماً بعشوائية رتيبة
أو ينافق ويكذب فقط في كل ما يفعل
كما يظن بعض الناس بل ينطلق في
بعض تصرفاته من طغيان محض أو
كذب واضح »

(١٠) د. حسن الخطاف: علم الاجتماع الديني، جامعة ماردين، محاضرات في كلية الشريعة، عام ٢٠١٧.

(١١) لوبون: سيكولوجية الجماهير، مرجع سابق، ص ١٢٩.

(١٢) المرجع السابق، ص ١٣٠.

(٨) خالد أبو بكر: موقع إسلام أونلاين <https://archive.islamonline.net/?p=٩٦٧٧>.

(٩) سيكولوجية الجماهير، ص (١٢٨).

نهار لا لراحة الناس بل لمراقبة المواطنين وزرع الخوف والرعب في قلوبهم، ففي نظام الاستبداد الشمولي كل مواطن عرضة للاتهام بالخيانة والتآمر على الوطن وإضعاف الشعور الوطني والقومي.

ومن الوسائل التي يعتمد عليها الحاكم الطاغية في الأنظمة الشمولية السيطرة على كل مفاصل الدولة والحياة الاجتماعية، فلا يسمح إلا لحزب واحد وإعلام واحد أي إعلام السلطة، ويعتمد في ترسيخ ذلك على العقيدة والبروباغندا والصورة على النحو الآتي:

١ - العقيدة:

كل نظام شمولي يستمد شرعيته من عقيدة قومية أو أممية أو دينية، وهي وسيلة للسيطرة على جميع الفئات العمرية في المجتمع^(١٥) كطلائع البعث وشيبة الثورة وغيرها من الفئات، وتُعد هذه العقيدة المصدر الشرعي للسلطة، ولكن غالباً ما يتم تفرغها من محتواها واختزالها بشخصية الطاغية «الأسد»، فهو الوحيد القادر على فهمها بشكل صحيح وتطبيقها وحمايتها من الانحراف وتصحيح مسارها في حالة ابتعادها عن أهدافها كما فعل في الحركة التصحيحية.

إن حالة الانفصام النفسي والبارانويا التي يعيشها الطاغية تنعكس على العقيدة نفسها، فنجد فرقا شاسعا بين الأفكار التي تنادي بها هذه العقيدة وسلوك من يتحدث باسمها بداية من الطاغية وحتى أصغر أتباعه، ففي الأنظمة الشمولية يسعى الطاغية دوماً عبر وسائل إعلامه لأن يكون رمزاً للعقيدة من جهة وللوطن من جهة أخرى، فلا يمكن الفصل بين الوطن والقائد والعقيدة، وأي هجوم على شخص القائد هو انتقاص من قيمة الوطن وعقيدة جنوده، وعلى ذلك فكلما ذكر الوطن ذكر القائد وكلما ذكر القائد ذكر الوطن، وهكذا دواليك على مدى سنوات حتى يغدو ثمة خلط واضح بين الاثنين في أذهان مؤيديه، فأيّة ثورة أو تمرد على النظام الشمولي وقائده هي خيانة للوطن!

٢ - الصورة:

للصورة الشخصية «بورترية» مكانة مركزية خاصة في حياة الطاغية وحكمه، فهي تنتشر في كل مكان وزاوية من زوايا الوطن، ولها وظيفتان:

وهذا ما تلخصه مقولة بعض أتباع الأسد في بلادنا: «هو إنسان جيد لكنه محاط بأناس فاسدين»، وكذا أقواله المتكررة بوصف الشعب بأنه «قليل التربية، فاسد، لا يقدر على العيش في أجواء الحرية».

يشعر الطاغية أن المكان المميز الذي يشغله لا يمكن أن يشغله أحد غيره لما له من شخصية مميزة لا يملكها أحد، فمنصبه لا يمكن أن يُصبح شاغراً إلا بموته، وعلى الأغلب سيتقل إلى أحد أبنائه، فالشخصية المميزة الفريدة المباركة يتم توريثها لا اكتسابها، وإضافة إلى ما سبق يتمتع الطاغية بنزعة تدميرية مخزونة لديه في اللاشعور، ولا تنتقل هذه النزعة إلى الحيز الشعوري والعملي إلا حين يشعر بتهديد، فيكون مبدؤه على غرار ما فعله شمشون في الأسطورة عندما هدم القصر وقال: «عليّ وعلى أعدائي»، وقد كان سلوك الأسد في سورية وفق هذه القناعة النفسية المريضة عندما شعر بتهديد محتمل لكرسيه، فقام بتدمير البلد الذي كان يتغنى به، ولم يترك نوعاً من أنواع السلاح الفتاك المدمر إلا استخدمه من أجل منع الآخر من الكلام أو التطاول على شخصيته الفذة وحكمه الفريد، ومن هذا المنطلق شاعت بين شيبة الأسد عبارة (الأسد أو نحرق البلد)، وقد فعلوا.

إن الطاغية يضع نفسه في صورة كائن لا حدود لإمكاناته ولا لإرادته، ولا يسمح لأحد بأن يقف في طريق ممارسته السلطة المطلقة، وهو يفضل الموت على ترك كرسي الحكم لا لأنه شجاع كما يحاول أن يصفه أتباعه بل لأنه لا يتصور وجوده وحياته بدون كرسي السلطة الذي يعتقد أنه خلق لأجله.

الوسائل الرمزية أو غير المباشرة للاستبداد

وسائل الطاغية في الاستبداد كثيرة تشمل كل جوانب الحياة العسكرية والمدنية أو السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وبعضها أسبق في الترتيب والأولوية من بعض، أمّا الوسيلة الأولى المباشرة للاستبداد في الأنظمة الشمولية فهي الجيش، وغالباً ما تتم السيطرة عليه بشكل مباشر من قبل الطاغية وعائلته، فيغدو مُسَخَّرًا لخدمته وخدمة هذه العائلة كما في كوريا الشمالية أو ليبيا سابقاً وسورية اليوم وبالأمس، وهناك أيضاً المنظومة البوليسية أو قوى الأمن التي تعمل ليل

(١٥) رانيا قناوي: كيف تستمد الأنظمة الشمولية شرعيتها- السيسي والعسكر نموذجاً.

قبل الله، والقدرات الخارقة التي تنسب إلى الحاكم من قوة وشجاعة وحزم وذكاء خارق وحنكة سياسية ما هي إلا نتيجة القدسية القائمة في شخصه، وهذه الصفات العليا تجعل منه شخصية تاريخية على مستوى العالم والتاريخ، وفي هذا السياق كانت لقاءات وخطابات حافظ الأسد التاريخية الفريدة، فما استمدت امتيازها إلا من كونه القائد الخالد المقدس.

هذا الإحساس بالعظمة والتفرد يقود الطاغية المستبد أحياناً إلى تصرفات مستغربة أو إلى سلوك مضحك كما كان يفعل القذافي، كان يُقبل على تصرفات غريبة ويلبس ملابس مضحكة ظناً منه أنه المركز والقدوة في تصرفاته في هذا العالم؛ فلا حرج عليه إذ إنه يقدم ثقافة فريدة لبني البشر، وكذلك كان بشار الأسد في حبه شرح المفردات والتفلسف في إيصال المعلومات اليسيرة، ولا يشعر بأن ذلك يظهره بمظهر الضائع المنفصل عن الواقع أو بشخصية الأبله، ناهيك عن أنه يُردفها بأشكال من الضحك الغريب.

٣- الشخصية المميزة:

المستبد يُقدم نفسه على أنه شخصية مطلقة تجتمع فيها المتناقضات، فهو قوي جبار شجاع يضرب بيد من حديد بدون أي شفقة، وفي الوقت نفسه لا يتردد عن ارتداء معطف الأب الحنون المحب العطوف الحكيم الذي لا يتوانى عن تقديم العطاءات والمكرامات لأتباعه، يمكننا أن نرى تعبيراً صارخاً لهذا التناقض في الألقاب التي اختارها الطاغية لأنفسهم أو دفعوا من حولهم لاختيارها، فرغم قسوة جوزيف ستالين ومسؤوليته المباشرة عن قتل ملايين الناس اختار لنفسه لقب «أبي الفقراء» أو «الأب الصغير للشعوب»، أمّا معمر القذافي فلقب نفسه أو لقب بملك ملوك أفريقيا وبالأخ القائد، وكذلك حافظ الأسد لقب بالأب المناضل وبالقائد الخالد.

والطاغية معصوم من الخطأ، فإذا حصل خلل ما وانتشرت الجريمة والفساد والرشوة فهذه مسؤولية الآخرين الذين لم يطبقوا جيداً نصائحه وتوجيهاته،

«سايكوباتياً» في لحظات الغضب والانفعال إذ يسقط قناع العقل والتهذيب الذي عادةً ما يحاول الشخص إظهار نفسه بهما^(١٤)، إن كلمة واحدة مخالفة لرأي حافظ الأسد كانت كافية لتودي بصاحبها إلى العزل السياسي وربما التصفية الجسدية حتى لو كان من أقرب المقربين ومن أكثر الموالين المخلصين، فالمستبد لا يعرف الرحمة أو الشفقة، وانتقال الشخص من حيز الصداقة الصافية إلى حيز العداوة الخطيرة يتم لأنفه الأسباب، وربما تكون أسباباً وهمية لا أساس لها من الصحة؛ ونتيجة لهذا قام ستالين وهتلر وموسوليني وجمال عبد الناصر وحافظ الأسد وغيرهم من الطغاة بتصفية كل من يمكن أن يختلف معهم أو يروا فيه تهديداً محتملاً لسلطتهم.



«المستبد يُقدم نفسه كشخصية مطلقة تجتمع فيها المتناقضات، فهو قوي جبار شجاع، وفي الوقت نفسه لا يتردد عن ارتداء معطف الأب الحنون»

الطاغية متكبر مغرور ينفرد برأيه ويستقل به ويعتقد أنه المصدر الوحيد للرأي الصحيح والفكر السليم، وأن قراراته دائماً حكيمة، وأنه مهم جداً على الصعيد العالمي، وأن قراراته تشكل حجر الزاوية في السياسة العالمية، ويشعر أنه عرضة لمؤامرة داخلية من أعدائه داخل الوطن كما هو عرضة لمؤامرة خارجية من أعداء الوطن الذي يمثله ويدافع عنه بحنكته ولا أحد غيره يقدر على تمثيله؛ لهذا يرى في نفسه العظيمة تمثيلاً للوطن الذي لا يستطيع حمايته سواه، فأية معارضة له هي محاولة لخيانة الوطن وتدميره.

٣ - القدسية:

يذكر عبد الرحمن الكواكبي في «طبائع الاستبداد» أنه «ما من مستبد إلا ويتخذ صفة قدسية يشارك بها الله»، فالطاغية يعتقد أنه على تواصل مع قوى عليا يستمد منها قدرات خارقة لحمايته وحماية أتباعه، فأمان الشعب والوطن تابعان لصفته القدسية التي يشعر بها في داخل نفسه، وهكذا فإن عبارة (سورية الله حاميها) تعني ضمناً أن الله يحمي سورية لا لشيء عند السوريين شعباً وأمة بل بفضل وجود القائد الملهم المبارك من

(١٤) هيرفي كليكلي: قناع الصفة، ١٩٤١م.

فحسب بل من أجل تأجيج المخاوف من المجهول، ولاستنفار الهويات العرقية أو الطائفية المضمرة؛ فالخوف والهلع يحرك غريزة البقاء، ويستنفّر الشعور الجمعي القطيعي للدفاع عن «نحن» ضد «هم»، ومن أجدد من ذاك النظام الذي نعرفه بالدفاع عن هذه الـ «نحن» المهددة بالإبادة إن رحل.

الثالثة: تسويق فكرة المؤامرة

في زمن الاستقرار أو الاضطرابات السياسية هناك ثلاثة مصطلحات مستخدمة يوميًا في وسائل إعلام النظام هي: عدو ومؤامرة وخيانة، فمن خصائص هذا النظام افتعال الأزمات وخلق أجواء متوترة ملائمة لإثارة الحروب مع أعداء خارجيين بغية تخويف الشعب وإشغاله وتوجيهه من خلفه؛ فلا شيء يجمع الشعوب كالخوف، ولكل نظام شمولي عدوه الخارجي الحقيقي أو المصطنع، ومهمته الأولى هي مقاومة هذا العدو، فأية مطالبة بحقوق الإنسان والعدالة وتحسين الأوضاع المعيشية هي مؤامرة وخيانة مرتبطة بذلك العدو؛ فليس المقصود منها سوى تفريق الصفوف وإضاعة الوقت والجهد.

في مثل هذه الأجواء يجد الطاغية مجالًا مناسبًا لممارسة العنف والقتل دون حسيب أو رقيب بما يسمى «ميولا سايكوباتية»، وإن تاريخ الطغاة من جنكيز خان وهولاكو ونبيرون حتى هتلر وموسيلني وماوتسي تونغ وستالين وصولاً إلى جمال عبد الناصر والقذافي والأسد يشهد بحقيقة هذه الحالة الحربية الدائمة التي يضع فيها الطاغية شعبه.

بروباغندا الأنظمة الشمولية لا يتم فرضها دائماً بالقوة، فاللغة الحاملة للعقيدة ومصطلحاتها تدخل في الاستعمال الشعبي والجماهيري حتى لو لم تتبنَّ هذه الجماهير عقيدة النظام، فتجد المواطن الذي يشقى من أجل الحفاظ على نفسه وتحسين حالته يتبنى عفويًا لغة

طبعًا لا يخفى على أحد أن الإعلام في الأنظمة الشمولية لن يكون سوى إعلام منفصل عن الواقع على شاكلة الطاغية، فغالبًا ما تكون الحالة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية للمواطن مزريّة بعيدة كلّ البعد عما تصوره بروباغندا النظام.

الثانية: تسويق الاستقرار مقابل الحرية

إذا كانت الوظيفة الأولى لإعلام الطاغية تمجيد شخصه وقت السلم فإن مهمته في فترة قوة المعارضة أو ظهور الثورة الحديث عن الأمن والاستقرار الذي أحضره لشعبه، وابتزاز الشعب بهذا الاستقرار للتخلي عن مطالبه في رفع الظلم أو العيش الكريم.



«بروباغندا الأنظمة الشمولية لا يتم فرضها دائماً بالقوة، فاللغة الحاملة للعقيدة ومصطلحاتها تدخل في الاستعمال الشعبي والجماهيري حتى لو لم تتبنَّ هذه الجماهير عقيدة النظام»

في زمن الاضطرابات السياسية والثورات تختفي منذ أول هزة سياسية عبارات الوحدة الوطنية والكبرياء الوطني وعظمة الشعب الحضاري العريق الذي يرأسه القائد العظيم، وتحل مكانها عبارات تجسد حالة الانقسام والفتنة والطائفية، وتتحول البروباغندا إلى نوع من التجييش والتخويف من المستقبل والتهديد، والمقايضة بين القبول بواقع الاستبداد والعبودية أو الفوضى والخراب، ذلك أن ابتزاز الشعب بالأمن مقابل تخليه عن مطلب الحرية ورفع الظلم هو المحرك الأساسي لإعلام الأنظمة المستبدة حين تبدأ الشعوب بالانتقاد أو الثورة.

وتحاول بروباغندا الأنظمة الشمولية تصوير شعوبها على أنها قاصرة متخلفة همجية غير قادرة على قيادة نفسها بنفسها؛ فهي شعوب لا تعرف ما هي الحرية ولا تستحقها، وهي بحاجة دائماً لحكم الطاغية القوي لضبطها ووضعها على الطريق الصحيح، أي تحتاج إلى التغني بسلطة الحذاء العسكري والخوف من الضياع إن تخلّى عن الشدة والطغيان، وهكذا تنتشر قصص العصابات المسلحة والخطف والاعتصاب والخبز المسموم لا من أجل إثارة البلبلة وتضييع الحقيقة

الأولى: وظيفة رمزية

في الحضارة» أنه كلما زاد الخوف عند الطاغية من فئائه ازدادت دوافعه التدميرية ظهوراً، وزادت معها التدابير والإجراءات الوقائية للحيلولة دونها^(١٦).

٣- البروباغندا واللغة

بشكل عام ليس في سورية شيء اسمه إعلام، وإنما هناك نوع من الدعاية الإعلامية الموجهة «بروباغندا»، فجميع وسائل الإعلام والتواصل الجماهيري من صحف ومذيع وتلفاز تخضع بشكل مباشر مُحكم للطاغية أو أحد أفراد عائلته ودائرته المقربة، وتُعد البروباغندا الحامل اللغوي للعقيدة، ونجدها تستخدم لثلاث وظائف:

الأولى: تمجيد مصدر إلهام الشعب

تعمل هذه الدعاية الإعلامية الموجهة في زمن السلم والاستقرار على تأكيد وجود الطاغية في الأذهان والحياة، فتركز الدعاية الإعلامية على تمجيد الطاغية والتغني بمنجزاته العظيمة في مجال بناء الوطن والاقتصاد، وغالباً ما يحاول الطغاة ربط أسمائهم بالحدث والتحديث للتأكيد على أن الأوطان قبل وصولهم المبارك للسلطة كانت في عهد الظلمات، فتظهر مصطلحات مثل: باني سورية الحديثة، قائد مسيرة التحديث والتطوير، وتكون المهمة الأساسية لوسائل الإعلام هي صناعة صورة استثنائية للطاغية ولنظامه بغية وضعه فوق مواقع الآخرين من حيث القدرات الفكرية وتمييز الأداء، كما تعمل آلهة الإعلامية على ابتكار بطولات خرافية تتحدث عن بعض الخوارق التي ترتبط ببعض سلوكيات القائد إلى درجة اعتباره مصدر إلهام الشعب في العلوم والآداب والفنون! فالطاغية هو الراعي الأول للعلم والعلماء، وهو المعلم الأول لأن «المعلمين هم بناء الأجيال»، وهو الطبيب الأول والمهندس الأول والفنان الأول والجندي الأول والفدائي الأول والفلاح الأول...

في جميع وسائل الدعاية من صحافة وتلفاز وراديو يتم التركيز على الوحدة الوطنية والتلاحم بين القيادة والقاعدة الشعبية والصمود والتصدي، وقد ترفدها مفاهيم تتقدم أو تتراجع حسب السياق التاريخي كالاشرابية والتقدمية والازدهار الاقتصادي والعلمي الذي تعيشه البلاد بفضل حكمة وذكاء القائد.

وجود صورة الطاغية يُعبر عن قبول الطاعة والولاء له؛ لذلك يجب أن تكون في الأماكن العامة والخاصة جميعها، تعم الحارات والمؤسسات ومداخل المدن والقرى والأسواق والحدائق والشركات العامة والخاصة والجامعات والمدارس والمستشفيات والمساجد والأماكن الأثرية والوزارات... ولا مانع من المبالغة في ذلك؛ فصورة القائد البطل المغوار منقذ الأمة معلقة في أكبر الشوارع كما في أصغرها وفي البيوت وعلى السيارات الحكومية والخاصة وعلى الكتب والدفاتر المدرسية وحتى في المحفظات الشخصية.

يجب أن يكون للطاغية حضور دائم، فأنى وليت وجهك تجد أمامك نصباً كبيراً له، أو جدارية عالية لرمز يرتبط به، أو صوراً وملصقات عشوائية تغطي الجدران ويظهر فيها بمناسبة أو بدون مناسبة.

الثانية: وظيفة نفسية

المستبد يعشق ذاته وتصل نرجسيته حد الهوس، فكلما كانت الصورة كبيرة ضخمة شعر بوجوده وقوته والرضى الذاتي عن الأنا المتضخمة في داخله، هذه الأنا المتضخمة في نفس الطاغية إلى حد التورم تنعكس على تماثله التي تتوسط تقريباً جميع المدن والبلدات، فالطاغية يسعى لتخليد شخصه من خلال الانتشار الهائل لصوره وتماثله، إنها تمنحه الثقة بالنفس والشعور بالعظمة؛ لذلك لا يتردد بأمر أتباعه بالقيام بتنظيم مهرجانات أو نشاطات خاصة للاحتفال بالصورة، هذا ما كان يحدث في بلادنا، تنطلق احتفالات ومسيرات لها أول وليس لها آخر تحتفل بصور القائد الخالد وتحج نحو أضخم تماثيل له في المدينة، وتختلف صورة الطاغية من مناسبة إلى أخرى بحسب المراد منها، فتارة يكون رجل علم مثقفاً يحمل في يده كتاباً، وتارة يكون قائداً عسكرياً ومحارباً فذاً يحمل السلاح وتملاً صدره الأوسمة، وقد يرتدي مرة لباس الفلاحين أو العمال، فهو ينتمي إلى كل الطبقات.

هذه النرجسية المتضخمة يختبئ خلفها إحساس بضالة وخوف يحاول الطاغية كبتهما دائماً، وكلما اشتد الكبت والإحساس بالكذب والنفاق أمر أعوانه بتنظيم الفعاليات التي تمجده وتؤكد له أنه عظيم بحق وأن وسوسه أوهام لا حقيقة لها، يقرر فرويد في كتابه «قلق

(١٦) سيمونند فرويد: قلق في الحضارة، دار الطليعة-بيروت، ت: جورج طرايشي، (١٩٨٢م).

كيف نصلح ما أفسده الأسد

محمد علي النجار - محرر مجلة مقاربات



ثمانين سنين عجاف مرت وتاسعة مكفهرة تحاصرنا ومعاناة شعبنا في ازديادٍ وبريقُ الأمل في عينيه إلى خفوت، لم يبق أماننا كثير لننقذ ما بقي من أمل في نفوس الكادحين الذين قدّموا فلذات أكبادهم وكل ما يحبون لبروا وطنًا عزيزًا ترفرف راياته البيض عاليًا.

كثيرة تلك الدراسات التي توصف الحالة السورية الراهنة دون محاولة نفاذ إلى العمق، ومثلها تلك التي تكتفي برمي أمرنا على أعتاب الخارج وتبعد عن شعبنا كل مسؤولية، لكن الحقيقة أن ما حل بنا ليس سوى نتاج عقود طويلة من سكوتنا على الطاغية المجرم وعجزنا عن مواجهته؛ فعلينا أن نحمل مسؤولية ذلك علمًا أننا لا ننكر الدور الخارجي الدولي في تشييت صفوفنا والوقوف ضد مطالبنا.

إن الثورة السورية لم تفسد المجتمع ولم تسبب الفوضى كما يدعي قوم، وإنما كشفت أمراضًا تشبّع بها مجتمعنا السوري عبر عقود من حكم البعث أو الأسد الأب والابن، وإن الدراسة الوافية المتأنية لما عاشه شعبنا السوري في العقود الماضية كفيلة بتقرير شكل الإصلاح الذي يحتاجه شعبنا في السنوات القريبة القادمة؛ فواجبنا اليوم دراسة أمراض مجتمعنا

السوري بغية علاجها، وهذا أساس أول لبناء الدولة السورية الشريفة التي يحلم بها كل أبناء الوطن وبُناته.

أمراض المجتمع السوري

إن الأمراض التي زرعتها النظام الطائفي في بلادنا تستوعب الحياة السورية بكل جزئياتها وأشكالها وميادينها السياسية والعسكرية والإدارية والاجتماعية والاقتصادية، وإن توصيف أصول هذه الأمراض المهلكة أساس للحديث عن طريقة علاجها أو حصارها.

الأمراض السياسية:

هناك أمراض سياسية كثيرة نخرت في قلب الدولة السورية والحياة السياسية في بلادنا، وأهمها قتل مفهوم الدولة ومفهوم الوطن، استطاع حافظ الأسد عبر سني حكمه الأولى أن يحول الدولة في ذهن موظفي الدولة العسكريين والمدنيين من المعنى البسيط المعروف لكل شعوب الأرض السوية إلى شخصه، فأصبحت الدولة هي الأسد والأسد هو الدولة، ولا فرق بين خدمة أحدهما بل أصبح الأسد بمرور الأيام أكبر وأولى بالخدمة من الدولة نفسها، خاصة أن الدولة بكل مؤسساتها أصبحت تخدم الأسد، وبصفتي مواطنًا سوريًا أعيش في تركة أرى الشعب التركي يتكلم عن خدمة

الدولة وأبوتها للمواطن ورعايتها له وفي ذهنه أبعاد واضحة لمفهوم الدولة، وعندما أنكفى إلى نفسي باحثًا عن هذا الشعور في أعماق وجداني أُراني لا أجده، أين الدولة؟! تلك الأم التي ترعى شعبها وتعطف عليه، أو ذلك النسب الأصيل الذي تمنحه لأولادها فيقال ابن الدولة، أبحث وأبحث فلا أجد شيئًا من ذلك، تظهر أمامي صورة الأسد بكل ما تحمل من فساد وظلم وطغيان ودماء وبغي على القريب والبعيد ومتاجرة بقضايا الأمة، ثم ما تلبث أن تغيب حتى تظهر صورة الأسد الابن ومعها مئات آلاف الشهداء وملايين المهجرين.

وبالتوازي مع سقوط مفهوم الدولة انحدر مفهوم الوطن حتى غاب عن الأذهان، فأصبح الوطن هو ذلك الامتداد الجغرافي الجميل الذي يخدم الأسد، ولا يحق لنا أن نعيش فيه إلا وفق قوانين الظالم الذي يملك حق بيعه لمن يشاء ومنحه لمن أراد ومنعه لمن لا يواليه، وقد لخص شبيحة الأسد هذه المعاني عندما قالوا: سورية الأسد، تلك الكلمة التي فسرناها عبيده في الثورة بقولهم: الأسد أو نحرق البلد، لقد أصبحت مقاييس الوفاء للوطن والدولة ترتبط مباشرة بمقدار الولاء للأسد والتمحور حوله!

نفسه بواسطة السلاح، وهذا شيء طبيعي جداً؛ فإن عدداً كبيراً من علماء النفس يقررون: أن الموقف المحيط بالإنسان هو الذي يدفعه للسلوك لا الحاجات الداخلية فقط^(١٧).

وبدا جلياً من تحليل سلوك الطاغية أن تصرفاته تنبع من أمراض وعقد نفسية مستعصية، فقد استجلب عدة قوى دولية وتشكيلات وعصابات ومرترقة وسلطها على شعبه الذي كان يفتخر به زماناً، وأطلق يدها في حرق الوطن الذي كان يتغنى به يوماً؛ كل ذلك من أجل حماية كرسي حكمه الذي يظنه ميراثاً حلالاً له، وهذه التصرفات ليست سوى نتيجة انفصام يعيشه الطاغية في صحته العقلية والنفسية، فكل تصرفات الأسد خلال الثورة تؤكد معايير الصحة النفسية التي تشير إلى أن كل طاغية غير صحيح نفسياً بل لديه عقد نفسية تدفعه لإخفائها بأنماط من السلوك المضطرب.

وهذا لا يعني أن الطاغية في سورية غير مسؤول عن تصرفاته؛ فهذه الحالة هي من النوع العصابي الذي يعي فيه الإنسان واقعه وحقيقة سلوكه ويملك فيه القدرة على الاختيار، فهو المسؤول عن عمليات التعذيب والقتل والتهجير القسري، وهو السبب في تشكل الجماعات المتطرفة مثل داعش على تراب وطننا، وهو الخائن الذي تعامل مع المحتل وباعه البلاد من أجل إشباع حاجاته النفسية الداخلية.

ختاماً إن الثورة وفكرة معارضة البغي والظغيان قد وصلت إلى منعطف جديد بعد انقضاء عامها الثامن، وإن مستقبل شعبنا وبلادنا مرتبط بالتخطيط الدقيق لإعادة الأمور إلى نصابها؛ لتخلص من الطاغية ويتمكن ملايين السوريين من العودة إلى ديارهم، وإن علم الاجتماع جزء من المعارف التي لا غنى عنها للتخطيط الذي يحتاجه شعبنا على المدى القريب والبعيد.

النظام ويستخدمها من أجل نجاحه وحماية وجوده.

التشويه الأخلاقي للشعوب

ما عرضناه في هذا الملف من تحليل لشخصية الطاغية من خلال السمات النفسية ووسائل الاستبداد الرمزية هي محاولة أولية لفهم شخصية الأسد وآلية عمل نظام الاستبداد، وإن الخطورة الأكبر لهذا النظام وأشباهه لا تكمن في وسائل استبدادها أو في ظلم شعوبها ومنعها من التمتع بحق الحياة العادلة الكريمة فحسب، وإنما يكمن خطرها الحقيقي في كونها تسهم في صياغة شعوب مشوهة بنيوياً وتفقد لصفاتها الإنسانية التي تتمتع بها الشعوب السوية؛ فالمجتمعات التي عاشت فترة طويلة تحت نير الاستبداد والقهر غالباً ما تنتمي إلى منظومة من أنماط السلوك الغريزي الذي يعتمد أساساً على خصائص الانتهازية والانتقام والوصولية، فالترلف والتذلل وانسداد الأفق والانتماءات الضيقة وجلد الذات والأنانية والفردية تصبح المعيار الأساس للوصول إلى النجاح في هذه الأنظمة، وباستمرار الاستبداد يغدو إسقاط آثار حكم الطاغية أصعب بكثير من إسقاط الطاغية نفسه.

خاتمة

من خلال منهج المعاشة -المستند إلى الملاحظة والمشاركة- والمنهج التحليلي الوصفي الذي تم اعتماده يمكن القول باختصار:

إن المجتمع السوري قد اتبع مجموعة من أنماط السلوك المتوقعة في علم النفس الاجتماعي للتعبير عن حاجاته وإشباعها، وقد كانت البداية بالتعبير السلمي والحضاري عن مطالبه وحاجاته، لكن حينما أصمّ نظام الطاغية أذنيه ورفض قبول مطالبه المحقة واستهزأ بها انتهجت الجماعات سلوكاً مختلفاً يغلب عليه طابع الاحتجاج الغاضب، وحين قوبل الشعب بالاعتداء عليه وسفك الدماء تحول إلى الدفاع عن



« مستقبل شعبنا
وبلدنا مرتبط
بالتخطيط الدقيق
لإعادة الأمور إلى
نصابها؛ لتخلص من
الطاغية »

(١٧) ديفيد هوتون: علم النفس السياسي، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات - بيروت، ٢٠١٥م.

نمت في دَمَنِ الاستبداد.

بل كانت الشعب الحزبية وبعض دوائر النظام الموبوءة أشبه بأكاديميات للفساد، يتعلم المنتسب إليها -إلا ما رحم الله- فن القدرة على تصميم الفتن والكيد للآخرين وإسقاط الناجحين، وإذا كان المنتسب إليهم أكثر انغماساً في فكر البعث تسيطر عليه فكرة المؤامرة والخيانة الدولية التي كانت ركيزة من ركائز الحكم في سورية، وقد رأينا هذه القدرات في الثورة السورية، فما ظهر قائد إلا لاحقته المكائد واللعنات والتهامات بالخيانة والعمالة.

أما أمُّ المشكلات الاجتماعية في بلادنا فهي عدم قدرة شعبنا على التلاقي والاجتماع، فقد قام الأسد الأب منذ توليه السلطة ببذل كل الجهود الممكنة لتفتيت أي حزب أو تنظيم لا يتبع له بل إنه قام بتدمير منظمات المجتمع المدني أيضاً وقتل المعارضين في الخارج أو ملاحقتهم، فتم له تفتيت المجتمع السوري إلى جزئيات صغيرة غير قادرة على الاندماج مع بعضها وتكوين جسم ذي فاعلية، وكانت الثورة أبرز مثال على ذلك، وإن هذا لا يعني فقدان القدرة على الإبداع الفردي، فهي لا تزال قائمة لدى شعبنا، لكن عندما تجتمع القدرات تتنافر وتتكرر بدل أن تزداد وتتفاعل بشكل إيجابي.

يلخص الكواكبي -رحمه الله- أمراض المجتمع تحت سلطة الاستبداد، فيقول: (الاستبداد يضطرُّ الناس إلى استباحة الكذب والتحيُّل والخداع والتُّفاق والتذلل، وإلى مراغة الحسِّ وإماتة النفس ونبذ الجِدِّ وترك العمل...، وينتج من ذلك أنَّ الاستبداد المشؤوم هو يتولى بطبعه تربية الناس

على هذه الخصال الملعونة، وبناءً عليه يرى الآباء أنَّ تعبههم في تربية الأبناء التربية الأولى لا بدَّ أن يذهب عبثاً تحت أرجل تربية الاستبداد كما ذهبت قبلها تربية آبائهم لهم أو تربية غيرهم لأبنائهم سُدىً^(١).

الدِّين في سوريا:

الدِّين من أساسيات الحياة الإنسانية، وهو في الشرق أكثر ظهوراً منه في الغرب، وقد حاول الأسد تحريف كل ما يتعلق به عبر عدة إجراءات مقيتة، منها حصر الخطاب الديني في بعض جوانبه خاصَّةً الشكلية منها وتجاهل كلِّ من قيِّمه في إصلاح المجتمع ودعوته إلى الأخلاق الحميدة والكرامة الإنسانية ومقاومة الظلم والفساد، فقد كان الخوف يقطع الجوف، وكانت المخابرات أقرب إلى فم الواعظ والمصلح من آذان السامعين، وغدا النمط الوحيد للتغيير المجتمعي هو الدعاء، فالقادر على التغيير هو الله إن أراد ذلك بشكل معجز فقط لا بواسطتنا، وأصبحت الصلاة بجانب الدعاء الدواء الديني للأوحد لكل أمراضنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وأما ما عدا ذلك من أمر الدين بالعمل والإصلاح المجتمعي والتعاون على الخير كعبادات جماعية أصيلة في تعاليم الإسلام الحنيف؛ فقد أصبحت شيئاً من الخيال تحت سلطة فاسدة مفسدة حملت على عاتقها شعارات الدعوة إلى الإصلاح والتغيير.

كان ضغط المخابرات يؤدي ببعض الشباب إلى التطرف، ولم يوفر الأسد شيئاً من ذلك، فقد حسب حساب

الشاطر وقام بإيجاد حواضن جاهزة أو باختراق بعضها لاستضافة الشباب المتطرف واستخدامهم في مشاريعه المستقبلية، واستفاد من ذلك كثيراً في فترة الأسد الابن خاصةً، فاستخدم شاعر العيسى في حرب الجيش اللبناني واستخدم علاقته بالتنظيمات التكفيرية لضرب الثورة، وفي التقارير الأوربية بيانات مهمة حول هذا الأمر لكنها تبقى ناقصة قياساً بالواقع المخيف الذي أخفاه الأسد.

ومن أهم أهداف الأسد في تغذيته للجماعات المتطرفة إحراق الوحدة السنية الوطنية بهشيم الجماعات المؤدلجة، وإخافة الطائفة العلوية لجعلها متماسكة في خدمة مصالحه؛ إذ ربط مصيرهم بمصيره وأرغمهم على التضحية بزهرة شبابهم وبكل غالٍ ونفيس في سبيل بقائه، وكذلك فعلت إيران بدعمها للقاعدة وبناتها سنيين عدداً بغية إكراه شيعة العراق على الخضوع لأجندتها.

الأمراض الاقتصادية:

سورية بلد غني بشعبه أولاً وبموارده ثانياً، لكن منذ محاربة الأسد للإخوان قرَّر إفقار الشعب لينشغل بلقمة عيشه عن التفكير بحريته وكرامته وحقوقه الاجتماعية والسياسية، وبدأت سياسة التجويع والتفكير والتدمير، فانخفضت العملة وشاعت الرشوة، وبات انشغال الناس بلقمة عيشهم هو الشيء الوحيد الذي ينسيهم التفكير بحقوقهم في خزينة الدولة ومقدرات الوطن أو حقهم في العيش الكريم لهم ولأولادهم، وبمرور الأيام بدأ الناس يرون كيلو الأرز والسكر والشاي بسعره المخفض نعمة كبرى من الدولة لا يحصى حمدوها ولا يطاق شكرها، ثم قام النظام بأمرين آخرين على المستوى

(١) عبد الرحمن الكواكبي: طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، المطبعة العصرية - حلب، ص (١٢٢).

إذا كانت عائلة الأسد ومن يلوذ بها من آل مخلوف وآل البعث يستثمرون الدولة والوطن لتعبئة جيوبهم فماذا يفعل الموظف الصغير؟ لم يعد يشعر في وظيفته بتلك المسؤولية التي يحس بها الموظفون في دول العالم الأخرى، بل أصبح يرى في المنصب ما يرى آل الأسد، إنه نوع من المكسب المادي والمعنوي؛ فيحق له أن يسرق الأموال العامة والخاصة وعلى الجميع أن يطيعه كما هو حال عرابهم الأكبر، لم تعد الوظيفة تعني خدمة الناس بل تعني أن يخدم الناس الموظف ويمنحوه من عرق جباههم ورزق أطفالهم ما يشبع نهمه وجشعه.

الجيش والشرطة:

عندما تسأل طفلاً في أي بلد من بلدان العالم عن حلمه ويقول لك: أريد أن أصبح شرطياً أو جندياً، تتمثل في ذهنه كل معاني التضحية لجعل الوطن مكاناً أكثر أمناً وانضباطاً وأرفع أخلاقاً من خلال حمايته من أعداء الخارج وملاحقة مجرمي الداخل، لكن هذه الصورة المشرفة لرجل العسكر والشرطة لا وجود لها في ذاكرتنا السورية؛ فعندما تذكر كلمة شرطي تتبادر إلى الأذهان صورة ذلك الرجل الفاسد الذي يرتشي من الصغير والكبير، ذلك الكائن الطفيلي الذي يقتات على ما في جيوب الآخرين، وعندما تقول «عسكري» تردُّ إلى الذهن مئات القصص عن الرشوة والفساد، وسرقة أموال المجندين وأطمعتهم ثم تعذيبهم وإهانتهم، كما تتوارد إلى الذهن صور ذلك الجيش الذي يدخل إلى أي مكان، فيكسر ويضرب ويقتل دون خوف من مساءلة

كما فعل في حلب وحماة ومخيم تل الزعتر ومدن لبنان أكثر من عشرين عاماً.

الإدارات:

كان في الحكومة السورية كثير من الموظفين السُّنة وغيرهم، لكن مفاصل إدارة الدولة ومواضع القدرة على الضبط كانت دائماً في يد الطائفة



« من أهم أهداف
الأسد في تغذيته
للجماعات
المتطرفة إحراق
الوحدة السنية
الوطنية بهشيم
الجماعات
المؤدلجة وإخافة
الطائفة العلوية
لخدمة مصالحه »

العلوية وبعض المقربين منهم من أبناء الطوائف الأخرى، بالطبع لم يحصل ذلك في يوم وليلة فقد قام به الأسد الأب والابن على مراحل، تذرَّع في بعضها بأنهم من الإخوان المسلمين، ومنها كان بحجة الخيانة، وبعضهم تخلص منه بيد العدو كما فعل بكثير من الطيارين السنة الذين تم قتلهم على يد إسرائيل في اجتياحها للبنان بتدبير من الأسد الأب، أمّا مسلك القضاء الذي يُعَدُّ السلطة الأعلى في

البلاد والمسؤول الأول عن ضبط باقي الإدارات فلم يكن أحسن حالاً، فقد غشيت الرشوة ونهبه الفساد حتى استجار بالفضيلة من الرذيلة، وأصبح القاضي -إلا ما رحم ربي- وبالأعلى على مجتمعه بدل أن يكون صورة مشرقة للفضيلة والعدالة.

الأمراض المجتمعية:

إن مجموعة الأمراض السابقة وسياسة الخوف التي حكم بها نظام الأسد أورتت مجتمعنا أمراضاً اجتماعية شتى قامت الثورة السورية بالكشف عنها بجلاء، ولا بد من الوقوف على بعض هذه الأمراض الأساسية:

من أخطر أمراضنا الاجتماعية جهل الناس بحقوقهم وظنهم صدقات يمن بها الطاغية عليهم، يدخل أحدهم السجن فيضرب ويهان بدون ارتكاب جريمة، ثم يحدثك عن إنسانية ورحمة عناصر فرع المخابرات الذين أحضروا له حبة دواء عندما وصل إلى حافة الموت، وكأنه لا يرى أنه ظلم عندما سحب من بيته إلى أماكن لا تعيش فيها الحيوانات!

ومن أمراضنا المزمنة القدرة على ممارسة الفساد في كل الظروف، ففي نير النظام الاستخباراتي دأب البعث على نشر الفساد والفتنة والفرقة بين شرائح المجتمع كافة، وأصبحت المؤامرات وكتابة التقارير هي القرابين التي يقدمها ضعفاء النفوس في سبيل الرقي في السلم الوظيفي؛ ونتيجة لذلك سيطر الخوف في المجتمع حتى أصبح عنوان حياتنا اليومية، إن تربية جيلين أو ثلاثة تحت الخوف جعل شعبنا غير قادر على العمل أو الإنتاج إلا تحت ظلّ السيف، أما الحرية فقد أصبحت نوعاً من الأوبئة التي تؤذّن بظهور وحوش

مقاولات إعادة الإعمار الفكري للمسلمين

إبراهيم حسون - ماجستير في الفكر الإسلامي
أمين سر المجلس الإسلامي السوري



الذي سأذكر بعض مظاهره، وهنا أجدني قد دخلت في سرد مظاهر مقاولات إعادة الإعمار الفكري:

المظهر الأول: يقوم هذا على نسف ثوابت الدين ومحكماته المجملية، ويتجلى في أمثلة كثيرة منها أن ثمة من يريد أن يحرر الأمة مما أسماه (حجاب مضر وربيعية) ويدّعي أن له على دعواه من القرآن دليلاً، وهناك من يزعم أن الإسلام أباح حرية الإلحاد أو الشذوذ الجنسي، وأن السنة نصّ بشري عرضة للخطأ والنسيان.

المظهر الثاني: يتجلى هذا بإسقاط الرموز والمرجعيات الشرعية عند المسلمين، وهذا أخطر ما فيه أنه بدأ بالكلام في الصحابة ثم المصنفين الذين حفظوا لنا سنة النبي صلى الله عليه وسلم وتراثنا الإسلامي، ثم وصل إلى الرموز المعاصرة، وبغض النظر عن مدارس هذه الرموز فهي ما دامت متعلقة بهذا التراث فلن تسلم من هذا الهجوم إلا أن تسقط هذا الموروث وتلتحق بركب ما يدعونه الحداثة، ومن أمثلة هذا المظهر ظهور مقالات تتكلم عن شبكات علمانية أو عن مكونات المجلس الإسلامي السوري وكأنها تتكلم عن عصابات أو شبكات مافيا، وأخرى تتهم ثقة من أئمة الحديث بالتدليس في نقوله، أو تنسب آخر من أعلام الإسلام إلى التكفير والغلو، وآخر إلى موالاتة السلاطين وترسيخ

لتبني مكانها شيئاً آخر، فالمراقب للساحة الإعلامية والكتابات الصحفية والمؤتمرات الفكرية التي قامت إثر الثورات العربية على يد أنظمة الثورات المضادة وداعميها يلاحظ وجود خطة ممنهجة تشتبك فيها دول مختلفة، تعمل على نسف التراث الثقافي والعلمي والفكري للمسلمين وبناء آخر بصفته جزءاً من المخططات التي تحاك لتغيير خارطة العالم الإسلامي.

إن هذه الخطة تعمل على صناعة إسلام جديد يوافق القيم والمتطلبات الغربية، ويحقق للغرب مواصفات الشريك المسلم الذي يريدون معاملته في المستقبل، أو قل إن شئت: مواصفات الرقيق الذين سيستخدمونه فترة طويلة من الزمن، كل هذا يحدث تحت شعار الحرية والديمقراطية، والرأي والرأي الآخر، وحقوق الإنسان أو حق تقرير المصير، إن الغرب وأتباعه قد أخفقوا في استعباد الشعوب المسلمة بالاحتلال والحرب، فهم اليوم يبحثون عن طرق أقل تكلفة وأكثر ضمانة واستدامة.

التراث الإسلامي تراث عريق متماسك لا يمكن هدمه بتلك السهولة، لا سيما أنه مبني على كتاب تكفل الله بحفظه إلى يوم يبعثون؛ لذلك لما عجز أعداء هذا التراث عن إسقاطه عبر التاريخ ذهبوا إلى إسقاط حملة هذا التراث ابتداءً من عهد الرفض والطعن بالصحابة إلى زماننا هذا

إننا نعيش في زمن كثرت فيه الحروب وازداد فيه حجم الدمار، بل إن بعض المدن صارت تاريخاً يحكى للأجيال فيقال: كان هناك مدينة يقال لها كذا وكذا، وفي ظرف كهذا نرى الدول وشركات الإعمار قد صدقَ فيها المثل المشهور في مدينة الرقة السورية (فرحة الكلب بالثلج)؛ ذلك أن من عادة رعاة الغنم أن يكون لهم كلب للرعى، هذا الكلب لا يأكل اللحم إلا عند ذبح خروف أو نفوقه، فإن نزل الثلج كثرت الموت في الغنم من البرد؛ فيشبع الكلب من اللحم.

رغم هذه المقدمة والتعريض إلا أنني لن أتكلّم هنا عن إعادة إعمار المباني والبنى التحتية في البلاد المدمرة، ولا عن إعادة إعمار سورية التي تراها هذه الشركات مغنماً لا بد من المشاركة فيه بعد أن باعها الأسد وأباحها لكل من هبّ ودبّ؛ فنحن في هذه الأيام نواجه نوعاً جديداً من الإعمار، هذا النوع قائم على الهدم أولاً، بل على الإمعان فيه حتى تُسوَّى الأرض بحيث يستطيع المقاتل أن يخطط ما يدور في خلد من جديد وكأنه يرسم على ورقة بيضاء.

هذا الضرب من إعادة الإعمار نوع فكري منهجي محض، وهنا أتكلّم عن الإعمار بالمعنى اللغوي، أي أن تقوم فئة من الناس بهدم فكرة ومعنى قائم في النفس والقلب

الأول: إهمال الكثير من قرى الطائفة العلوية وفتح الطريق أمام أبنائها إلى الجيش والمخابرات والدوائر المدنية وما فيها من مغانم عبر الفساد والسرقة والرشوة؛ وما ذاك إلا لإرغامهم على سكنى المدن وتدعيم موقفه لمواجهة الطوائف الأخرى في الحواضر الكبرى.

الثاني: تسليط مجموعة من المافيا على مقدرات الوطن لمنع الشعب من التحرر الاقتصادي، ظهرت هذه المافيا

إلى السطح بشكل مقزز في زمن الأسد الابن عبر شركات رامي

مخلوف ومجموعته؛ فبدأ

الفقر يضرب أركان المجتمع

بينما يشيع البذخ الصاخب

في حياة مجموعة من

التجار الفاسدين ورجال

الدولة الكبار.

خطة الإصلاح

إن الأمراض التي حملها

شعبنا في ظلام العيش تحت

سلطة الاستبداد؛ عدو خبيث

لا يدخل مجتمعا إلا أهلكه، وإن

علاجها قبل أن تتحول إلى طبيعة لازمة

لشعبنا واجب على قادة شعبنا وعقلائه،

وإنما يتم هذا العلاج -بحسب دراسة

الكاتب- عبر عدة خطوات:

الأولى: توصيف الفساد إلى درجة

تجعله واضحا للعيان، هذا وإن كنا قد

نختلف في بعض الجزئيات فلنتجنبها

بغية الشروع في العمل وتقديم الأولى.

الثانية: إقناع شعبنا بأنه مريض وعليه

أن يتعالج ويتحمل ألم العلاج، وهذه

المرحلة تتم من خلال المقارنة البناءة

بين سلوكياتنا وسلوكيات المجتمعات

الأخرى بشرط أن يكون غرض هذه

كيف نصلح ما أفسده الأسد

قبل إسلاميين وعلمانيين سواء بسواء أثناء الثورة؛ أذيا إلى طمسها وتجهيل الناس بها.

الرابعة: إن التعليم بشكل عام والعالي بشكل خاص له قدرة كبيرة على إعادة المجتمع إلى إنسانيته المدمرة وطبيعته المفقودة، وهو السكة التي من خلالها تتم تغذية عقول الناشئة والشباب بمعاني الوطن والدولة والأمة.

الخامسة: تشكيل هيئات ومنظمات

عمل مدني ذات طابع تطوعي

بالدرجة الأولى تُمارَس فيها

كل أشكال الإدارة والتنظيم

والتنسيق بحرية مطلقة،

ويقوم أعضاؤها بتداول

السلطة والمسؤولية

فيها وفق معايير خدمة

المجتمع والقدرة

على تحمل الأعباء؛

لتكون مرحلة تدريبية

لشعبنا في القدرة على

العمل المشترك وتعلم

نظم الإدارة التي تتمتع بها

المجتمعات الإنسانية السوية.

وإن هذه الهيئات سيتحول بعضها

بهيكلية الأوليّة إلى مؤسسات حكومية،

وبعضها سيبقى في العمل الاجتماعي

يرعى أرضية بناء الدولة والمجتمع.

بهذه الإجراءات اليسيرة المدروسة

يتوقع أن يعود شعبنا إلى طبيعته

خلال سنوات قليلة، فيتمكن من

إزاحة كل المجرمين في بلادنا وبناء

الدولة السورية الراشدة التي لا يقبل

جسمها السليم تخريج عناصر دموية

فاسدة كأمثال حافظ الأسد وابنه بشار

ومن عمل عملهم في صفوف النظام

والمعارضة على السواء، والله الموفق

والهادي إلى سواء السبيل.

المقارنات التقييم والتقويم، وبشرط

منعها من التحول إلى جلد للذات

أو يأس وعويل. وعلى المعالجين أن

يتحلّوا بالصبر لأن حالتنا أشبه بحالة

من أدمن المخدرات، فكم وكم

يحتاج من العلاج ليُبلَّ من مرضه

ويشفى، وكم يعاني من حالات الصرع

والهستيريا وهو يتخلص من السموم

التي في جسده، وهكذا مجتمعنا: يجب



«إن التعليم بشكل عام والعالي بشكل خاص له قدرة كبيرة على إعادة المجتمع إلى إنسانيته المدمرة وطبيعته المفقودة، وهو السكة التي من خلالها تتم تغذية عقول الناشئة والشباب بمعاني الوطن والدولة والأمة»



تحديات الإعلام الإسلامي وسبل النهوض به

تميم اليونس
إجازة في الشريعة

الدموي الفاشل على الرئيس التركي رجب طيب أردوغان حينما أفضّل خطط الانقلابيين بمكالمة هاتفية واحدة عبر تطبيق «الفيس تايم» على إحدى الفضائيات التركية.

إن الواقع كيدل على أن نفوذ الإعلام أصبح قوة لا يستهان بها، فهي توجه الرأي العام وتسلط على السياسة والاقتصاد، حتى إن خبيراً صغيراً في إحدى وسائل الإعلام يُبث في مكان وزمان مدروسين قد يؤدي إلى أزمة سياسية كبرى أو انهيار اقتصادي خطير، لقد أدركت الدول والجماعات والأمم ضرورة الإعلام وخطورته؛ فتنافست في انتحاله وتأسيس مؤسساته وتحصيل وسائله، وبذلت في سبيل إيجاد الهيئات الإعلامية الأموال الطائلة والأوقات الكثيرة والتضحيات الجسيمة لكي تحقق من خلاله مآربها وتنفذ سياساتها وتستعلم أخبار أعدائها وتسيطر على العقول^(١).

ومما يؤكد ذلك ما حدث في ألمانيا، فقد عَرَضَ فيلم بعنوان «ألمانيا- صناعة أمريكية» كيف أنفقت ملايين الدولارات على كلٍّ من النِّقَابَاتِ العمالية والصناعية والنوادي الثقافية والفنية لاستبدال النموذج الأمريكي المتحضر بالموروث الثقافي الألماني النازي، وكذلك على الإعلام وخاصةً المجالات العلمية التي من شأنها أن تحدث تغييرات جذرية يُمكنها أن تسهم في إعادة برمجة العقلية الألمانية، وقد نجحت خطط المخابرات

إشكالية البحث:

لقد غدا عالمنا كقرية صغيرة بفعل وسائل الإعلام والاتصال الحديثة، كما غدا الإعلام اليوم سلطةً رابعة على المجتمع والحياة وقوةً ناعمةً تتنافس في استثمارها وتطويرها أمم الأرض كلها لتحقيق مصالحها وفرض رؤيتها على الشعوب، وفي هذا المعترك الجديد تتبادر إلى الذهن أسئلة عن موقع الإعلام الإسلامي من هذه الخريطة وعن التحديات والعقبات التي تواجه هذا الإعلام وسبل التغلب عليها، وعن سبل التقدم والنهوض به وفق معطيات الواقع ومتطلبات العصر خصوصاً أن الإسلام دين عالمي يعتمد التبليغ والإعلام ركنًا أصيلاً في دعوته.

أهمية الإعلام وأثره:

لا يخفى على كل مطلع أثر الإعلام البالغ على الأفراد والجماعات بل على المؤسسات والدول، وفي عصرنا أمثلة كثيرة كان للإعلام فيها السلطة العليا واليد الطولى في صناعة الحدث والتاريخ، وكان من أبرز الأحداث التي لعب فيها الإعلام دوراً كبيراً تجاوز قوة الجيوش والسلاح والاقتصاد ما جرى في البلدان العربية من ثورات عارمة، فقد استُخدِمَ الإعلام فيها -بوسائله التقليدية والحديثة- سلاحاً فتاكاً في مواجهة الطغاة وجيوشهم واستخباراتهم، ومثله ما جرى في الانقلاب

(١) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

الفساد والاستبداد؛ كذباً وزوراً على هؤلاء جميعاً، ودساً للسم في العسل بذريعة حماية الشريعة والعقيدة وصفاء الإسلام.

المظهر الثالث: يكون هذا من خلال التضخيم حتى السقوط، لجؤوا إلى هذا الأسلوب بالترويج لبعض الأشخاص والتجمعات على أنها النموذج الحقيقي لما كان عليه مجتمع المدينة الأول، وأن الله أوكل إليها حمل راية الجهاد والدفاع عن الأمة في زمن الهزيمة والخذلان حتى يظنّ الظان أنه لا في الساحة أصدق منها، وأنها الممثل الحقيقي للإسلام الصحيح، وأنها الأمل الوحيد للجيل الصاعد في إحياء أمتهم، وهكذا دواليك حتى تعجز قواعد بناء هذا الفكر عن حمله، فينهار من تلقاء نفسه وتنهار معه أحلام أتباعه أو من أحسن الظن به، فيتغلغل اليأس في نفوسهم وقد يلحدون.

المظهر الأخير: يكون هذا من خلال تضخيم بعض الرموز الحقيقية فعلاً على أنها حاملة لواء الحق حتى إن المستبدين ليرعبون من حجمها، فيكون مصيرها سراديبهم وسجونهم حتى لا ترى الضوء ولا يراها، فيذهب هذا الرمز هو واللواء الذي كان يحمله.

كل هذه المظاهر وغيرها نجد مؤسسات إعلامية ضخمة سخّرت نفسها لترويجها رغم ما تحمله من تناقض أحياناً، فتجد المؤسسة التي تلمّع الغلاة ودعاة التكفير هي نفسها من تحارب رمزاً أو تياراً على أنه يروج للتكفير، وقد تكون جزءاً من الجهة التي ترعى الغلو وتموّله، كما تروج في الوقت ذاته فكر من يعدّ الخلافات العقيدية بين المسلمين عبر التاريخ خلافاً سياسياً حتى لو كان فيه قذف في عرض النبي صلى الله عليه وسلم وتكفير لصحابته، وترى هذه الجهات تروج في الوقت ذاته أن تراثنا أثقله التطرف، فيجب أن يتخفف من أعباء هذا الثقل.

عن تركيبها الجسدية والنفسية، والمرأة جزء بسيط من مشروع إعادة الإعمار عند هؤلاء المقاولين، ذكرتها تمثيلاً لا حصراً لأنهم يذكرون أن كل النصوص الشرعية التي تتكلم عن ولايتها وحقوقها في الميراث جزء من التراث الذي يجب هدمه وتسويته بالأرض.

وأختم قائلاً: إن المستبدين حاولوا إطالة أمد استبدادهم طويلاً في عالمنا الإسلامي من خلال تبني القومية والاشتراكية ودعوى مقاومة الإمبريالية العالمية، لكنهم لما رأوا أن هذه الخدع لم تعد تنطلي على الأمة، وأن شهادة وفاة هذا الاستبداد ستكتب على يد الإسلام الصافي الرائق الذي يستطيع أن يصل إلى قلوب الناس جميعاً؛ قرروا طرح مشاريع إعادة الإعمار الفكري وتوزيعها على شركات مقاولات فكرية وإعلامية تعمل على هدم هذا الدين بغية إعادة بنائه من جديد وفق مفاهيم خطيرة مستوردة من أعداء الإسلام والإنسانية مطابقة لنهج إبليس وجنوده.

والحقيقة أن هذا الأمر ليس بجديد على تاريخنا لكنه اليوم يشكل خطراً غير مسبوق، والسبب أن أمثال هذا المشروع كان يتحطم عادة على يد جبال العلم أمثال أحمد بن حنبل وأبي حامد الغزالي والعز بن عبد السلام وابن تيمية، وقد غدا السائرون على طريقهم نوادر في زماننا، بل نكاد نفقدتهم مطلقاً، أولئك أئمة شخصوا المرض بدقّة، فعرفوا أنه إذا هوجم الدين جملةً وجب الدفاع عنه جملةً، وآمنوا أنهم للأمة كلّها وليسوا رؤساء لجماعات وأحزاب صغيرة كل همها الحفاظ على كيانه وتمكنها في الساحة، أولئك أئمة عرفوا الفرق بين الإمامة للأمة وبين رئاسة الحزب والجماعة؛ فعرفوا بدقّة ما هو واجب الإمام تجاه أمتهم من النصيحة لها ومجابهة الباطل والصدع بالحق.

وأعجب من ذلك أن ترى الجهة التي ادّعت زماً أنها ترعى التراث وتحميه من التحريف والهدم تدعم من يريد نسفه وتحويله إلى تراث تاريخي يحسن الإطلاع عليه على أنه جزء من جهد بشري في التاريخ لم يعد صالحاً لغير زمانه، وترغم أنّاً إذا أردنا اللحاق بركب الحضارة فعلينا أن نعامله هذه المعاملة، أمّا المحافظة عليه بصفته نظام حياة فسوف تبقىنا في ذيل الأمم.

وهنا أقول: إن ديننا مبنيٌّ على التجديد لا على التغيير والتحريف، وقد كان التجديد همّاً لكل دعاة النهضة الإسلامية عبر التاريخ، لكن علينا أن نفرق بين مبدأ التجديد وبين ما يراد بنا من سحق لتراثنا، وإن ما يسمى اليوم تجديداً ما هو إلا بلاء ظاهرة البناء الحضاري وباطنه هدم الحضارة وتدمير الهوية.

لم يمنع الإسلام أسلافنا يوماً من تطوير أنظمة الحكم لديهم، ولم يكن عائقاً في وجه الإبداع الفردي أو الجماعي، بل كان على مر التاريخ دافعاً وجدانياً للعمل على نهضة الأمة على مستوى الفرد والجماعة، وقد حارب الإسلام كل ما يقف في وجه الحضارة والتقدم، فأسقط التعصب القومي والقبلي ورفض التمييز بالعرق أو الجنس، وحث على النظافة والجمال والأخلاق الحسنة، وكرم المرأة ورفع من شأنها، ولا يُعرف في التاريخ البشري أن المرأة حُفِظت حقوقها كما حفظت في ظل شريعة الإسلام.

إن المرأة التي كرمها الإسلام ورفع من شأنها لم تُعد في واقع مقاولي إعادة الإعمار الفكري كونها سلعة رخيصة لترويج البضائع أو وسيلة من وسائل الدعاية، وقد سلبوا منها حقها في رعاية الرجل لها وطلبوا منها أن تحمي نفسها بنفسها وتؤمن متطلباتها بنفسها بغض النظر

التراث الإسلامي القوي الغني من مفاهيم ومبادئ غالية حميدة، فكانت الدعوة إلى ما يسمى بالنظرية الخامسة في الإعلام وهي نظرية «الإعلام الإسلامي»، وكانت النظريات الإعلامية المطروحة والسائدة على الساحة أربع نظريات، وأول من دعا إلى تبني هذه النظرية الإعلامي المصري الأستاذ الدكتور إبراهيم إمام المحاضر حالياً بقسم الإعلام الإسلامي بجامعة أم القرى، وذلك عبر عدة مؤلفات قدمها للمكتبة العربية الإسلامية لتأطير وتأكيد معالم ومنهاج الإعلام الإسلامي^(٦).

تعد تسمية «الإعلام الإسلامي» من المصطلحات حديثة النشأة بين عدة مصطلحات نشأت في الربع الأخير من القرن الماضي في مشاريع وأدبيات الصحوة الإسلامية مثل الأدب الإسلامي والفن الإسلامي والاقتصاد الإسلامي وغيرها، وهي في مجملها تعبر عن الرغبة في العودة إلى الإسلام وجعله المرجعية الأساسية والخلفية الفكرية لكثير من العلوم الإنسانية والنشاطات الفكرية والثقافية، ونتيجة لحدثة المصطلح اختلفت الآراء وتشعبت حوله، فاقضى مزيداً من التأصيل والتنظير للوصول إلى تحديد دقيق لهذا المصطلح^(٧).

يقول حردان هادي الجناي بعد سرد التعريفات والرؤى حول الإعلام الإسلامي: (نخلص مما سبق إلى أن التيارات التي تبنت صياغة رؤى وتعريفات محددة للإعلام الإسلامي لم تتفق فيما بينها لتخرج بصياغة مناسبة تحظى بالقبول لدى الجميع، وهذا الاختلاف والتغاير يعود في أصله إلى كون المنظرين والكتاب الذين ينتمون إلى هذه التيارات لم يتوصلوا من خلال أبحاثهم ودراساتهم للإعلام الإسلامي إلى صيغة نهائية تتمكن من حسم النزاع الدائر حول الموضوع^(٨)).

الإعلام الإسلامي جزء من الإعلام المعاصر الموجه للمجتمعات العربية والإسلامية، ويقع على عاتقه مهمة استثمار منظومة القيم الكامنة في مصادر الإسلام الحنيف وتعزيز مركزية موقع الأمة الإسلامية الحضاري والاستراتيجي من أجل القيام بأدواره الإعلامية المنشودة، خاصة في ظل ما يعرض للفرد المسلم اليوم من رسائل ومضامين إعلامية متعددة الفلسفات متناقضة القيم والمبادئ تؤثر في تكوين الفرد الفكري والاجتماعي، وتؤثر في زعزعة هوية المجتمعات المسلمة في ظل التحديات الإعلامية في الواقع المعاصر^(٩).

ويقضي وصف الإعلام بالإسلامي انضباط الإعلام بالإسلام

ذلك، وقد استخدم أعداؤه الإعلام وسيلة من وسائل الحرب عليه، لكنها مع الأسف حرب تجاوزت كل المعايير الإنسانية، إذ تم اتخاذ الكذب والافتراء والتزوير والخداع أسساً للحرب على الإسلام ورسالته في تجاوز سافر لأخلاقيات الإعلام ومهنيته ومعاييره التي يقررها أساطينه اليوم، يقول الدكتور عبد الله الوشلي: (انحرف هذا العلم -يعني الإعلام- بتحكم الأهواء والرغبات وحب السيطرة والاستبداد إلى غير موضوعه واستخدمه في غير ميدانه حوله عن مجراه الصحيح، فلم يلتزم بمبادئه الحققة ولا بأهدافه السامية التي أنيط بها، كما أن وسائله المعاصرة هي الأخرى -رغم خطورتها- لم يحسن استخدامها لتحقيق الصلاح والإصلاح وتحقيق البناء والإعمار، بل انعكس الحال بسبق أهل الفسق والضلال إليها وسيطرة أعداء الإسلام عليها واستنكاف أهل الخير منها، فكانت وسائل هدم وتخريب في كثير من مجالات الحياة، انحرفت بها الشعوب عن الصراط المستقيم وابتعدت بواسطتها الأخلاق عن النهج القويم، ونشرت الإباحية عن طريقها بمختلف صورها وأشكالها، فأدرك المسلمون خطورة ذلك بعد زمن طويل^(١٠)).

فكان لا بد من قيام إعلام ينشر الحق ويبينه للناس ويظهر جماله ليعونهم بالوسائل المتاحة، ويفضح الزيف والشبه المثارة حول الإسلام، فقام بذلك بعض الإعلاميين المسلمين، وكان لهم جهد متواضع مشكور كمناظرات الشيخ أحمد ديدات الشهيرة مع القس سواجارت، وبعض البرامج التي ظهرت إثر ظهور الفضائيات العربية والإسلامية كبرامج الدكتور مصطفى محمود والشيخ محمد متولي الشعراوي والبرامج الحوارية عن طريق البث المباشر عبر الفضائيات كبرنامج الشريعة والحياة، واستخدم الكتاب الإسلامي وسيلة إعلام أيضاً، فشغل رفوف المكتبات ومعارض الكتب بتصانيفها ومواضيعها الكثيرة المتنوعة، وظهرت الكثير من الدوريات والمجلات الشهرية وبعض الروايات ذات المحتوى الإسلامي المؤثر كروايات نجيب الكيلاني وبعض الأدباء المسلمين الذين أسهموا بكتاباتهم وأشعارهم في القيام بواجب الدعوة بإعلام إسلامي المضمون بالوسائل المتاحة في ذلك الوقت وإن كان ذلك لا يخلو من قصور وتعثر في بعض الأحيان.

وفي محاولة لتأكيد الوجود والتعبير الصادق عن قضايا الأمة الإسلامية وفق منهج إعلامي متماسك القوام محدد واضح الملامح؛ اجتهد عدد من الإعلاميين المسلمين وعملوا من أجل تحديد أسس للإعلام الإسلامي مستمدة مما يزر به

(٥) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٦) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٧) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٨) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٩) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

موجودة بوجود البشر، وقد كان لهذا الهدف في العصور القديمة وسائل مختلفة تفني بالعرض لدى كل من العرب والفرس والروم واليونان وغيرهم، وكان من أشهرها الخطب والأشعار والكتب والرسائل والمؤتمرات والمهرجانات الأدبية أو الثقافية أو الاقتصادية أيضًا، وكان سوق عكاظ عند العرب في الجاهلية منبراً إعلامياً سامياً يقصده فحول الشعراء والخطباء والدعاة إضافة إلى كونه سوقاً ومهرجاناً، فمن خلاله يوصلون رسائلهم وأفكارهم إلى باقي العرب، كما كان اجتماع الناس للحج في الإسلام فرصة لتحميل الناس الكثير من مفاهيمه وعلومه والاستفادة من فرصة وجودهم لتبليغه إلى أصقاع الدنيا على مختلف أقطارها وشعوبها، وكان لدى باقي الأمم والشعوب وسائل مشابهة لما يستخدمه العرب، وقد تطور الإعلام في زماننا وغدت له وسائل خاصة منها التلفاز والمذياع والصحف، وأضيف إليها مؤخراً شبكات الإنترنت ووسائل التواصل الاجتماعي.

دوافع نشأة نظريات الإعلام الإسلامي:

الإعلام وسيلة تعبر من خلالها كل جهة عن أفكارها وثقافتها وتوجهاتها، ومن هنا تنوعت توجهات الإعلام؛ فكان منها ما يختص أو يميل إلى الرياضة أو الاقتصاد أو السياسة أو القضايا الاجتماعية أو الدينية، وبعض وسائل الإعلام حملت أفكار تيارات بشرية كبرى حققت انتشاراً واسعاً بين البشر كالشيوعية والرأسمالية، وفي هذا الوسط أخذ المسلمون مكانهم بصفتهم شعوباً أو حملة دين وأصحاب حضارة عريقة لها خصائصها السياسية والثقافية والاقتصادية والعلمية، وتبعاً لهذا التنوع ظهرت التصنيفات والتسميات في عالم الإعلام، ومن هذه التسميات «الإعلام الإسلامي».

ومهما اختلف الناس اليوم في مصطلح الإعلام الإسلامي من جهة التأصيل والتوصيف والحد والتعريف فإنه يبقى معروفاً مقررًا في الذهن على العموم بما فيه من تداخلات قد لا يقبلها بعض المختصين.

إن الإسلام دين عالمي يحارب الفساد والطغيان والانحراف أينما وجد، ويدعو إلى الفضيلة وعبادة الله الواحد أينما حل أتباعه، وكما أن لكل دعوة حق أعداءها فإن للإسلام مثل

الأمريكية حتى إنه في ٦٠ من القرن الماضي -بعد ١٥ سنة من الحرب فقط- كان غالبية الألمان ينظرون إلى أمريكا وكأنها «الجنة»^(٢).

يقرر الدكتور عمر عبيد حسنة في كتابه «مراجعات في الفكر والدعوة والحركة» أنه لا يعد من المغالاة أن نقرر أننا نعيش اليوم مرحلة الدولة الإعلامية الواحدة التي ألغت الحدود وأزالت السدود واختزلت المسافات والأزمان واختزلت التاريخ، وتكاد تلغي الجغرافيا حتى بات الإنسان يرى العالم ويسمعه من مقعده، ولم يقتصر ذلك على إلغاء الحدود السياسية والسدود

الأممية بل بدأ يتجاوز الحدود الثقافية ويتدخل في الخصائص النفسية وتشكيل القناعات العقدية، فيعيد بناءها وفق الخطط المرسومة لصاحب الخطاب الأكثر تأثيراً والبيان الأكثر سحراً والتحكم الأكثر تقنية، وبات بالإمكان القول: إن المعركة الحقيقية الفاصلة اليوم هي معركة الإعلام^(٣).

وليس مكنم الخطورة في الإعلام اليوم فيما يقدم فحسب بل في الهدف وأسلوب التقديم، إن هذا الثلاث الخطير ١- الهدف ٢- المعلومة ٣- أسلوب العرض: هو الذي يجب أن نركز عليه عندما نحلل الإعلام وعناصره وأسسها، وكذا البرامج العلمية والأدبية وبرامج الأطفال والإعلانات وجميع ما يقدم مهما كان تصنيفه إعلامياً يخضع لهذا الثلاث الخطير.

والهدف من الإعلام بصفة عامة هو محاولة التأثير على الجماهير لتكوين رأي عام موحد -إن أمكن- في قضية معينة عن طريق نقل

الخبر أو النبأ والتعليق والتحليل وغير ذلك، ثم أضيف إليه أهداف أخرى مثل أهداف دعائية وأهداف عقديّة وأهداف تثقيفية، لكنها جميعاً تخدم الهدف الأصلي، وهو تغيير سلوك الجماهير لتتوافق مع هدف مخططتي السياسة الإعلامية^(٤).

نشأة الإعلام:

حاجة البشر إلى الإعلام بصفته وسيلة للتأثير على الجماهير

(٢) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٣) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٤) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

بمدى قدرة المؤسسة على المواءمة في صياغة رسالة متوازنة تجمع بين الالتزام بقيمها ومبادئها وبين تلبية احتياجات الجمهور ومتطلباته التي تعمل عليها بالفعل مجمل المؤسسات الإعلامية الموجودة في سوق الإعلام.

وقد تصنع هذه الإشكالية خطاباً مزدوجاً داخل المؤسسة يُظهر غالباً تناقضاتٍ على صفحاتها وعبر شاشاتها، فلا هي بالتالي حافظت على جمهورها الذي التزم بالفكرة ولا هي وصلت إلى عموم الجمهور، فباتت كمن راوح مكانه عند منتصف الطريق فلم يبلغ ولم يتوقف^(١٣).

ومن أبرز الإشكاليات ما ذكره منصور عثمان

محمد زين بقوله: (أظهرت الدراسة أن

أهم قضايا وهموم العالم الإسلامي

تتمثل في التكنولوجيا وثورة

المعلومات والبث المباشر

والغزو الثقافي وانعدام التوازن

في تدفق المعلومات والحرب

النفسية الموجهة ضد

المسلمين وغيرها من هموم

وقضايا يواجهها الإعلام

الإسلامي)^(١٤).

إن عرضنا لسليبات الإعلام

الإسلامي وإشكالياته لا يعني

إخفاقه في أداء المهمة الموكلة إليه،

فقد أثبت وجوده في الساحة الإعلامية

بقوة لكنه يعاني من عثرات كبيرة، وهو في

النهاية جهد بشري فيه خير كثير، ووجود الخلل

في مؤسساته لا يعني أنه مستسلم لها، فهو في سعي دائم نحو

التخلص منها وتطوير أدائه، ولا ننسى أن الوقت عامل مهم في

ذلك.

سبل النهوض بالإعلام الإسلامي

في سياق البحث عن تطوير الإعلام الإسلامي لا بد أن نعمل

على إيجاده وجوداً فعلياً وفاعلاً معاً، فالإعلام الإسلامي

اليوم -للأسف- منفعل لا فاعل، ولا يتصدى لما يحاك للأمة

من قبل أعدائها بالقدر الكافي الوافي، يقول الدكتور عبد الرزاق

الدليمي: (إن من الأدبيات المتفق عليها أن المسلمين اليوم -وفي

كثير من المؤسسات الصحفية والإعلامية الإسلامية، إذ نشأت بعيداً عن المتخصصين في المجال المهني الاحترافي، وربما كان هذا في البداية لقلّة أو ندرة المحترفين للعمل الإعلامي من بين المنضبطين بالرؤية الإسلامية إلا أن المشكلة ظلت مستمرة إلى مدى أوسع، إذ غلب في كثير من الحالات وعلى كثير من التجارب الاستعانة بغير المختص في ممارسة العمل المهني.

ولعل إشكالات التمويل التي أشرنا إليها في بداية ذكرنا للتحديات والمشكلات التي تواجه الإعلام الإسلامي تعد من الإشكاليات الكبيرة، فتكون المؤسسات الإعلامية الإسلامية بين خيارين:

الأول: يتمثل في الحصول على التمويل

من مصادر مالية مليئة مثل الدول

والهيئات الكبرى والقوى

العالمية، وهو خيار يضمن

الاستقرار المالي والفني

والتقني للمؤسسة، لكنه

يجعل المحتوى مرهوناً

بتصورات وتوجهات

الممول؛ فيحرفه قليلاً أو

كثيراً عن الأهداف التي

يمكن أن يرسمها القائمون

على الوسيلة الإعلامية،

وهذا يؤثر بصورة كبيرة على

استقلالية المؤسسة.

الثاني: الاستقلالية والاعتماد على

التمويل الذاتي من جيوب المؤمنين بالفكرة

والمقتنعين بالرسالة، وهو خيار وإن نجح في تحقيق الاستقلالية

بجدارة إلا أنه يضع كلاً من المحتوى والمؤسسة في حرج مهني

بالغ، فتعجز عن الوفاء بالتزامات المالية للتطوير ومواكبة

التنافسية في عالم لا يرحم الضعفاء والصغار.

ومن الإشكاليات أيضاً عدم تحديد طبيعة الجمهور المستهدف،

فالمؤسسات الإعلامية الإسلامية تعاني من خلل ينطلق في غالبه

من المفهوم والرؤية حول طبيعة الجمهور: أهو ذلك الجمهور

الذي يؤمن بالفكرة الإسلامية أم هو عموم الجمهور في الأمة

بمختلف تنوعاته، فإن كانت الأخرى فهل تمتلك المؤسسة من

القدرات والإمكانات ما يؤهلها لمنافسة غيرها في عقر داره، وهل

بإمكانها تقديم المحتوى المناسب للجمهور بكافة شرائحه؟

وتظل مشكلة الرغبة في الوصول إلى الجمهور المتنوع مقرونة

(١٣) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١٤) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

بخطب الجمعة ودروس المساجد مع الفارق في وسيلة الاتصال الجماهيري كالفضائيات والإنترنت، أما الإعلام الهادف الشامل الذي ينضبط بضوابط الشرع ومهنية الإعلام وحدوده فما زال يسير بخطوات متعثرة خاصة في المجال الترفيهي والفني.

ومن العقبات والتحديات التي تواجه الإعلام الإسلامي قيود السلطات الرسمية في بعض الأقطار الإسلامية، ومنها عقبات التمويل واقتصاره غالباً على المؤسسات الخيرية، وغياب الخطط والاستراتيجيات المتكاملة التي تتبناها مجموعات مهنية متعددة المهام تطرح هي نفسها الجهود الفردية والرؤى الأحادية، ويواجه الإعلام الإسلامي أيضاً ندرة في البحوث والدراسات المتعلقة بحديثاته، ومشكلة في التنسيق بين العلماء والدعاة وبين رجال التربية والمثقفين ليأتي مشروع الإعلام الإسلامي متكاملًا في موضوعه يلبي احتياجات ورغبات كل الشرائح المستهدفة دينياً وتربوياً وثقافياً واجتماعياً، وهكذا الأمر في برامج الترفيه، وأن تصاغ الرسائل الإعلامية في قوالب فنية متنوعة مشوقة جذابة بدلاً من أن تصب في أنماط جامدة مكررة تقتصر إلى الجاذبية والتشويق، هذا مع ضرورة مراعاة الضوابط الشرعية والاجتماعية العامة وعدم تجاوزها.

يقول الأستاذ مالك الأحمد: (في الجانب الإداري عانى الإعلام الإسلامي من التشرذم والتنافس، وكانت غالب المؤسسات صغيرة ضعيفة لا تقوى على الصمود طويلاً، في نفس الوقت كانت الحزبية في التسويق منخفضة والنكسات متوالية، أما في جانب الرؤية والخطاب الإعلامي فكان الأمر في الغالب اجتهدات فردية وأحادية في الرأي مع ضعف في تقبل الرأي المخالف، وشاب الكثير من الأعمال الإعلامية عدم استيعاب التقنيات الحديثة في فنون الاتصال، واقتصار الخطاب على فئة المتدينين دون جماهير الناس، وأيضاً غلب الخطاب العاطفي والوعظي على العقلي التحليلي، وغلب الخطاب المباشر على الرسائل الإيحائية^(١٠)).

ومن أبرز التحديات التي تواجه الإعلام الإسلامي أيضاً إشكالية التصنيف والانطباعات الأولية، وهي إشكالية يكون غالبها قريب الصلة من التعامل مع المصطلح، فيقف الانطباع السابق حول الصحيفة أو القناة أو الموقع وتصنيفه في الدائرة الإسلامية عقبة أمام تلقي المحتوى وتوقعات الجمهور منه؛ وهذا أسهم في انصراف قطاع كبير من الجمهور بسبب تلك الانطباعات والتصنيفات السابقة.

ومن ذلك أيضاً إشكال التخصص، وهو إشكال ارتبط بنشأة

وتعاليمه في جميع عناصره؛ وبناء على ذلك يعرف بأنه: تزويد المستقبل بالأخبار الصحيحة والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة وأنماط السلوك المتعلقة بالفرد والمؤسسات والمجتمعات بهدف تكوين رأي صائب في واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات، وذلك بحيث يعبر هذا الرأي تعبيراً موضوعياً عن عقلية الجمهور واتجاهه وميوله^(١١).

تحديات الإعلام الإسلامي وإشكالياته

يعاني الإعلام الإسلامي اليوم في جانبيه النظري والعملية من إشكالات تشوب بعض عناصره تؤدي إلى انحرافه في بعض الأحيان عن القيام بدوره الحقيقي المنشود خاصة في ظل ما تعيشه المجتمعات اليوم من تحديات، فالموجود من إعلام يتحدث باسم الإسلام أو يحاول أن يلتزم بقيم الإسلام ويقوم بالوظيفة الإعلامية الإسلامية هو في حقيقة الأمر إعلام يحتاج إلى إصلاح في مؤسساته وترشيده في رسالته وتأهيل لهيئاته من خلال إعداد الإعلاميين القادرين على القيام بدورهم الإعلامي، ويتطلب ذلك إعدادهم فكرياً ولغوياً وثقافياً وتخصصياً وفنياً وخلقياً^(١٢).

إنَّ التحديات التي تواجه الإعلام الإسلامي تحديات جسيمة؛ فهو ابتداء ليس الوحيد في الساحة الإعلامية بل هناك إعلام منافس وهناك أيضاً الإعلام المعادي، كما أن الإعلام الإسلامي منوط به رسالة شاملة شمول الإسلام الذي يمثلها، فهو ليس إعلاماً وعظياً فقط، بل يضاف إلى ذلك كافة الجوانب التي تمس حياة المتلقي، وكل ما تحتاجه الأسرة والمجتمع المسلم كباره وصغاره رجاله ونسائه على اختلاف طبقاتهم وثقافتهم، إنه إعلام يقوم على ثلاثة محاور رئيسة: ١- تشكيل الوعي ٢- التنشئة الاجتماعية ٣- التبليغ والاتصال الإنساني.

ومن أهم التحديات التي تواجه الإعلام الإسلامي أن وعي الإسلاميين المعاصرين بأهمية الإعلام ودوره جاء متأخراً إلى حد ما، ولم يواكب التطور التقني والمهني للطوفان الإعلامي المعاصر، بل إن بدايات الإعلام الإسلامي لم تواكبها دراسات نظرية تأصيلية ولا برامج تدريبية عملية، وغلب عليها الاجتهادات الفردية والرؤى الشخصية، فواجه صعوبات عدة على مستوى نقص الهيئات الإعلامية والخطة الشاملة التي تستوعب كل متطلبات المجتمع الإعلامية، واقتصرت البدايات الأولى على الإعلام الوعظي والتربوي، فكان أشبه ما يكون

(١٠) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١١) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١٢) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

تعاون ضمن آليات عمل مشتركة للنهوض بالإعلام الإسلامي ودعمه بما يحقق أهدافه، ويحافظ على شرف موثيقه، وينجز أهدافه الإسلامية والإنسانية، وأوصى بدعوة وسائل الإعلام في الأمة الإسلامية لمساندة جهود الحوار مع مختلف الثقافات وأتباع الديانات والحضارات ومد جسور التواصل معها وإيجاد البرامج التي تؤدي تلك المهمات، واستلهم المنهاج الإسلامي في التواصل والحوار مع غير المسلمين، ودعوة وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية خاصة وفي دول العالم كافة إلى استثمار الطاقات الإعلامية السلمية المعروفة حديثاً بتعبير «القوة الناعمة» في التواصل مع الثقافات الأخرى، وتوظيفها وتمييزها للتفاهم في مجال السياسة الدولية وحل النزاعات بين الأمم والشعوب بالطرق السلمية.

وناشد المؤتمر دول العالم كافة للتصدي لكل ما من شأنه المساس بالرسالات الإلهية والرسول عليهم الصلاة والسلام، وضبط حرية التعبير المؤدية إلى الانزلاق والتفسخ وإفساد أخلاق النشء، ودعا إلى إيجاد وسائل تحقق التنسيق بين المؤسسات الإعلامية في العالم الإسلامي والاستفادة البينية بين دوله في تبادل الخبرات واستثمار ما تملكه بعض الدول الإسلامية من تكنولوجيا متقدمة في مجال الاتصال والمعلومات، وطالب بالتركيز على توعية الشباب بما يحقق أفضل استفادة من هذه الوسائل بحسن استخدامها وتحصينهم من سلباتها^(٢٢). ولعلي أختتم بما كتبه الأستاذ علي عبد الفتاح كنعان، وهو ما يعد توصيفاً لحال الإعلام الإسلامي وتطلعاً لما ينبغي أن يكون عليه، يقول:

(إنَّ من الممكن أن نقول من خلال متابعتنا للمسيرة الإعلامية للإعلام الإسلامي بأنَّه يتطور يوماً بعد يوم ويكتسب الخبرات، ولتحدث على مستوى الفضائيات والإذاعات والصحف، فقبل ثلاثة عقود من الزمان كانت المجالات الإسلامية تعد على الأصابع وكذا الإذاعات الإسلامية، وأمَّا الفضائيات فلم يكن هنالك إعلام فضائي إسلامي ملتزم ومحافظ!

ومع هذا كله فإنَّ مسيرة الإعلام الإسلامي محفوفة بالمخاطر وأمامها عقبة كؤود، فالإعلام الإسلامي يمشي في طريق مؤلم وشاق مع تعرضه للمخاطر، لكن بجهود الصالحين وعمل المخلصين من أبناء الأمة وملازمة الرقي والإبداع وصناعة الأفكار الجميلة والرائعة يتحسن الحال ويصلح الوضع، وترتقي المنظومات الإعلامية الإسلامية بكيونيتها الفكرية^(٢٣).

على النطاق الدولي، ولا شك أن العالم الإسلامي يمتلك من الخبرات والقدرات ما يكفي لذلك إذا أحسن الاختيار ووضعت الشروط الموضوعية له، ولكن لا بد أن يكون إعداد الكوادر أو «الإطارات» بصفة مستمرة، ويرتبط بإعداد الكوادر أو «الإطارات» البشرية إنشاء بنوك المعلومات ومراكز البحوث والدراسات وما شابه ذلك من معطيات الحضارة الحديثة حتى يستطيع الإعلام الإسلامي أن يواجه التحدي ويواكب العصر^(٢٤).

يقول منصور عثمان محمد بعد أذكر أبرز القضايا والهموم التي يعاني منها الإعلام: (من خلال هذه الدراسة جاءت بعض المقترحات، أهمها:

١. يجب على الدول الإسلامية إيجاد الوسيلة التي تحقق التوازن في تدفق المعلومات.
٢. كما يجب على وسائل الإعلام الإسلامية عكس القيم الروحية والدينية والصورة الصحيحة عن الإسلام والمسلمين عبر وسائلنا الإعلامية حتى تجد أمتنا الإسلامية التقدير والاحترام.
٣. توفير الإمكانيات التقنية والتكنولوجية الحديثة لأجهزة إعلامنا وتدريب وتأهيل الكادر البشري عليها.
٤. يجب توحيد جهود دول العالم الإسلامي لتحقيق هدف توحيد الخطاب الإعلامي وإنشاء وسائل إعلامية تستطيع بها التصدي لكل الحملات الإعلانية الجائرة ضد الإسلام والمسلمين^(٢٥).

ومن ذلك أيضاً تطوير صناعة عربية إسلامية في مجال الإنتاج الفني التلفزيوني والسينمائي الموجه للأطفال، واعتبار هذا المجال من مجالات البناء المستقبلي والاستراتيجي للأمة، وتخصيص ما يلزم من الموارد المالية لذلك، ورسم سياسة واضحة في مجال استيراد وانتقاء البرامج الأجنبية، وتحديد معايير ثقافية وخلقية وقيمة واضحة تقوم عليها تلك السياسة^(٢٦).

وقد أصدر المؤتمر العالمي الثاني للإعلام الإسلامي الذي نظمته رابطة العالم الإسلامي بالتعاون مع وزارة الشؤون الدينية الإندونيسية توصيات مهمة بعنوان «بلاغ جاكرتا» أهاب فيه بحكومات الدول الإسلامية ومؤسسات الإعلام فيها والإعلاميين المسلمين ومؤسسات الدعوة والعمل الإسلامي أن

(٢٩) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٢٠) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٢١) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٢٢) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(٢٣) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

عالية تخاطب الآخر بلغته، ولتكن اللغة الإنجليزية التي تجيدها الغالبية العظمى من سكان المعمورة.

٢. على الإعلام الإسلامي أن يهيئَ لعملية الانخراط الإيجابي للأقليات الإسلامية في المجتمعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

٣. إيجاد مرجعية موحدة للأحكام الشرعية يرجع إليها كل من يريد أن يتعرف على الأحكام في نبعها الصافي؛ بات أمرًا ملحقًا إن أردنا أن نقدم إعلامًا إسلاميًا عالي الجودة ومقنعًا للآخر ونترك المجادلات والسجلات الفقهية لساحتها الطبيعية منعًا لنضارب الفتوى بين وسيلة إعلامية وأخرى.

٤. علينا أن نعترف بأن الإنسان الذي نخاطبه إعلاميًا يختلف كل الاختلاف عن الإنسان الذي نزلت عليه الدعوة، وهو ما يقتضي أن يكون لدى القائمين على الأداة الإعلامية ملكة الجمع بين الإسلام في أصالته وبين الواقع في معاصرته.

٥. الغرب يعتبر الإسلام الخطر القادم ويطلق عليه «الخطر الأخضر»، ويجب ألا نضع الغرب كله في سلة واحدة، فهو ليس كتلة صماء بل يمكن تقسيمه إلى أعداء وأصدقاء.

٦. يجب أن نضع نصب أعيننا دور الإعلام الديني في إدارة عجلة الإصلاح بإثارة الحوافز الدينية، ودور الدين في عملية الإصلاح المجتمعي اقتصاديًا وسياسيًا واجتماعيًا، ودور الإعلام الإسلامي في فض الاشتباك بين الدين والسياسة والتأكيد على أن الدين لا يمثل عقبة أمام التقدم.

٧. نريد إعلامًا إسلاميًا لا يبدأ من نقطة الصفر، بل يبني على ما سبقه من تجارب ليمثل الدعوة الإسلامية في وجهها المشرق معتمدًا على مصادره الخاصة به ليحرر الإعلام الحالي ويخلصه من التبعية والتسييس.

٨. ندعو لقيام مشروع إنتاجي ضخم لإنتاج أعمال درامية جادة وهادفة تخدم المجتمع ولا تثير غرائز زبائن شبك التذاكر، وفي ذات الوقت تصب في صالح المشروع النهضوي الإسلامي.

٩. الإعلام الإسلامي يقوم على قاعدة الحلال والحرام وأن الأصل في الأشياء الإباحة، تلك حقيقة لا يجب أن تغيب عن ذهن الإعلامي المسلم وهو يضطلع برسائلته التي أوكل بها^(١٨).

ومن ذلك أيضا ضرورة إعداد كوادر أي «إطارات» بشرية بصفة مستمرة، وهذا بطبيعة الحال من أوليات العمل الإعلامي

هذه الانعطافة من تاريخهم - يواجهون غزوًا واحتلالًا ثقافيًا وفكريًا وحضاريًا واقتصاديًا بشعًا شمل كل جوانب حياتهم؛ لذا فإن مهمة الإعلام الإسلامي تتجاوز التثقيف والتوعية وفتح القنوات المعرفية أمام أجيال المسلمين إلى التحفز ووضع الخطط المناسبة في التصدي للغزو الفكري والثقافي والأخلاقي الذي يدهم الأمة الإسلامية، وسط شيوع وسائل الإعلام العابرة للثقافات التي تؤثر في المجتمعات وتنقل أفكار وفلسفات وأخلاقيات شعوب العالم إلى كل مكان^(١٥).

إن الفكرة السليمة والأسلوب المناسب والوسيلة الجديدة عوامل ثلاثة أجمع خبراء الإعلام على أنها تمثل أركان المعادلة الصحيحة لصناعة إعلام هادف قادر على اجتذاب الناس وتغيير الوعي.

وفي إطار الحديث عن الإعلام الإسلامي وسبل النهوض به قالوا: إن غياب أركان تلك المعادلة بنسب مختلفة هو ما أسهم في تأخر الإعلام الإسلامي عن النهوض بدوره المأمول، وأكد الخبراء على أن هذه العناصر الثلاثة ينبغي التعامل معها بصفتها كلاً لا مجموعة أجزاء، فالفكرة لا تنفصل عن الأسلوب، والوسيلة لا بد لها أن تتماشى مع الفكرة، فالغاية لا تبرر الوسيلة^(١٦).

وأجمع علماء الإعلام أن الإعلام ينطلق من مبادئ أربعة تتعاضد كل أجهزته وتقنياته ووسائله وأساليبه للمحافظة عليها بعينها، وخلاصتها:

١- الحقائق المدعمة بالأرقام والإحصائيات.

٢- التجرد من الذاتية والتحلي بالموضوعية في عرض الحقائق.

٣- الصدق والأمانة في جمع البيانات من مصادرها الأصلية.

٤- التعبير الصادق عن الجمهور الذي يوجه إليه الإعلام.

فأي إعلام لا ينطلق من هذه المبادئ فإنه يفقد اسم الإعلام الذي يخدم الحق وينشد الحقيقة^(١٧)، وأحق من يجب عليه التحلي بهذه المبادئ المهنية هو الإعلام الإسلامي؛ وذلك لسمو رسالته وعالميتها وعظم المسؤولية الملقاة على عاتقه، يقول الدكتور محمد عمارة بعد أن ذكر الإشكالات التي يعاني منها الإعلام الإسلامي: (لذا نرى أنه يجب أن يأخذ القائمون على الإعلام الإسلامي التوصيات التالية في الاعتبار:

١. من المهم إطلاق قناة إعلامية عالمية ذات قدرات وكفاءة

(١٥) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١٦) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١٧) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

(١٨) عبد الله قاسم الوشلي: الإعلام الإسلامي في مواجهة الإعلام المعاصر، ص (٤).

ليس من أخلاقنا ١٩ - الصلاح قبل الإصلاح والإخلاص أساس النجاح، وأخيرًا وليس آخرًا: لا يصلح لهذا الدين إلا من أحاطه من جميع جوانبه بأدبٍ جمٍّ، فالأدب سمة الإسلام.

رابعًا: المرأة في الخطاب الإسلامي

المرأة في القرآن والسنة

قال الله تعالى مساويًا بين المرأة والرجل في قبول العمل: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أَضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥] وقال في المساواة بينهما في الحقوق: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((النساء شقائق الرجال))^(٣) وأوصى بهنَّ خيرًا ليرفع عنهنَّ ما حاق بهنَّ من ظلم المجتمعات، فقال: ((استوصوا بالنساء خيرًا))^(٤).

تكريم الإسلام للمرأة:

كَرَّمَ الإسلام المرأة وقدرها واحترمها وأعطاه حقوقها أمًّا وزوجة وأختًا وبتًا بما لا مثيل له في أي فلسفة أو دين أو نظام بشري قبل الإسلام ولا بعده، وهذه حقيقة نتحدى -نحن المسلمين- بها العالم كله وأدعياء تحرير المرأة من أي ملة كانوا، وتاريخ البشرية وحاضرها شاهد على ذلك، بل حتى عقلاء المفكرين الغربيين المعاصرين يعترفون بذلك ويعتقدونه.

عندما كان الإسلام يكرم المرأة ويرفع من شأنها كانت أوربة تعيش في الظلام، وكانت مجامعها الكنسية تبحث عن ماهية المرأة أهية مخلوقة من جنس

الإسلامية، أيتها القيادات الإسلامية المعاصرة، يا من رشحت أنفسكم لتوجيه الأمة والنهوض بها لإعادة أمجادها وبناء حضارتها وإسعادها في ظلال الإسلام العظيم: اسمعوا منَّا يا أحبتنا، فهذا خطابنا إليكم مع كامل الاحترام والتقدير -وهو خطاب مستمد مما تعلمناه في ديننا الإسلام:- ١- أنتم جماعات إسلامية وليس أحد منكم جماعة المسلمين، فجماعة المسلمين هي الأمة الإسلامية قاطبة حيث يرتفع الأذان وتدور الألسن بالشهادة لله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة ٢- تعاونوا وتناصروا ولا تنازعوا فتشعلوا وتذهب ريحكم ٣- الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية ٤- اجتهادنا صحيح يحتمل الخطأ، واجتهاد غيرنا خطأ يحتمل الصواب ٥- نتعاون فيما نتفق عليه ويعذر بعضنا بعضًا فيما نختلف فيه ٦- رحم الله امرأً عرف زمانه واستقامت طريقته ٧- التنظيم وسيلة وليس غاية ٨- فقه الواقع وفقه الموازنات وفقه الأولويات ضرورات دعوية لا يجوز لمن يتصدر لقيادة الأمة أن يتجاهلها ويغامر بمن معه ٩- الولاء والبراء للإسلام والمسلمين وليس للتنظيم ولا للحزب ١٠- الرجوع إلى الحق خير من التمادي في الباطل ١١- الحوار الدائم لتقارب الأفكار وتوحيد الرؤى مطلب إسلامي لا غنى عنه ١٢- الساحة الإسلامية والعالمية تسع الجميع ١٣- أنتم جميعًا مستهدفون، فمتى تتحدون؟ ١٤- احترام أهل الفضل والسبق والتجربة والهيئات العامة جزء من الأدب الذي تعلمناه في ديننا ١٥- عليكم أن تستفيدوا من أخطاء الآخرين وأن لا تكررروا الأخطاء ١٦- ينبغي ألا يخلط الإنسان بين الانتصار للحق والانتصار للنفس ١٧- لا تعرفوا الحق بالرجال ولكن اعرفوا الحق تعرفوا أهله ١٨- الغلو والتنطع والتزمت وسوء الظنَّ

فسدا فسد الناس: العلماء والأمرء))^(٥)، وذكر بعض الشعراء ما رآه في زمانه من تقدم العلماء الربانيين في التأثير بواقع الأمة على أهل السياسة فقال:

إن الملوك ليحكمون على الورى
وعلى الملوك لتحكم العلماء

إن العلماء هم من يصلحون الأمة ويحفظونها من الفساد، فإن فسدوا فأي خير يبقى في الناس، قال الشاعر:

يا علماء الدين يا ملح البلد ما يصلح
الملح إذا الملح فسد؟

وللإسلام خطابٌ خاصٌّ بأهل العلم في الأمة الإسلامية يكون بمجموعه الأسس والمنطلقات التي تضبط تحركهم أو علاقتهم بالأمة، وعلى أهل العلم أن يكون خطابهم فيما بينهم كما أرشد الشرع الحنيف: ١- التجرد والإخلاص لله تعالى رائدنا ٢- إصلاح النفس والبيت والأمة واجبنا ٣- إيجاد القدوة الحسنة لسائر الناس مهمتنا ٤- التأصيل الشرعي لحركة المجتمع مسؤوليتنا ٥- الثقة بالمستقبل الواعد أملنا ٦- الاختلاف في الرأي لن يفرقنا ٧- الهمة العالية والإتقان في العمل منهجنا ٨- التسرع وحرق المراحل ليس من أخلاقنا ٩- التأمر العالمي على الصحو الإسلامية يوحدنا ١٠- الصدع بالحق مهما كان مرًا مطلبنا.

إن على علماء الأمة اليوم أن يعرفوا قدرهم ويتحملوا مسؤولياتهم، فالأمة بحاجة إليهم؛ فهم روادها وقادة الإصلاح عبر تاريخها الطويل.

ثالثًا: خطابنا الإسلامي إلى الحركات الإسلامية

إخواننا الأحبة العاملين في الساحة

(٢) رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله.

(٣) رواه الترمذي وأبو داود.

(٤) رواه البخاري ومسلم.

الخطاب الإسلامي المعاصر معالم وآفاق

د. موسى إبراهيم الإبراهيم - دكتوراه في الدعوة الإسلامية



- ١- ربانية المصدر هوية ومرجعية
 - ٢- عالوية الوجهة ٣- وسطية المنهج
 - ٤- الإيجابية في الحركة بين الثوابت والمتغيرات مع فقه الواقع والموازنات
 - ٥- المرحلية والتدرج والواقعية ٦-
 - التصالح مع العاملين للإسلام والشعوب
 - والحكام ٧- الإخلاص والمصادقية
- بصفتها أساساً للنجاح.

هذه أهم سمات خطابنا الإسلامي العامة، فعلى المسلم أن يجعلها حقائق واقعية في الميدان لا كلاماً منمقاً مصفوفاً أو نظيراً في فراغ.

ثانياً: خطاب الإسلام لعلماء المسلمين

رفع الله من شأن أهل العلم فقال: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١]، وأوجب الرجوع إليهم فقال: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٤٣]، وامتدح رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل العلم فقال: ((العلماء ورثة الأنبياء))^(١)، وحملهم هم والأمرأ مسؤولية صلاح الأمة وفسادها فقال: ((صنفان إن صلحنا صلح الناس وإن

وحب واختيار لمن منحوه الثقة ودخل قلوبهم، وكان منهم ملء السمع والبصر، يومئذ تكون السفينة قد تهيأت للإبحار وتكون البوصلة قد حددت المسار.

لكي يؤثر العلماء في أمتهم لا بد أن يشعروا من أعماق قلوبهم بأن الأمة فيها خير كثير وعندها طاقات وإمكانات كبرى؛ فالعالم أو القائد الذي لا يؤمن بقدرته من يدعوهم أو يقودهم لا يمكن أن يكون لدعوته أثر.

إن سلاح العلم والفكر هو الخطاب، وإن شكل الخطاب وضوابطه الأثر الأكبر في قبول الفكرة أو ردّها؛ فلا بد لنا من بيان معالمه ليكون المسلم على بصيرة من أمره، وهنا أشير إشارات سريعة إلى وجوه للخطاب الإسلامي المعاصر تبدو معالم وعناوين تتسع لكثير من الإيضاحات والتفاصيل في ميدان العمل الدائب الطويل:

أولاً: الخطاب الإسلامي أسسه ومنطلقاته

للخطاب الإسلامي خصائصه الذاتية التي تميزه عن باقي المناهج البشرية المصنوعة، وهذه أهمها:

إن إحياء رسالة العلماء في الأمة هي الخطوة الأولى في مسيرة الإصلاح، الإصلاح الشامل الذي يعيد الأمة إلى مكانتها الريادية، ويجعلها شاهدة على الناس حاملة لمشعل الهداية ومنهج الخلاص للبشرية جمعاء، وما لم تلتف الأمة الإسلامية حول علمائها وتتخذ منهم مرجعية عليا لها فإنها ستبقى تعيش رهن الهزيمة النفسية التي تجعلها ذليلاً لمقولات الغرب وأفكاره وفلسفاته، ولكن من يبدأ الخطوة الأولى؟ ومن الذي يعلّق الجرس إن صَحَّ هذا التعبير؟

هل الأمة هي التي عليها أن تفعل ما عليها أم أن العلماء الربانيين هم من يجب أن يأخذوا دورهم ويُرَوِّدوا أمتهم ويتقدموا الركب والمسيرة؟ لا شك أن العلماء هم من يتحملون المسؤولية؛ فعليهم أن يقوموا بدورهم، وأن يجعلوا من أنفسهم أهلاً لثقة أمتهم بهم من خلال الصدق والإخلاص والتضحية والوعي والتجرد وحمل هم الأمة والتفاني في حل مشكلاتها، ومن خلال رؤية واضحة للإصلاح وإعادة البناء بحيث يشعر جمهور الأمة بكفاءة قياداته العلمية والفكرية وصدقهم وإخلاصهم، وهنا تولد الثقة بل تفرض نفسها، وعندئذ يسلم الناس قيادهم عن طوعية

(١) رواه أبو داود والترمذي وابن ماجه وغيرهم من أهل السنن.

ونشعر بالأسى على الحياة المريرة التي تعيشونها، لقد ضيعتم منهج الفطرة الإنسانية وغرقتكم في المادة وأغرقتكم في السقوط القيمي والأخلاقي، وإن شعوبكم تعاني وتشعر بفراغ عَشَّش بكل ذرة في حياتها، وإن الإسلام هو من يملك منهج خلاص البشرية من شقائها وتيهها وضياعها، إنه منهج الفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، إنه الإسلام العظيم الذي سعد العالم في ظلاله أكثر من عشرة قرون متواصلة، فهل تفيؤون إليه؟

١٢- أيها العالم الغربي قادة ومفكرين وشعوباً! هذا هو خطابنا إليكم، سلام وحوار وعدل وحرية ونصح ونقد ومراجعات، فإن أبيتم إلا الاستكبار والطغيان والاستهتار بحقوقنا والتأليب علينا، وإن أبيتم إلا الروح الصليبية التي أحيها «بوش» من جديد فإننا لا نتمنى لكم ذلك، وإن أصررت على العدوان فأنتم وذاك، ولا تتخذوا بما تكسبون من معارك هنا وهناك، فإنكم ستجدون أمام طغيانكم جنوداً للحق يعرفون كيف يحمون حقوقهم، ويدافعون عن المظلومين ويردعوا الظالمين، وما ساحات فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال عنكم ببعيدة.

هذه مجموعة من معالم الخطاب الإسلامي إلى العالم بأجمعه مسلمه وغير مسلمه، وإن التركيز على هذه الأسس في الدعوة والتعایش مع الناس في هذه الحياة هو ما يكفل للعالم الإسلامي التوازن، وإن التقييم والتقويم الدائم لسلوكنا وخطابنا وفق مبادئ الإسلام هو ما يكفل لنا الاستمرار والبقاء والفعالية في هذا العالم المتقلب الذي لا يثبت على حال، والحمد لله رب العالمين.

٦- للإسلام سياسته الخاصة في ضبط العلاقات بين المسلمين وغيرهم، فهو يدعو العالم إلى الحوار وإلى كلمة سواء بعيداً عن الإقصاء وفقاً لمنظومة قيم تحفظ حقوق الجميع وتكفل كرامة الإنسان.

٧- إن المسلمين اليوم يدعون شعوب العالم كله في الغرب وغيره إلى فهم الإسلام فهماً صحيحاً بعيداً عن تحريف المستشرقين وتشويه السياسيين المغرضين.

٨- ونطلب من قادة الغرب اتخاذ المواقف العادلة من قضايا العالم الإسلامي الكبرى في فلسطين والعراق وأفغانستان والصومال وسوريا وليبيا واليمن وغيرها، والتخلي عن الظلم والاستكبار، ووضع حد لتضليل شعوبهم ولمغامراتهم وأطماعهم بمقدرات وخيرات عالمنا الإسلامي.

٩- ندعو قادة الغرب إلى إنهاء حروبهم التي لم تهدأ ضد عالمنا الإسلامي خاصة، وليعتبروا بالحروب الصليبية وحروبهم العالمية التي لم تتوقف، ونقول لهم: ماذا حققت لشعوبكم من هذه الحروب؟ قد فشلتم وخسرتم وورثتم الكراهية والأحقاد في أجيال العالم وأمه لكم ولشعوبكم، فهل أنتم متبهون؟

١٠- نحن المسلمين نذكر قادة الغرب بالموازين المزدوجة التي يتعاملون بها مع قضايا العالم الإسلامي، وبأن هذا السلوك الظالم هو ما جعل شعوب عالمنا تكره الغرب وتحقد عليه، فمثلاً ما هي أسس التعامل مع قضية فلسطين والعراق وأفغانستان وسورية واليمن وليبيا؟ أهكذا تكون الديمقراطية والعدالة التي يدعيها الغرب؟

١١- نحن المسلمين نقول للغرب قادة وشعوباً: أيها الناس، إننا نشفق عليكم

الإسلامي خطاباً متوازناً متوافقاً مع مبادئ القرآن والسنة ومقاصد الإسلام السامية، لا خطاباً متطرفاً تغلب عليه العاطفة وردة الفعل من ظلم الآخر للمسلمين كما تفعل جماعات التطرف والتكفير، ولا خطاباً متميماً مسحوراً بالغرب يثني على انحرافاته وأخطائه كما يفعل دعاة الحداثة الذين يحاولون بذل كل جهدهم للتذلل للغرب والتزلف له.

إن للإسلام خطاباً متوازناً يقوم على عدة متركزات ومعالم كالآتي:

١- الأصل في العلاقات الدولية في مفهومنا الإسلامي هو السلام والأمن للجميع، وإننا إذ نؤمن بحوار الحضارات ولقائهما وتفاعلها نقرأ أيضاً بصراع الحضارات أو تدافعها، وعندنا قيم وضموابط لهذا الصراع أو التدافع بحيث يسود الحق والعدل ويرفع الظلم عن سائر الناس.

٢- نحن المسلمين لسنا أعداء للحضارة الغربية، فنحن نؤمن بدورة الحضارة، ونحن من وضع اللبنة الأولى لحضارة الغرب وأسسها العلمية التي قامت عليها.

٣- نحن المسلمين أقمنا للدنيا حضارة سعدت بها الحياة والأحياء ردحاً من الزمن لم يفرق فيها بين مسلم وغير مسلم، فالكل أمام القضاء سواء.

٤- نحن المسلمين نعتز لكل ذي فضل بفضله، والحكمة ضالة المسلم أينما وجدها فهو أحق الناس بالتقاطها، وكم استفدنا من ثقافة غيرنا وشكرناه على ذلك.

٥- على غير المسلمين أن يعلموا أننا دعاة سلام وعدل وحرية لكننا في الوقت ذاته نأبى الذل والهوان والظلم والاستكبار.

البشر أم هي نوع من الجان؟! بل حتى الثورة الفرنسية التي حررت أوروبا من ظلمات الجهل لم تعط المرأة معشاراً ما أعطاه الإسلام من الحقوق والتكريم، أما دعاة تحرير المرأة من الغرب ومن تأثر بهم من أبناء قومنا فالحقيقة أنهم لم ينصفوا المرأة بل أهانوها وحطوا من شأنها، وصارت المرأة في فلسفاتهم متعة وسلعة رخيصة تحت شعارات فارغة تنادي بالحرية والمساواة، وقد سقطت هذه الشعارات في الميدان، وكشفت الدراسات العلمية والجينية الفروق الجوهرية في أصل تكوين الرجال والنساء، حتى إن ألكسيس كاريل الفرنسي الحائز على جائزة نوبل في الطب عام ١٩١٢ يقول في كتابه القيم «الإنسان ذلك المجهول»: (إن كل خلية في جسم المرأة تحمل طابعها الأنثوي وتميزها عن الرجل، فعلى النساء أن يمينن مواهبهن فيما خلقن له ولا يزاحمن الرجال، فإن دورهن قد يكون أكبر وأعظم من دور الرجال).

أما القضايا التفصيلية في موضوع المرأة فلا يتسع المجال هنا لبحثها، لكن إجمالاً نقول: إن المرأة هي نصف المجتمع، ودورها في بناء الحضارة أساسي أصيل، ومشاركتها علماً وعملاً في شتى المجالات الحياتية مرعية مقدرة، وكذا مشاركتها التربوية والاقتصادية والسياسية والاجتماعية وغيرها، كل هذا محسوب مقدر في إسلامنا وفق آليات وضوابط تتيح للمرأة مشاركتها وتفجر طاقاتها وتحفظ حقوقها وكرامتها على أحسن ما تعرفه دنيا المبادئ والنظم والمناهج.

خامساً: خطابنا إلى الأقليات غير المسلمة في مجتمعاتنا الإسلامية

قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ ٓأَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٨] وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أَلَا مَنْ ظَلَمَ مُعَاهِدًا أَوْ انْتَقَصَهُ أَوْ



« ولم يحدث مرة في تاريخ الإسلام أن حلَّ بالأقليات غير المسلمة في الدولة الإسلامية ظلمٌ أو اعتداء، ولم يثبت أنها لم تُنصف إن حدث لها ذلك »

ليهودي من رعايا المسلمين على خليفهم أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، إنها العدالة المطلقة التي لن يُعثر على تمامها وكمالها إلا في الإسلام واقعاً حياً لا نظريات في مجاهيل الخيال، ولم تخل المجتمعات الإسلامية والدولة الإسلامية منذ عهدها الأول عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من أقليات غير مسلمة تعيش بينها، ولم يحدث مرة في تاريخ الإسلام أن حلَّ بالأقليات غير المسلمة في الدولة الإسلامية ظلمٌ أو اعتداء، ولم يثبت أنها لم تُنصف إن حدث لها ذلك، بل إن اليهود قد رضوا أن يهاجروا أيام محاكم التفتيش الصليبية في الأندلس إلى بلاد المسلمين، إذ لم يجد اليهود يوماً مأوى يأمنون به على أنفسهم إلا الدولة العثمانية الإسلامية، إنها أحداث ووقائع نذكر بها، وهي حالة لا يجهلها ولا ينكرها المنصفون من غير المسلمين.

وفي العصر الحديث لا يرى علماؤنا بأساً بأن يمثل غير المسلمين في المجالس النيابية بنسبة عددهم في الدولة كي يتتبعوا حقوقهم ويشاركوا في الرقابة على مسيرة الحياة العامة التي هم جزء منها.

سادساً: خطابنا إلى الغرب شعوبه ومفكره وقياداته السياسية

خطابنا للغرب خطابٌ للعالم غير الإسلامي قاطبةً، علماً أننا نحفظ بالفروق البينية ونقدرها، فمن واجب المسلمين اليوم أن يكون خطابهم للغرب وغيره ممن هم خارج عالمنا

كَلَّفَهُ فَوْقَ طَاقَتِهِ أَوْ أَخَذَ مِنْهُ شَيْئًا بَغَيْرِ طَيِّبِ نَفْسٍ فَأَنَا حَجِيجُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»^(٥) وقد شهد التاريخ بحسن معاملة الإسلام للأقليات في مجتمعاته، وإن في قصة القبطي مع ابن عمرو بن العاص والي مصر خير شاهد على ذلك، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما ضرب ابن عمرو قبطياً سبقه في سباق الخيل: متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً؟ ونقل لنا التاريخ قضاء القاضي شريح

(٥) رواه أبو داود والبيهقي.

حتى الآن أشبه بحبو الأطفال في حلبة سباق للسيارات.

إن استمرارية التطوير السريع المتجدد المتشابك المتكامل للإعلام الإسلامي واجب ملح، ومواصفات التطوير المذكورة هنا أهم من كلمة تطوير نفسها، وهذا ما يستدعي جهودًا متصلة بحلقات متوازية متكاملة متتابعة دون انتقاص من حجم العمل الأهم المطلوب أي ممارسة الإعلام ومقتضياتها.

3- عقلانية التطوير

بات معروفًا أو مقررًا في عالم الفكر والإعلام والنشر أنه ليس كل كتاب كبير بحجم مجلد ولا نص صغير بحجم مقال يصلح أن يكون إخراج واحدًا، سواء في ذلك اختيار الطباعة لإنتاجه ونشره أو اختيار التسجيل السماعي له.

إن الكتب الروائية أو القصائد الشعرية يمكن أن نجد من يستمتع بها ويستفيد منها سواء وصلت إليه بوسيلة الطباعة أو التسجيل، لكن ذلك لا يسري على كتاب تخصصي أو محاضرة في موضوع من عالم تطوير الكفاءات في قطاع إدارة الأزمات مثلاً، ففي هذه الحالة يقلص التسجيل الصوتي كثيرًا حجم الاستفادة الممكنة مقارنة بالطباعة بينما يمكن للتسجيل المرئي أن يحقق فائدة أكبر، هذا شريطة إدراج ميزات معينة لأدوات إخراج المرئيات من تصوير وتخطيط ثابت ومتحرك ومبّوب ومجسّم، فتتحقق فوائد أكثر مما يعطيه الإخراج الطباعي أو الصوتي، لكن رصدنا في العقود الماضية أننا لا نحقق الهدف المرجو في تطوير الإعلام الإسلامي بمجرد نقل الأسلوب المتبع في حقبة زمنية ماضية للعطاء من ندوات ومحاضرات وخطب في قاعات مغلقة إلى الشاشات الصغيرة، فميزات هذا النقل مشروطة بالاستفادة

اختراع العجلة أو آلة الطباعة، إذ كان لكل منها قيمة ذاتية فعّالة مذهلة، فكانت تُرسم معالم بداية تاريخية جديدة.

صحيح أن عناصر عملية التطوير بحد ذاتها لا تتغير -وهي تقويم الواقع الآني، وتحديد الهدف البعيد والمرحلي، والتخطيط لمراحل العمل، وتنفيذ مدروس، ومراقبة النتائج- لكن هذه النتائج تصنع واقعًا آنيًا جديدًا يتطلب هو نفسه التقويم أي الخطوة الأولى من هذه الدورة، وهكذا دواليك.

إن معطيات عالمنا المعاصر تفرض الشروع بعملية تطوير جديدة قبل الفراغ من سابقتها، وذلك بحيث توازي المرحلة الأولى من عملية جديدة تنفيذ المرحلة الأخيرة من عملية سابقة، هذا مع مضاعفة سرعة كل خطوة ومضاعفة إتقانها في آن واحد، ويسري هذا على توالي عمليات التطوير إلى جانب تداخلها وتشابكها وتأثيرها المتبادل.

في عالمنا المعاصر نشهد في ميادين أخرى -علاوة على الإعلام وتقنياته- قفزات نوعية مذهلة أيضًا لكنها جميعًا متقاربة متوازية متتابعة، فكأنها تشكل معًا انفجارًا ضخماً له أجزاء، ولكل منها ملامح مميزة لكن «أثارها» لا تفرق عن بعض بل تشمل بتشابكها وتكاملها معظم ميادين الحياة البشرية في وقت واحد، هذا بعض ما يفرض أن تتداخل عمليات التطوير وتتكامل وأن تشمل أيضًا تلك الميادين الحياتية المرتبط بعضها ببعض.

لقد بلغت وتيرة تسارع التطورات الجارية درجة السيل المتدفق بحركة شبه عشوائية على منحدر شديد، وبلغ تنوعها خلال العقود القليلة القليلة الضعاف ما كانت عليه من قبل من حيث اختصار الفترة الزمنية بين حلقة تطور وأخرى، ومن حيث اتساع رقعة التأثير وازدياد عمقه مرة بعد مرة، ولدى المقارنة لا ينبغي التردد في أن عملية تطوير الإعلام الإسلامي وفق ما رصدناه

وغيرها، وشييه ذلك كان في التعامل مع انتشار التلفزة ثم الشبكة العنكبوتية.

في تلك الفترة كانت هذه الدورة -المتتملة في إدراك ضرورة التطوير التقني، والإعداد له، وظهور أسباب مستجدة تتجاوز ما سبقها- دورة زمنية تستغرق بضعة عشر عامًا، ثم مع ظهور مبتكرات تقنية تالية أصبحت في حدود بضعة أعوام، ثم تلاشت تمامًا معالم التمييز بين حلقة وأخرى من حلقات ظهور تطور تقني ومعالم السعي لاستخدامه نتيجة قصر الفترة الفاصلة بين كل ابتكار وآخر؛ لهذا لا يجزؤ من يدرس الوضع الآني على تحديد وتيرة زمنية لعملية تطوير ما، فربما لا تصل كلماته إلى عيون القارئ أو أذان السامع إلا وقد عفا الزمن على ما يقول، لا سيما إذا كانت الكلمة المطبوعة وسيلته.

إن استشراف دواعي التطوير التقني وغيره يأتي في مقدمة شروط التطوير، على أن يكون استشرافاً منهجياً مبكراً للقادم من المتغيرات مصحوباً بالاستعداد للتلاؤم معها بتطوير ذاتي يناسبها قبل أن تنتشر انتشاراً واسعاً.

2- استمرارية التطوير المتجدد

أصبحنا أمام تحديات أكبر من مجرد اللحاق زمنياً بمسلسل متسارع لظهور وسائل وأدوات جديدة، ناهيك عن تطوير إخراج مضامين إعلامية تناسبها، فالتسارع الزمني والمستجدات نوعية، وجميع ذلك عبر حركة انسيابية متداخلة تضعنا أمام مهام جسيمة، من وجوها تداخل تحديات التطوير المطلوب زمنياً ونوعياً، وقد تجاوزت البشرية منذ زمن بعيد صيغة مسارٍ تطويريٍّ «كان نمطيًا» يمكن أن ندرسه ونمارسه ونوجهه تفاعلاً مع معلم من معالم التقدم، وكان هذا المسار بعد ميلاد قفزات علمية تقنية نوعية مثل

أبعاد عملية تطوير الإعلام الإسلامي

أ. نبيل شبيب - كاتب وإعلامي سوري



أفكار مبدئية بمعنى «اجتهادات» يؤخذ منها ويترك، وتحتاج إلى الاستكمال وربما التصويب أيضًا:

1- عامل الزمن أو توقيت استشراف دواعي التطوير

منذ أواسط القرن العشرين كانت الحاجة إلى تطوير الإعلام الإسلامي ملحّة، يتكرر الحديث عنها وقليلًا ما تحقق ذلك، لا سيما عند الاعتقاد أن التطوير يتحقق بمجرد استخدام وسائل تقنية مستجدة.

مثال: في الستينات والسبعينات من القرن العشرين بدأ المسؤولون عن وسيلة إعلام مكتوبة - كالمجلة - يفكرون باستخدام التسجيلات الصوتية، وذلك بعد فترة من انتشار استخدام تلك «العلبة» الصغيرة للتسجيل الصوتي وريثةً لأشرطة التسجيل الأضخم منها من قبل، وبدأ العمل لتأمين متطلبات هذا التطوير «التقني» من تمويل وكفاءات حرفية وغيرها، لكن سرعان ما وجد الساعون إلى التطوير أنفسهم أمام انتشار أقراص التسجيل الصوتي الدائرية الصلبة وتقنيات التسجيل المرئي المتحرك قبل استكمال استعداداتهم لاستخدام العلبة الصغيرة المشار إليها على نطاق واسع، وتلتها سريعًا أقراص صغيرة ثم الشرائح

«إعلام» بحيث يتميز مضمونًا وإخراجًا عما اختلط به من كتابات في الفكر والدعوة والحركة مثلاً.

الثاني: الارتقاء به من حيث توصيفه بالإسلامي على خلفية خالية من المعايير الموضوعية، واعتماد آليات المقاصد الإسلامية بدلًا من التأثير بكثرة استخدام مفردات وصور «إسلامية» في كتابات ومنتجات نعدّها إعلامًا كالمقال والتحليل أو برنامج البث المسموع أو المرئي.

وينبغي أن نعلم أن الهدف من دراسة عملية التطوير من كافة جوانبها لا يتحقق عن طريق وضع مخطط شامل، بل يبقى المطلوب في نهاية المطاف صياغة خطوط عامة لعملية التطوير مع آلية تجديد متتابع لها بحيث يكون لها من الموصفات الذاتية كالموضوعية والمنهجية والوضوح، وهذا ما يجعلها تجد القبول عند تعميمها، فيمكن ترجيح الالتزام بها من جانب العاملين في الإعلام تحت عناوين إسلامية ومن منطلقات إسلامية، والانطلاق منها إلى عمليات تطوير متعددة قائمة بذاتها تتكامل نتائجها على أرض الواقع.

ولا يمكن في هذه المقالة الموجزة طرح «عملية التطوير» نفسها، وهذا مستحيل ابتداءً دون آليات كافية لذلك، إنما يراد طرح أمثلة على موصفات مرجوة في صيغة

تنطلق السطور الآتية من دراسة سبق نشرها للكاتب تحت عنوان (مدخل لتقارب الرؤى حول الإعلام والإعلام الإسلامي)، ومما ورد فيها:

«من العسير الإدلاء بقول جازم بشأن ماهية الإعلام الإسلامي ناهيك عن طرح صيغة محكمة لتعريفه، وبالمقابل من العسير أيضًا أن تؤدي عملية تطويره المرجوة أهدافها على أرض الواقع دون حدٍّ أدنى من التقارب على رؤية مشتركة لما يعنيه هذا التعبير المنتشر منذ زمن»، واستهدفت الدراسة استخلاص محدّدات عامّة تساعد على تقارب الرؤى بشأن ماهية الإعلام اصطلاحياً، ثم استخلاص منطلقات عملية كيفية توصيفه بالإسلامي.

ومن الضروري تبعاً لذلك حلحلة عقدة التناقض بين القول بعدم وجود «إعلام إسلامي» بصفته اصطلاحاً يتجاوز حدود اجتهادات متعددة مختلفة مضموناً ونتيجةً وبين القول بالحاجة إلى تطوير الإعلام الإسلامي، هذا التناقض ذاته هو ما يستدعي التطوير، فمحوره النظر فيما انتشر وصفه بالإعلام الإسلامي على علته.

إن واجب الإعلاميين اليوم يتمثل في العمل على شيئين أساسيين:

الأول: الارتقاء به «نوعياً» إلى مستوى

دعائنا والإعلام

الحاجة والضرورة في ضوء الواقع الحالي

د. عبد الله لبابيدي - دكتوراه في الحديث وعلوم السنة



رسالة الإعلام الهادف اليوم في قيادة الأمة إلى شاطئ الأمان والدفاع عن ثوابتها ليست شرفاً أو بطراً أو سداً للفراغ، بل هي مهمة صعبة حيوية، وهذا ما أكده المفكرون والدعاة وزعماء الأمة والمصلحون في أكثر من مناسبة، وأكدته الشواهد الحضارية ومجريات الحياة المعاصرة.

إن الإعلام الهادف يواجه تحديات لا يواجهها أي إعلام آخر؛ إذ إنَّ عليه أن يجمع بين الجاذبية والالتزام، فهو لا يستطيع أن يتغذى على شهوات الناس ورغباتهم كما لا يستطيع أن يهْمَ بما يفعله الإعلام الآخر من مخادعة واستغلال، ورغم هذا فإنَّ ترسيخ وجوده في الساحات العالمية ليس مستحيلاً إذا توفر لدينا ما يكفي من الوعي والإخلاص والعزيمة.

ومعلوم أن مهمة الإنسان الأولى في الحياة هي العبادة، فلم يُخلق إلا لذلك، أما مهمته الثانية فهي بلا شك الدعوة إلى الله، وقد أكدت آيات قرآنية كثيرة كقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] والاستشهاد بهذه الآية المباركة هو لارتباط الدعوة بالإعلام، فكل دعوة إعلام، وكل إعلام دعوة، وما بينهما من فروق طفيفة هي أقل من الثانويات التي يتعلق بعضها بالأداة أو

الوسيلة أو خاصية من خواصها، فصلاة الجمعة دعوة وإعلام، وصفحة الإنترنت إعلام ودعوة، وكذلك مجموعات وتس أب وغيرها من الوسائل، فإذا أضفنا إلى ذلك أمر تكليف الله تعالى لنا -نحن المسلمين- بنشر دينه أصبح ذلك أكثر التصاقاً بنا وأعمق وجوباً في العمل.

والناس قديماً وحديثاً يستعينون في حياتهم بوسائل الاتصال والإعلام المتوفرة ليمارسوا دورهم في الحياة، فكل فرد منا يمارس الإعلام بطريقة أو بأخرى عبر وسائل أصبحت تستهلك أوقاتنا من الصباح حتى المساء، ولقد أصبحت ضرورة لا يستغني عنها مجتمع من المجتمعات البشرية.

هذه الضرورة في غاية الأهمية بالنسبة لدعائنا، فالداعية إذا أراد النجاح في إيصال دعوته للناس لزمه أن يعدد قنوات اتصاله بهم، وقد تعددت قنوات التواصل في عصرنا من البرامج الدعوية التي ملأت القنوات الفضائية والإذاعات حتى الكتاب والمجلة والجريدة والمدونات والمواقع الإلكترونية ووسائل التواصل الاجتماعي، هذا إضافة إلى القنوات التقليدية كالخطابة والمحاضرة والدرس والندوة والمؤتمر.

مشكلة إعلامنا الهادف اليوم هي في حَمَلَةِ الإعلام: هل هم أصحاب رسالة أم تجارة؟ هل إعلامنا إعلام له رسالة أم هو إعلام تجاري؟ هل هذا الإعلام ينتمي

إلى إنسانية الإنسان وروحانيته أم إلى مذهب وطائفة وجماعة؟

أعتقد أن معظم إعلامنا قد سُيِّس ولم ينبج من ذلك إلا القليل إضافةً إلى قلة من دعاة الإسلام أصحاب الرسالة، وكثير منهم لا يستطيع إيصال رسالته إلى الغرب تامة لأسباب عدة أولها عدم إتقان لغة المخاطب؛ لذلك يجب أن نتخير رُسُلنا إلى الغرب: هل رسولنا الذي يذهب إليهم ليخاطبهم مهياً لحمل الرسالة؟ كثير من الأفراد والجماعات التي تحمل رسالة الإسلام في الغرب ليست مهياً كما ينبغي لذلك، بل تسقط رسالتهم في عيون الجماهير بمجرد أن يظهروا على الرائي؛ لذلك كانت حَمَلَةُ الغرب على حامل الرسالة أكبر من التصدي لرسالته؛ فإنه إذا أسقط الرسول أسقط رسالته.

والحقيقة أن إعلامنا يعاني قلة رسل الإسلام الذين يجمعون بين الإخلاص والوعي، فالرسول الداعية يجب أن يكون متوازناً مع رسالته، وحينما يبصر الإنسان في بعض الفضائيات العربية نماذج غريبة تخرج وتتصدر المشهد وتفضل الناس بفكرها المنحرف وتشوه نقاء الإسلام وصفاءه لا يخالجه شك بأن وراء الأكمة ما وراءها.

إن رسالتنا التي نحملها رسالة عالمية، لكن -يا للأسف- نجد أن العالم الإسلامي جملةً يرى أن رسالته له

المدرسة من إمكانيات وسيلة تقنية جديدة ومدى ملاءمتها للمادة الإعلامية والمستهدف بها ومن عوامل عديدة أخرى، وهذا ما يمكن وصفه بالتطوير العقلاني.

إن عقلانية عملية التطوير مبدأً أساساً في التطوير الإعلامي، وعمادها أن ينبثق أسلوب الإخراج عن مراعاة نوعية المادة الإعلامية، وأن يناسب فعالية الوسيلة وخصائصها والفئات المستهدفة من العطاء الإعلامي.

٤- عوامل تقتل جدوى التطوير

التطور الجاري عالمياً في الإعلام وتموضعه في شبكة العلاقات البشرية والدولية تطوراً حافلاً أيضاً بنتائج سلبية ترمز إليها كلمات الانبهار والتضليل وكذا ما يسمّى «الأخبار» المزيفة، وأصبح ما يتوفر من وسائل لممارسة ذلك كله بالغ التأثير سلباً على أداء المهمة الإعلامية إخباراً ورأيًا، هذا علاوة على أن طغيان تأثير العامل المادي تمويلاً واحتكاراً غداً أكبر مما مضى في توجيه الإعلام ومن يعمل فيه، فأصبح توظيفه في اتجاهين:

الاتجاه الأول: ترسيخ هذا التأثير وتغوّله عبر مستويات غير مسبقة في إخراج يستهوي الأنظار، وعبر ازدياد الهيمنة على الوسائل مقارنة بمن لا يملك القدرة على ذلك.

الاتجاه الثاني: تحقيق أهداف أساسية تخضع لأغراض مادية وثقافية وفق توجهات الحاضنة الحضارية والاجتماعية المتعلقة بالتأثير المادي المذكور.

ولا يعني ذلك غياب تنامي التأثير المضاد عالمياً غياباً مطبقاً، فكثير من المبادئ والمثل التي سبق ظهور تأثيرها حضارياً وتاريخياً بدأ يتجدد مفعولها في عملها على مقاومة التأثير السلبي للهيمنة أو الحد من تغوّلها على الأقل، ومن ذلك ما يتعلق بقطاع الإعلام.

عملاً بهذه المدخلات لا يستهان بالخطأ الفادح الكامن في غلبة الاهتمام بالمظهر

جزئي، وكذلك من يُعتمد عليهم من هيئات تحرير وإخراج وإدارة، ومثل ذلك ما يلتزم به أو يقال به من سياسات إعلامية وما يمارس من إنتاج وتوزيع، وهكذا ما يوجد تحت عنوان الإعلام الإسلامي من علاقات ببنية وخارجية، وغير ذلك مما يوضع في صيغة مرنة قابلة للتعديل من أجل سلسلة الدراسات وتأمين شبكة تربطها بمركز أو أكثر للبحوث والدراسات.

٦- آلية عامة للبيّداد للتطوير

لا يمكن تحقيق الفائدة المثلى في أية عملية تطوير دون استحداث آليات تدرس وتخطط وتقوّم وتنفذ وتتواصل فيما بينها اعتماداً على قواسم مشتركة في رؤية الإعلام الإسلامي واحتياجاته ومهامه وكيفية تطويره، وما دام ذلك غير متوفر يمكن الشروع في تواصل هادف لهذا الغرض من خلال سلسلة ندوات تبناها جهة معتبرة منفتحة على مختلف الجهات ذات العلاقة بحيث تجمع الندوات تخطيطاً وإعداداً وتنفيذاً أصنافاً من المختصين هم:

١. من يمارس العطاء الإعلامي من جيل الشباب.
٢. المتخصصون من مستوى النخبة في الإعلام.
٣. أصحاب التوجه الإسلامي من العاملين في الإعلام.
٤. المتخصصون في المقاصد الإسلامية، لا سيما من هو على اتصال بالإعلام والنشر عمومًا.

هذا على أن يوجه الندوات جهاز إداري كفء يملك آلية عمل تضمن تنفيذها وتقويمها تقويمًا متواصلًا، وتطوير مضمونها تطويراً متجددًا، إضافة إلى آلية تفعيل نتائجها وتعميمها.

والحمد لله رب العالمين.

والشكليات على حساب الاهتمام بالهدف والمضامين في تصوراتنا وفي مجرى المساعي التطبيقية لتطوير الإعلام الإسلامي وغيره، ولا يكفي تعليل ذلك بأهمية الإخراج في عالم الإعلام، بل لا بد من ضبط ذلك بالنص وبالتأكيد على كونه يحقق التلاؤم مع المضمون ويضمن سلامة أهداف العمل الإعلامي المعنوي، وإنما يمكن تعليل غلبة المظاهر - لا تسويغها - بعوامل عدّة، منها طغيان تأثير سرعة التطور التقني نفسانيًا كما في الشبكي على تأثير جوانب موضوعية مثل إتقان توثيق التحرير وتقنين حماية حقوقه فكرًا وتخطيطًا وتنفيذًا.

٥- دراسة الوضع التّنيّ

لا يبدو في الإمكان البناء على المعطيات الحالية للقيام بخطوات تطويرية ورؤية نتائج مرئية ناهيك عن طرحها وتنفيذها، وفي هذه الحال من الضروري الشروع في التأسيس لشروط تأمين المعطيات الضرورية المفقودة حاليًا لعمل تطويريٍّ مثمر، وبتعبير آخر: البناء يبدأ من الأساس على مبدأ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

سبقت الإشارة إلى أننا نفتقد ما يمكن الاعتماد عليه للإحاطة بما يوجد من معطيات فعلية تسمح بتعريف اصطلاحى للإعلام الإسلامي وتقدير واقعي لحجمه وانتشاره وفعاليته وما يعاني منه لتطويره؛ لهذا نحتاج إلى سلسلة دراسات من نوعية «الرصد والمسح والإحصاء» لما يوصف بالإعلام الإسلامي، تبدأ بحصر ما سبق وضعه ونشره من دراسات لهذا الغرض وتصنيفها، ومتابعة ما أنجزته للإحاطة بواقع الإعلام الإسلامي جغرافيًا ونوعيًا، وبما طرأ ويطرأ على ذلك من متغيرات، وكذا ظروف العمل الذاتية والخارجية وتأثيرها عليه، لا سيما النواحي السياسية والتمويلية والتوجيهية، فضلًا عن درجة استقلالية الوسيلة الإعلامية والتزام القائمين عليها بمحددات عمل إعلامي



المجلس الإسلامي السوري

SURIYELI ISLAM KONSEYI | SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

مع بداية الثورة السورية المباركة تشكلت في الداخل السوري الهيئات والروابط الشرعية لتسد الفراغ الحاصل من غياب مؤسسات الدولة وانحسارها في المناطق المحررة، على صعيد آخر شهد عام ٢٠١١ مبادرات لإيجاد كيان جامع موجد من قبل العلماء والروابط التي أجبرها النظام على الاغتراب.. وعلى خطى التوحيد اجتمع نحو ٤٠ رابطة وهيئة شرعية في منتصف نيسان ٢٠١٤، ليعلموا تأسيس «المجلس الإسلامي السوري»، الذي ضم العلماء والهيئات الشرعية والروابط العلمية السورية، ليكون قراراً مشتركاً يعبر عن إرادة موحدة لرموز المدارس الفكرية الإسلامية المعتدلة في سوريا .

الهوية

هيئة مرجعية شرعية وسطية سورية، تسعى إلى جمع كلمة العلماء والدعاة وممثلي الكيانات الشرعية، وتوجيه الشعب السوري، وإيجاد الحلول الشرعية لمشكلاته وقضاياها، والحفاظ على هويته ومسار ثورته.

الرسالة

ترسيخ المشروع الإسلامي وتفعيل دور المؤسسة الدينية في المجتمع السوري.

الرؤية

تمكين المرجعية الإسلامية للشعب السوري من الاضطلاع بدورها الريادي في المجتمع.

وليست للعالم، هذا استناداً إلى الواقع المعين على الأقل، والواقع أننا لم نستطع استخدام تقنيات الاتصالات في حمل الرسول والرسالة إلى الآخر استخداماً صحيحاً، وقد حاول الغرب أن يمنعنا منها وحاول أن يجعلها في يده لكنّ مالنا استطاع أن يجذبها، ورغم هذا لم تمكن من استخدامها الاستخدام الأمثل، وانحصرت في اتجاهات معينة؛ فضاء المخاطب بين إسلام صوفي وشيعي وسلفي ورفض للحوار مع الآخر.

انطلاقاً مما سبق هل نستطيع أن نخاطب العالم عن طريق رسالتنا العالمية ورسالتنا العالمية بخطاب يجمع ولا يفرق؟ عندما نكون قادرين على ذلك نكون قد استعملنا وسائل اتصال صحيحة وإعلاماً هادفاً صحيحاً، فإن اتفقنا على خطاب يجمع ولا يفرق فعلى الدعاة أن لا يتخرجوا من الظهور على الفضائيات لفقدتهم القدرة على الأداء الإعلامي الذي يليق بهم، بل عليهم الصقل والتدريب والتمرين الطويل على لغة إعلامية بسيطة تتوافق مع لغة الناس وتطورات العصر، وعليهم أن يتنبهوا إلى الاستثمار الدعوي في الفضائيات ووسائل ومواقع التواصل الاجتماعي عبر مقاطع الفيديو القصيرة المؤثرة، فهذا الاستثمار أصدق وأسرع في التعبير عما يجول في نفس المدعو من خواطر وأفكار يريد إيصالها إلى المدعويين؛ وعلى هذا فإن عليهم دراسة أساليب الدعوة

الإعلامية عبر تعلم لغة الجسد وفن الإقناع والظهور الإعلامي المتميز وقراءة نفسية الجماهير قراءة غابت عن مقررات كليات الشريعة والدراسات الإسلامية في جامعاتنا، وإنها لهي المفتاح الرئيس للوصول إلى المدعويين لتبليغهم رسالة الإسلام بالطرق والأساليب الحديثة.

وتعد البرامج الحوارية الشبابية التي تركز على الوعي الديني والسياسي من أهم البرامج التي ينبغي للدعاة الاهتمام بها؛ فالحوار غداً باباً أساسياً في كثير من وسائل الإعلام على اختلاف توجهاتها وسياساتها؛ ذلك أن الحوار الهادف ينتج فكراً إبداعياً، وينقب عن مكامن النفس والعقل بالسؤال والمراجعة، ويستخرج من النفس أشياء لم تكن لتخرج تلقائياً دون تحريك بالسؤال أو المحاور.

ولا نغفل كذلك دور المرأة المسلمة الداعية التي تخدم دينها بوسائل الإعلام، فعليها أن تهتم بالعمل في المجال الإعلامي الدعوي، وأن تخصص فيه بهدف خدمة الدين ودفع الشبهات عن المرأة المسلمة في شتى مجالات الإعلام، فهو باب من أبواب الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والمؤسف أن هذه المجالات أصبحت في عصرنا الحالي بيد أعداء الإسلام من حملة الأفكار الهدامة للمجتمع المسلم، فاتخذوا من المرأة سلعة تباع وتشترى بصورة منافية للأخلاق والدين، فلا بد من نساء

إعلاميات متخصصات ملتزمات بهدي الإسلام، يدافعن عنه وينشرن الدعوة الإسلامية بصدق وإخلاص؛ لذلك أوصي الإخوة القائمين على المؤسسات الدعوية والجامعات الإسلامية والفضائيات الهادفة بالآتي:

١- تدريس مواد الإعلام الإسلامي وفن الإقناع وعلم نفسية الجماهير في الجامعات والمعاهد.

٢- على الدعاة في الفضائيات الخروج عن الأنماط التقليدية والجمود والعمل على التفاعل مع الجمهور بطرق متعددة، فالخطاب الجامد المباشر لا يجدي نفعاً ولا يجذب قبولاً عند شرائح كبيرة من شبابنا.

٣- تأهيل فريق متكامل من الإعلاميين والشرعيين، وانتقاؤهم واختيارهم بدقة بناء على معرفة كافية بالموازين الشرعية، وتفرغهم للقيام بواجب الدعوة إلى الله من خلال الوسائل الإعلامية المعاصرة، والعمل على الارتقاء بهم علمياً ودعويّاً وإعلامياً.

٤- إعداد برامج بثّ جماهيرية تفاعلية حوارية.

٥- تشجيع المرأة على الانخراط في مجال العمل الإعلامي والتخصص فيه لممارسة عملها في الدعوة إلى الله دون خروج عن أحكام الشريعة.





مَقَارِئَاتُ

مجلة فصلية

أبحاث ومقالات في
الشريعة والفكر والحضارة



المجلس الإسلامي السوري
SUBIVELI ISLAM KONSEVI SYRIAN ISLAMIC COUNCIL

info@sy-sic.com



www.sy-sic.com



syrian_ic



syrianislamiccouncil